اعتبار أولي الأبصار بسيرة سيد الأبرار ﷺ

(القسم الثاني)

تأليف

د . ياسين محمود عبد القادر علي

مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

تحت إشراف

أ . د . البسيوني مصطفى الكومي

أستاذ الحديث وعلومه بالكلية

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (١) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً - يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) (٣) ، (٤) .

وبعد ....

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار (٥) .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء : آية (١) .

(٣) سورة الأحزاب : آية (٧٠ ، ٧١) .

(٤) خطبة الحاجة أخرجها أبو داود في النكاح / باب : في خطبة النكاح ٢/ ٢٤٥ ح ٢١١٨ ، والترمذي واللفظ له في النكاح / باب : ما جاء في خطبة النكاح ٢/ ٤٠٤ ح ١١٠٥ ، وقال: حسن صحيح ، والنسائي في النكاح / باب : ما يستحب من الكلام عند النكاح ٦/ ٨٩ عن عبد الله ابن مسعود ﷺ .

(٥) أخرجه النسائي في الصغرى في صلاة العيدين / باب : كيف الخطبة ٣/ ١٨٨ عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما .

إن دراسة السيرة النبوية المطهرة من الأمور المهمة لدى المسلمين على وجه الخصوص ، ولدى غيرهم على وجه العموم ، حيث إنه ﷺ رسول للناس كافة مصداقاً لقوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سبأ : ٢٨) وقال : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (الفرقان : ١) .

فدراسة السيرة توقف الباحث والدارس على أخلاقه وصفاته وهيئاته وجميع أحواله فهو ﷺ مصدر الأسوة والقدوة لأمته ولجميع البشر في كل زمان ومكان وذلك كما وصفه ربه في قوله : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب : ٢١) .

فالواجب على كل مسلم وكل باحث عن القدوة والأسوة ، وكل باحث عن القيم والمبادئ الصحيحة السليمة ، وكل منصف وداع إلى الفضيلة أن يأخذ العبرة والعظة من سيرته ﷺ .

وهذه المحاضرات التي أقدمها لإخواني الطلاب إنما هي محاولة للأخذ بأيديهم إلى سيرة نبيهم ﷺ والوقوف بهم علي بعض المواقف التي حدثت له ﷺ وذلك لأخذ العبرة والعظة من سيرته والإقتداء به ﷺ .

وهذه الدراسة تتناول العهد المدني – أعنى من بداية الهجرة إلى انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى – بما اشتمل عليه هذا العهد من تأسيس للمجتمع الجديد ، وتشريع باقي الفرائض ، وتشريع الجهاد ، وبيان بعض غزواته وجهاده لكفار مكة ويهود المدينة .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف .

الهجرة من مكة إلى المدينة والإعداد لها

- معنى الهجرة :
- الإعداد للهجرة :
- اجتماع قريش في دار الندوة :
- في غار ثور :
- في طريق الهجرة :
- المرور على أم معبد :
- مواصلة السير والوصول إلى المدينة وترقب أهلها :
- فضل المدينة :

معنى الهجرة :

" الهِجْرة في الأصْل : الاسْم من الهَجْر ضِدّ الوَصْل . وقد هَجَره هَجْراً وهِجْراناً ثُم غَلَب على الخُرُوج من أرض إلى أرض وتَرْك الأولى للثَّانية . يُقال منه : هاجَر مُهاجَرةً .

والهِجْرَة هِجْرتَان : إحْداهُما التّي وَعَدَ اللَّه عليها الجنَّة في قوله (إنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِن المؤمنين أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهم بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) (١) فكَان الرَّجُل يَأتي النبيَّ ﷺ ويَدَعُ أهْلَه ومَاله لا يَرْجِع في شيء منه ويَنْقَطِع بنَفْسه إلى مُهاجَرِه ، وكان النبيُّ ﷺ يَكْرَه أن يَمُوت الرَّجُلُ بالأرض التي هَاجَرَ منها .

والهِجْرة الثَّانيَة : مَن هَاجَر من الأعْراب وغَزَا مع المُسْلمين ولم يفعل كما فَعَل أصْحابُ الهِجْرة الأولى ، فهو مُهاجِر ولَيْس بدَاخِل في فَضْل من هاجَر تِلْك الهِجْرَة ، وإذا أُطْلِق في الحديث ذِكْرُ الهِجْرَتَيْن فإنما يُرَادُ بهما هِجْرةُ الحَبَشَة وهِجْرةُ المدينة" (٢)

" والهِجْرَةُ والهُجْرَةُ الخروج من أرض إلى أرض والمُهاجِرُونَ الذين ذهبوا مع النبي ﷺ مشتق منه ، وتَهَجَّرَ فلان أي تشبه بالمهاجرين .

وأصل المُهاجَرَة عند العرب خروجُ البَدَوِيّ من باديته إلى المُدنِ يقال: هاجَرَ الرجلُ إذا فعل ذلك ، وكذلك كل مُخْلٍ بمَسْكَنه مُنْتَقِلٍ إلى قوم آخرين بِسُكْناهُ فقد هاجَرَ قومَه ، وسمي المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نَشَؤُوا بها لله ، ولَحِقُوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة ، فكل من فارق بلده من بَدَوِيٍّ أو حَضَرِيٍّ أو سكن بلداً آخر فهو مُهاجِرٌ ، والاسم منه الهِجْرة قال الله عز وجل : (ومن يُهاجِرْ في سبيل الله يَجِدْ في الأَرض مُراغَماً كثيراً وسَعَةً)(٣)

---

(١) سورة التوبة : آية (١١١).
(٢) النهاية ي غريب الحديث . مادة : هجر .
(٣) سورة النساء :آية (١٠٠) .

وكل من أقام من البوادي بمَناديهم ومَحاضرِهم في القَيْظ ولم يَلْحَقُوا بالنبي ﷺ ولم يتحوّلوا إلى أمصار المسلمين التي أُحدثت في الإسلام وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين، وليس لهم في الفَيْءِ نصيب ويُسَمَّوْنَ الأعراب "(١) .

" والْهِجْرَة : التَّرْك ، والْهِجْرَة إِلَى الشَّيْء : الانْتِقَال إِلَيْهِ عَنْ غَيْره . وَفِي الشَّرْع : تَرْك مَا نَهَى اللَّه عَنْهُ . وَقَدْ وَقَعَتْ فِي الإِسْلام عَلَى وَجْهَيْنِ : الأَوَّل الانْتِقَال مِنْ دَار الْخَوْف إِلَى دَار الأَمْن كَمَا فِي هِجْرَتَيْ الْحَبَشَة وَابْتِدَاء الْهِجْرَة مِنْ مَكَّة إِلَى الْمَدِينَة ، الثَّانِي الْهِجْرَة مِنْ دَار الْكُفْر إِلَى دَار الإِيمَان وَذَلِكَ بَعْد أَنْ اسْتَقَرَّ النَّبِيّ ﷺ بِالْمَدِينَة وَهَاجَرَ إِلَيْهِ مَنْ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وَكَانَتْ الْهِجْرَة إِذْ ذَاكَ تَخْتَصّ بِالانْتِقَالِ إِلَى الْمَدِينَة ، إِلَى أَنْ فُتِحَتْ مَكَّة فَانْقَطَعَ مِنْ الاخْتِصَاص ، وَبَقِيَ عُمُوم الانْتِقَال مِنْ دَار الْكُفْر لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ بَاقِيًا " (٢) .

الإعداد للهجرة :

لما رأى النبي ﷺ عناد قريش ومكابرتها وصدها عن الدعوة بكل ما أوتيت من قوة ، والشواهد على ذلك كثيرة ، منها تعذيب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ، وملاحقتهم لهم في كل أرض يذهبون إليها ، فمثلاً لاحقوا النبي ﷺ في الطائف عند دعوته لأهلها فرفضوا الدعوة بإيعاز من قريش ، ولاحقوا أصحابه لما ذهبوا إلى الحبشة ، وصاروا بمأمن ومنعة بجوار النجاشي لهم ، فأرسلوا في طلبهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، لتمكن الإيمان من قلب النجاشي ، عند ذلك أيقن النبي ﷺ أنه لا سبيل لحماية هذا الدين إلا بالهجرة من مكة إلى أي بلد آخر يعز أهله هذا الدين ، ويدافعوا عنه بكل غال ونفيس، فأخذ في عرض نفسه على قبائل العرب عله يجد متنفساً عندهم ، بعد أن وطم

---

(١) لسان العرب . مادة : هجر .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/١ .

أهل مكة عليه وعلى دعوته .

فقيض الله له الأنصار الذين بايعوه على النصر وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وتم الاتفاق على ذلك في بيعتين هما بيعة العقبة الأولى ، وبيعة العقبة الثانية ، وتقدم الحديث عنهما في إسلام الأنصار في الجزء الأول من هذا الكتاب . فأخذ النبي ﷺ يعد لذلك عدته ويوجه نظر أصحابه لذلك ، على ما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى .

اجتماع قريش في دار الندوة :

اجتمع كبار قادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر النبي ﷺ بعد أن فشلت محاولتهم في إقناع أتباعهم وحلفائهم بكذب محمد وأصحابه ، وبدأت البلاد المجاورة في استقبال المهاجرين من المسلمين إليها ، عند ذلك أيقن القرشيون بالخطر الحقيقي تجاه الرسول الكريم ﷺ ، فاجتمع المجلس الاستشاري على عجل منهم ليتشاوروا في أمره .

" شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر ، الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ ، وتوافد لهذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية ، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية ، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً " (١) .

صور الله سبحانه هذا الاجتماع لأهل مكة في قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٢) .

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري . ص : ١٤٢ .

(٢) سورة الأنفال : آية (٣٠) .

" فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ صَارَتْ لَهُ شِيعَةٌ وَأَصْحَابٌ مِنْ غَيْرِهِمْ بِغَيْرِ بَلَدِهِمْ ، وَرَأَوْا خُرُوجَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِمْ ، عَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَزَلُوا دَارًا ، وَأَصَابُوا مِنْهُمْ مَنَعَةً فَحَذِرُوا خُرُوجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ . فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ النَّدْوَةِ – وَهِيَ دَارُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ لا تَقْضِي أَمْرًا إِلا فِيهَا – يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْنَ خَافُوهُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَمَّا أَجْمَعُوا لِذَلِكَ ، وَاتَّعَدُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِيَتَشَاوَرُوا فِيهَا فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَدَوْا فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّعَدُوا لَهُ ، وكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يُسَمَّى يَوْمَ الزَّحْمَةِ ، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ ، عَلَيْهِ بَتْلَةٌ (١) ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الدَّارِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَاقِفًا عَلَى بَابِهَا ، قَالُوا : مَنِ الشَّيْخُ ؟ قَالَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ سَمِعَ بِالَّذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ فَحَضَرَ مَعَكُمْ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُونَ ؟ وَعَسَى أَنْ لا يُعْدِمَكُمْ مِنْهُ رَأْيًا وَنُصْحًا ، قَالُوا : أَجَلْ فَادْخُلْ . فَدَخَلَ مَعَهُمْ . وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ ، مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ : عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ . وَمِنْ بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ : طُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ . وَمِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ : النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ . وَمِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى : أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ وَزَمْعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ . وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ : أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ. وَمِنْ بَنِي سَهْمٍ : نُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ ، وَمِنْ بَنِي جُمَحٍ : أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لا يُعَدُّ مِنْ قُرَيْشٍ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَأْمَنُهُ عَلَى الْوُثُوبِ عَلَيْنَا فِيمَنْ قَدْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِنَا ، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا . قَالَ فَتَشَاوَرُوا . ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : احْبِسُوهُ فِي الْحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عَلَيْهِ بَابًا ، ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ مَا

---

(٢) المبتلة من النساء الحسنة الخَلْق لا يَقْصُر شيء عن شيء لا تكون حَسَنة العين سَمِجَة الأنف ولا حَسَنة الأنف سَمِجَة العين ولكن تكون تامّة ، وقيل : هي التي تفرّد كل شيء منها بالحسن على حدَته ، والمُبَتَّلة من النساء التي بُتِّلَ حسنها على أعضائها أي قُطِّع وقيل هي التي لم يَرْكَبْ بعضُ لحمها بعضاً . لسان العرب . مادة : بتل بتصرف .

أَصَابَ أَشْبَاهَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ ، زُهَيْرًا وَالنَّابِغَةَ وَمَنْ مَضَى مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ حَتَّى يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيّ : لا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ . وَاللَّهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوهُ كَمَا تَقُولُونَ لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ الَّذِي أَغْلَقْتُمْ دُونَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَلأَوْشَكُوا أَنْ يَثِبُوا عَلَيْكُمْ فَيَنْزِعُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ ثُمَّ يُكَاثِرُوكُمْ بِهِ حَتَّى يَغْلِبُوكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ فَانْظُرُوا فِي غَيْرِهِ فَتَشَاوَرُوا . ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : نُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ، فَنَنْفِيهِ مِنْ بِلادِنَا ، فَإِذَا أُخْرِجَ عَنَّا فَوَاللَّهِ مَا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ وَلا حَيْثُ وَقَعَ إِذَا غَابَ عَنَّا وَفَرَغْنَا مِنْهُ فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا وَأُلْفَتَنَا كَمَا كَانَتْ . فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيّ : لا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ وَحَلاوَةَ مَنْطِقِهِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى قُلُوبِ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ ، وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِنْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَيَغْلِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يُتَابِعُوهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطَأَكُمْ بِهِمْ فِي بِلادِكُمْ ، فَيَأْخُذَ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، ثُمَّ يَفْعَلَ بِكُمْ مَا أَرَادَ ، دَبِّرُوا فِيهِ رَأْيًا غَيْرَ هَذَا . فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ : وَاللَّهِ إِنَّ لِي فِيهِ لَرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدُ قَالُوا : وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَكَمِ ؟ قَالَ : أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِيدًا نَسِيبًا وَسِيطًا فِينَا ، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا ، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَيْهِ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَقْتُلُوهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ . فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا ، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا ، فَرَضُوا مِنَّا بِالْعَقْلِ فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ . فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيّ : الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ ، هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي لا رَأْيَ غَيْرُهُ فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ " (١) .

تنفيذ الخطة :

ارتضى المشركون رأي أبا جهل ، فأخذوا في تنفيذه ، وعلم النبي ﷺ بمخططهم وما أرادوا ، أخبره جبريل عليه السلام بذلك ، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وأعلمه الخبر ، وبين له أن الله تعالى أذن له بالهجرة ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه الصحبة فأذن له ، وأمر علياً رضي الله عنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٤ : ٢٥٦ .

أن يبيت مكانه ليؤدى الأمانات إلى أهلها ، حتى إذا كانت هدأة الليل خرج من بيته بعناية ربه سبحانه .

قال ابن إسحاق : فأتى جبريلُ عليه السلام رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقَالَ : لا تَبِتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْت تَبِيتُ عَلَيْهِ . فَلَمّا كَانَتْ عَتَمَةٌ مِنْ اللّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَرْصُدُونَهُ مَتَى يَنَامُ فَيَثِبُونَ عَلَيْهِ ، فَلَمّا رَأَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : (نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجّ بِبُرْدِي هَذَا الْحَضْرَمِيّ الْأَخْضَرِ ، فَنَمْ فِيهِ فَإِنّهُ لَنْ يَخْلُصَ إلَيْك شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ) وكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَنَامُ فِي بُرْدِهِ ذَلِكَ إذَا نَامَ (١) .

قال ابن القيم : وأَمَرَ عليًا أَنْ يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللّيْلَةَ ، وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ النّفَرُ مِنْ قُرَيْشٍ يَتَطَلّعُونَ مِنْ صِيَرِ الْبَابِ ، وَيَرْصُدُونَهُ ، وَيُرِيدُونَ بَيَاتَهُ وَيَأْتَمِرُونَ أَيّهُمْ يَكُونُ أَشْقَاهَا ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ ، فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ الْبَطْحَاءِ فَجَعَلَ يَذُرّهُ عَلَى رُءُوسِهِمْ وَهُمْ لا يَرَوْنَهُ وَهُوَ يَتْلُو { وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } [يس : ٩] وَمَضَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ فِي دَارِ أَبِي بَكْرٍ لَيْلاً وَجَاءَ رَجُلٌ وَرَأَى الْقَوْمَ بِبَابِهِ فَقَالَ مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ قَالُوا : مُحَمّدًا قَالَ خِبْتُمْ وَخَسِرْتُمْ . قَدْ وَاَللّهِ مَرّ بِكُمْ وَذَرّ عَلَى رُءُوسِكُمْ التّرَابَ قَالُوا : وَاَللّهِ مَا أَبْصَرْنَاهُ وَقَامُوا يَنْفُضُونَ التّرَابَ عَنْ رُءُوسِهِمْ وَهُمْ : أَبُو جَهْلٍ وَالْحَكَمُ بْنُ الْعَاصِ ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَالنّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وأمية بن خلف ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيّ ، وَأَبُو لَهَبٍ ، وَأُبَيّ بْنُ خَلَفٍ ، وَنُبَيْهٌ وَمُنَبّهٌ ابْنَا الْحَجّاجِ ، فَلَمّا أَصْبَحُوا قَامَ عَلِيّ عَنْ الْفِرَاشِ فَسَأَلُوهُ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ : لا عِلْمَ لِي بِهِ (٢) .

وتحكي السيدة عائشة رضي الله عنها عن الإعداد للهجرة ومجئ النبي ﷺ لهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٤ : ٢٥٦ .

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٢ .

وإخبار أبيها بالهجرة فتقول : لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ ، وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجَنِي قَوْمِي ، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي . قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ : فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ وَلا يُخْرَجُ ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلا يُخْرَجُ ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ ، وَقَالُوا لابْنِ الدَّغِنَةِ : مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ وَلا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا ، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، وَلا يَسْتَعْلِنُ بِصَلاتِهِ ، وَلا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَيَتَقَذَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ فَأَعْلَنَ بِالصَّلاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَانْهَهُ ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ ، وَإِنْ أَبَى إِلاَّ أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ . قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي ، فَإِنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ

(إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ) وَهُمَا الْحَرَّتَانِ ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي) فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ : وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ ؟ . قَالَ : (نَعَمْ) ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ - وَهُوَ الْخَبَطُ - أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي ، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَمْرٌ . قَالَتْ : فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ : (أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : (فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (نَعَمْ) قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بِالثَّمَنِ) قَالَتْ عَائِشَةُ : فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ ، قَالَتْ ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ ، فَلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلاَّ وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ ابْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثِ ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ ، هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ- قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا

إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاثٍ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ (١) .

الشرح والبيان :

معنى : (**لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ**) يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَأُمَّ رُومَانَ . وقَوْلُه : (**فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ**) أيْ بِأَذَى الْمُشْرِكِينَ لَمَّا حَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ وَالْمُطَّلِبِ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ وَأَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ . وقَوْلُه : (**خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ**) أيْ لِيَلْحَقَ بِمَنْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ قَدَّمْتُ أَنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ أَوَّلاً سَارُوا إِلَى جِدَّةَ وَهِيَ سَاحِلُ مَكَّةَ لِيَرْكَبُوا مِنْهَا الْبَحْرَ إِلَى الْحَبَشَةِ . وقَوْلُه : (**بَرْكَ الْغِمَادِ**) أَمَّا بَرْك فَهُوَ : بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ بَعْدَهَا كَافٌ وَحُكِيَ كَسْرُ أَوَّلِه ، وَأَمَّا الْغِمَادُ فَهُوَ : بِكَسْرِ الْمُعْجَمَةِ وَقَدْ تُضَمُّ وَبِتَخْفِيفِ الْمِيمِ ، وَحَكَى ابْنُ فَارِسٍ فِيهَا ضَمَّ الْغَيْنِ ، مَوْضِعٌ عَلَى خَمْسِ لَيَالٍ مِنْ مَكَّةَ إِلَى جِهَةِ الْيَمَنِ .

قَوْلُه : (**ابْنُ الدُّغُنَّةِ**) بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَالْمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ ، وَعِنْدَ الرُّوَاةِ بِفَتْحِ أَوَّلِه وَكَسْرِ ثَانِيهِ وَتَخْفِيفِ النُّونِ ، وقُرِئَ بِفَتْحِ الْغَيْنِ ، وَقِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ كَانَ لاسْتِرْخَاءٍ فِي لِسَانِه وَالصَّوَابُ الْكَسْرُ ، وَثَبَتَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ مِنْ طَرِيقٍ ، وَهِيَ أُمُّه وَقِيلَ أُمُّ أَبِيهِ وَقِيلَ دَابَّتُه .

وَمَعْنَى الدَّغِنَةِ الْمُسْتَرْخِيَةُ ، وَأَصْلُهَا الْغَمَامَةُ الْكَثِيرَةُ الْمَطَرِ ، وَاخْتُلِفَ فِي اسْمِه فَعِنْدَ الْبَلاذُرِيِّ مِنْ طَرِيقِ الْوَاقِدِيِّ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ : الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ ، وَحَكَى السُّهَيْلِيُّ أَنَّ اسْمَه : مَالِكٌ ، وَوَقَعَ فِي " شَرْحِ الْكَرْمَانِيِّ " أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ سَمَّاهُ : رَبِيعَةَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة / بَاب : اسْتِئْجَارِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أَوْ إِذَا لَمْ يُوجَدْ أَهْلُ الإِسْلامِ ٣/ ٤٨ ، وفي بَاب : إِذَا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ لَهُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أَوْ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ بَعْدَ سَنَةٍ جَازَ ٣/ ٤٨ ، وفي الحوالات / بَاب : جِوَارِ أَبِي بَكْرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَقْدِهِ ٣/ ٥٨ ، واللفظ له في المناقب / بَاب : هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ٤/ ٢٥٤ .

ابْن رُفَيْع ، وَهُوَ وَهْمٌ مِنْ الْكِرْمَانِيّ فَإِنَّ رَبِيعَة الْمَذْكُور آخَر يُقَال لَهُ ابْن الدَّغِنَة أَيْضًا لَكِنَّهُ سُلَمِيّ ، وَالْمَذْكُور هُنَا مِنْ الْقَارَة فَاخْتَلَفَا ، وَأَيْضًا السُّلَمِيّ إِنَّمَا ذَكَرَهُ ابْن إِسْحَاق فِي غَزْوَة حُنَيْنٍ وَأَنَّهُ صَحَابِيّ قَتَلَ دُرَيْد بْن الصِّمَّة ، وَلَمْ يَذْكُرهُ ابْن إِسْحَاق فِي قِصَّة الْهِجْرَة . وَفِي الصَّحَابَة ثَالِث يُقَال لَهُ ابْن الدَّغِنَة لَكِنْ اِسْمه حَابِس وَهُوَ كَلْبِيّ ، لَهُ قِصَّة فِي سَبَب إِسْلَامه وَأَنَّهُ رَأَى شَخْصًا مِنْ الْجِنّ فَقَالَ لَهُ " يَا حَابِس بْن دَغِنَة يَا حَابِس " فِي أَبْيَات ، وَهُوَ مِمَّا يُرَجِّح رِوَايَة التَّخْفِيف فِي الدَّغِنَة .

وقوله : (وَهُوَ سَيِّد الْقَارَة) بِالْقَافِ وَتَخْفِيف الرَّاء ، وَهِيَ قَبِيلَة مَشْهُورَة مِنْ بَنِي الْهُون ، بِالضَّمِّ وَالتَّخْفِيف ، ابْن خُزَيْمَة بْن مُدْرِكَة بْن إِلْيَاس بْن مُضَر وَكَانُوا حُلَفَاء بَنِي زُهْرَة مِنْ قُرَيْش ، وَكَانُوا يُضْرَب بِهِمْ الْمَثَل فِي قُوَّة الرَّمْي .

وقوله : (فَأُرِيد أَنْ أَسِيح) بِالْمُهْمَلَتَيْنِ ، لَعَلَّ أَبَا بَكْر طَوَى عَنْ اِبْن الدَّغِنَة تَعْيِين جِهَة مَقْصِده لِكَوْنِهِ كَانَ كَافِرًا ، وَإِلَّا فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَصَدَ التَّوَجُّه إِلَى أَرْض الْحَبَشَة ، وَمِنْ الْمَعْلُوم أَنَّهُ لَا يَصِل إِلَيْهَا مِنْ الطَّرِيق الَّتِي قَصَدَهَا حَتَّى يَسِير فِي الْأَرْض وَحْده زَمَانًا فَيَصْدُقَ أَنَّهُ سَائِح ، لَكِنْ حَقِيقَة السِّيَاحَة أَنْ لَا يَقْصِد مَوْضِعًا بِعَيْنِهِ يَسْتَقِرّ فِيهِ .

وقوله : (تَكْسِب الْمَعْدُوم) فِي رِوَايَة " الْمُعْدِم " وَفِي مُوَافَقَة وَصْف اِبْن الدَّغِنَة لِأَبِي بَكْر بِمِثْلِ مَا وَصَفَتْ بِهِ خَدِيجَة النَّبِيّ ﷺ مَا يَدُلّ عَلَى عَظِيم فَضْل أَبِي بَكْر وَاتِّصَافه بِالصِّفَاتِ الْبَالِغَة فِي أَنْوَاع الْكَمَال . وقوله : (بَيْن لَابَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ)هَذَا مُدْرَج فِي الْخَبَر وَهُوَ مِنْ تَفْسِير الزُّهْرِيّ ، وَالْحَرَّة أَرْض حِجَارَتهَا سُود ، قَالَ اِبْن التِّين : كَأَنَّ النَّبِيّ ﷺ أُرِيَ دَار الْهِجْرَة بِصِفَةٍ تَجْمَع الْمَدِينَة وَغَيْرهَا ، ثُمَّ أُرِيَ الصِّفَة الْمُخْتَصَّة بِالْمَدِينَةِ فَتَعَيَّنَتْ .

وقوله : (عَلَى رِسْلِك) بِكَسْرِ أَوَّله أَيْ عَلَى مَهْلك ، وَالرِّسْل السَّيْر الرَّفِيق ، وَفِي رِوَايَة ابْن حِبَّان " فَقَالَ اصْبِرْ " . وقوله : (وَرَق السَّمُر) بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَضَمّ الْمِيم .

وقوله : (وَهُوَ الْخَبَط) مُدْرَج أَيْضًا فِي الْخَبَر ، وَهُوَ مِنْ تَفْسِير الزُّهْرِيّ ، وَيُقَال السَّمُر شَجَرَة أُمّ غَيْلَان ، وَقِيلَ كُلّ مَا لَهُ ظِلّ ثَخِين ، وَقِيلَ : السَّمُر وَرَق الطَّلْح وَالْخَبَط بِفَتْحِ الْمُعْجَمَة وَالْمُوَحَّدَة مَا يُخْبَط بِالْعَصَا فَيَسْقُط مِنْ وَرَق الشَّجَر قَالَهُ ابْن

فَارِس . وقَوْله : (فِي نَحْر الظَّهِيرَة) أَيْ أَوَّل الزَّوَال وَهُوَ أَشَدّ مَا يَكُون فِي حَرَارَة النَّهَار ، وَالْغَالِب فِي أَيَّام الْحَرّ الْقَيْلُولَة فِيهَا ، وَفِي رِوَايَة ابْن حِبَّان " فَأَتَاهُ ذَات يَوْم ظُهْرًا " وَفِي حَدِيث أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر عِنْد الطَّبَرَانِيّ " كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَأْتِينَا بِمَكَّة كُلّ يَوْم مَرَّتَيْنِ بُكْرَة وَعَشِيَّة ، فَلَمَّا كَانَ يَوْم مِنْ ذَلِكَ جَاءَنَا فِي الظَّهِيرَة ، فَقُلْت : يَا أَبَت هَذَا رَسُول اللَّه ﷺ .

وقَوْله : (هَذَا رَسُول اللَّه مُتَقَنِّعًا) أَيْ مُغَطِّيًا رَأْسه . وقَوْله : (إِحْدَى رَاحِلَتَيْ هَاتَيْنِ قَالَ : بِالثَّمَنِ) زَادَ ابْن إِسْحَاق " قَالَ : لا أَرْكَب بَعِيرًا لَيْسَ هُوَ لِي ، قَالَ : فَهُوَ لَك ، قَالَ : لا وَلَكِنْ بِالثَّمَنِ الَّذِي ابْتَعْتهَا بِهِ ، قَالَ : أَخَذْتهَا بِكَذَا وَكَذَا ، قَالَ أَخَذْتهَا بِذَلِكَ ، قَالَ : هِيَ لَك " وَفِي حَدِيث أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر عِنْد الطَّبَرَانِيّ " فَقَالَ : بِثَمَنِهَا يَا أَبَا بَكْر ، فَقَالَ : بِثَمَنِهَا إِنْ شِئْت " وَنَقَلَ السُّهَيْلِيّ فِي " الرَّوْض " عَنْ بَعْض شُيُوخ الْمَغْرِب أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ اِمْتِنَاعه مِنْ أَخْذ الرَّاحِلَة مَعَ أَنَّ أَبَا بَكْر أَنْفَقَ عَلَيْهِ مَالَهُ ، فَقَالَ : أَحَبَّ أَنْ لا تَكُون هِجْرَته إِلاَّ مِنْ مَال نَفْسه . وَأَفَادَ الْوَاقِدِيّ أَنَّ الثَّمَن ثَمَانمِائَة وَأَنَّ الَّتِي أَخَذَهَا رَسُول اللَّه ﷺ مِنْ أَبِي بَكْر هِيَ الْقَصْوَاء ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ نَعَم بَنِي قُشَيْر ، وَأَنَّهَا عَاشَتْ بَعْد النَّبِيّ ﷺ قَلِيلاً وَمَاتَتْ فِي خِلافَة أَبِي بَكْر ، وَكَانَتْ مُرْسَلَة تَرْعَى بِالْبَقِيع . وَذَكَرَ ابْن إِسْحَاق أَنَّهَا الْجَدْعَاء ، وَكَانَتْ مِنْ إِبِل بَنِي الْحَرِيش ، وَكَذَا فِي رِوَايَة أَخْرَجَهَا ابْن حِبَّان مِنْ طَرِيق هِشَام عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا الْجَدْعَاء . وقَوْله : (وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَة فِي جِرَاب) أَيْ زَادًا فِي جِرَاب ، لِأَنَّ أَصْل السُّفْرَة فِي اللُّغَة الزَّاد الَّذِي يُصْنَع لِلْمُسَافِرِ ، ثُمَّ اُسْتُعْمِلَ فِي وِعَاء الزَّاد ، وَمِثْله الْمَزَادَة لِلْمَاءِ ، وَكَذَلِكَ الرَّاوِيَة . فَاسْتُعْمِلَتْ السُّفْرَة فِي هَذَا الْخَبَر عَلَى أَصْل اللُّغَة . وَأَفَادَ الْوَاقِدِيّ أَنَّهُ كَانَ فِي السُّفْرَة شَاة مَطْبُوخَة .

وقَوْله : (ذَات النِّطَاق) بِكَسْرِ النُّون ، وفي رواية النِّطَاقَيْنِ بِالتَّثْنِيَة ، وَالنِّطَاق مَا يُشَدّ بِهِ الْوَسَط ، وَقِيلَ : هُوَ إِزَار فِيهِ تِكَّة ، وَقِيلَ : هُوَ ثَوْب تَلْبَسهُ الْمَرْأَة ثُمَّ تَشُدّ وَسَطهَا بِحَبْلٍ ثُمَّ تُرْسِل الأَعْلَى عَلَى الأَسْفَل قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَة الْهَرَوِيُّ ، قَالَ : وَسُمِّيَتْ ذَات النِّطَاقَيْنِ لأَنَّهَا كَانَتْ تَجْعَل نِطَاقًا عَلَى نِطَاق ، وَقِيلَ : كَانَ لَهَا نِطَاقَانِ تَلْبَس

أَحَدهمَا وتَجْعَل فِي الآخَر الزَّاد . والْمَحْفُوظ أَنَّهَا شَقَّتْ نِطَاقهَا نِصْفَيْنِ فَشَدَّتْ بِأَحَدهمَا الزَّاد وَاقْتَصَرَتْ عَلَى الآخَر ، فَمِنْ ثَمَّ قِيلَ لَهَا ذَات النِّطَاق وَذَات النِّطَاقَيْنِ ، فَالتَّثْنِيَة وَالإِفْرَاد بِهَذَيْنِ الاعْتِبَارَيْنِ . وَعِنْد ابْن سَعْد مِنْ حَدِيث الْبَاب " شَقَّتْ نِطَاقهَا فَأَوْكَأَتْ بِقِطْعَةٍ مِنْهُ الْجِرَاب وَشَدَّتْ فَم الْقِرْبَة بِالْبَاقِي فَسُمِّيَتْ ذَات النِّطَاقَيْنِ " . وقوله : (**قَالَتْ : ثُمَّ لَحِقَ رَسُول اللَّه ﷺ وَأَبُو بَكْر بِغَارٍ فِي جَبَل ثَوْر**) بِالْمُثَلَّثَة ذَكَرَ الْوَاقِدِيّ أَنَّهُمَا خَرَجَا مِنْ خَوْخَة فِي ظَهْر بَيْت أَبِي بَكْر ، وَقَالَ الْحَاكِم تَوَاتَرَتْ الأَخْبَار أَنَّ خُرُوجه كَانَ يَوْم الاثْنَيْنِ وَدُخُوله الْمَدِينَة كَانَ يَوْم الاثْنَيْنِ ، إِلاَّ أَنَّ مُحَمَّد بْن مُوسَى الْخُوَارِزْمِيّ قَالَ : إِنَّهُ خَرَجَ مِنْ مَكَّة يَوْم الْخَمِيس . قُلْت : يُجْمَع بَيْنهمَا بِأَنَّ خُرُوجه مِنْ مَكَّة كَانَ يَوْم الْخَمِيس وَخُرُوجه مِنْ الْغَار كَانَ لَيْلَة الاثْنَيْنِ ، لأَنَّهُ أَقَامَ فِيهِ ثَلاث لَيَالٍ ، فَهِيَ : لَيْلَة الْجُمُعَة ، وَلَيْلَة السَّبْت ، وَلَيْلَة الأَحَد ، وَخَرَجَ فِي أَثْنَاء لَيْلَة الاثْنَيْنِ .وقوله : (**فَكَمَنَا فِيهِ**) بِفَتْحِ الْمِيم وَيَجُوز كَسْرهَا أَيْ اِخْتَفَيَا . وقوله : (**ثَقِف**) بِفَتْحِ الْمُثَلَّثَة وَكَسْر الْقَاف وَيَجُوز إِسْكَانهَا وَفَتْحهَا وَبَعْدهَا فَاء : الْحَاذِق ، تَقُول ثَقِفْت الشَّيْء إِذَا أَقَمْت عِوَجه . وقوله : (**لَقِن**) بِفَتْحِ اللاَّم وَكَسْر الْقَاف بَعْدهَا نُون اللَّقِن : السَّرِيع الْفَهْم . وقوله : (**فَيُدْلِج**) بِتَشْدِيدِ الدَّال بَعْدهَا جِيم أَيْ يَخْرُج بِسَحَرٍ إِلَى مَكَّة . وقوله : (**يُكْتَادَانِ بِهِ**) أَيْ يَطْلُب لَهُمَا فِيهِ الْمَكْرُوه ، وَهُوَ مِنْ الْكَيْد . وقوله : (**فِي رِسْل**) بِكَسْرِ الرَّاء بَعْدهَا مُهْمَلَة سَاكِنَة : اللَّبَن الطَّرِيّ . وقوله : (**وَرَضِيفهمَا**) بِفَتْحِ الرَّاء وَكَسْر الْمُعْجَمَة بِوَزْنِ رَغِيف أَيْ اللَّبَن الْمَرْضُوف أَيْ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهِ الْحِجَارَة الْمُحْمَاة بِالشَّمْسِ أَوْ النَّار لِيَنْعَقِد وَتَزُول رَخَاوَته .

وقوله : (**حَتَّى يَنْعِق بِهَا عَامِر**) يَنْعِق بِكَسْرِ الْعَيْن الْمُهْمَلَة أَيْ يَصِيح بِغَنَمِهِ ، وَالنَّعِيق صَوْت الرَّاعِي إِذَا زَجَرَ الْغَنَم (١).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٢٧٣ : ٢٨٠ بتصرف .

في غار ثور :

خرج الرسول ﷺ من حصار الكفار ، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق ﷺ ، وذهبا إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب فأقام فيه ثلاثة أيام ثم تابعا السير إلى المدينة .

" وإذا توقعنا تخطيط مكة للقضاء على رسول الله ﷺ ، فسوف يكون طريق المدينة مرصوداً من عدد غفير من الفرسان ، حتى يحال دون وصوله إليها . إن التفكير البشري سينصب طبيعياً على رصده ، لأنه هو هدف الرسول ﷺ ، وفي القبض عليه إنهاء للمعركة كاملة معه ، فاتجاه رسول الله ﷺ إلى الغار فوت على العدو مخططه وأحبطه ، وفوت عليه القبض عليه .

وتبدو عظمة التخطيط أكثر حين نعلم أن غار ثور في جنوبي مكة ، وليس على طريق المدينة حيث احتمالات الرصد " (١) .

" ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماماً ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن ، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل ثور ، وهو جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقي ، ذا أحجار كثيرة ، فحفيت قدم رسول الله ﷺ ، وقيل : بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه " (٢) .

ذكر الله سبحانه نصره لرسوله ﷺ في غار ثور ، وتمثل هذا النصر في إعماء أعين أهل مكة عن رسول الله ﷺ وصحبه ، مع شدة خشية أبى بكر الصديق ﷺ وخوفه من رؤيا المشركين لهما ، ومع اطمئنان قلب النبي ﷺ بنصر الله تعالى له .

قال تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية . منير الغضبان ص : ١٣٨ .

(٢) الرحيق المختوم . ص : ١٤٧ بتصرف .

عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١) .

قال الحافظ ابن كثير : قوله تعالى: { إِلا تَنْصُرُوهُ } أي: تنصروا رسوله ، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه ، كما تولى نصره { إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ } أي: عام الهجرة ، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه ، فخرج منهم هاربًا صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يسيرا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد ، فيخلص إلى الرسول ﷺ منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنه ويُثَبِّته (٢) .

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ : نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ . فَقَالَ : (**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**) (٣) .

ثم يتحدث أبو بكر الصديق ﷺ عن تفاصيل ما حدث لهما في الغار وأثناء سيرهما إلى المدينة في الحديث الذي رواه عنه الْبَرَاءِ بْنَ عَازِبٍ ﷺ قَالَ : جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى أَبِي فِي مَنْزِلِهِ فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلاً . فَقَالَ لِعَازِبٍ : ابْعَثْ مَعِيَ ابْنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَالَ لِي أَبِي : احْمِلْهُ فَحَمَلْتُهُ ، وَخَرَجَ أَبِي مَعَهُ يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ ، فَقَالَ لَهُ أَبِي : يَا أَبَا بَكْرٍ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا لَيْلَةَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَسْرَيْنَا

---

(١) سورة التوبة : آية (٤٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٢/ ٤٧١ ..

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في التفسير / باب : قوله : { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } ٥/ ٢٠٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة / باب : مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ ٤/ ١٨٥٤ ح ٢٣٨١ .

لَيْلَتَنَا كُلَّهَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ ، وَخَلاَ الطَّرِيقُ فَلاَ يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ ، لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدُ ، فَنَزَلْنَا عِنْدَهَا ، فَأَتَيْتُ الصَّخْرَةَ فَسَوَّيْتُ بِيَدِي مَكَانًا يَنَامُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي ظِلِّهَا ، ثُمَّ بَسَطْتُ عَلَيْهِ فَرْوَةً ، ثُمَّ قُلْتُ نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ ، فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا ، فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ : لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلاَمُ ؟ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . قُلْتُ : أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : أَفَتَحْلُبُ لِي ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَأَخَذَ شَاةً ، فَقُلْتُ لَهُ : انْفُضْ الضَّرْعَ مِنْ الشَّعَرِ وَالتُّرَابِ وَالْقَذَى . قَالَ : فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى الأُخْرَى يَنْفُضُ فَحَلَبَ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ ، قَالَ : وَمَعِي إِدَاوَةٌ أَرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيَشْرَبَ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ ، فَوَافَقْتُهُ اسْتَيْقَظَ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنْ الْمَاءِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ . قَالَ : فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ، ثُمَّ قَالَ : **(أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ ؟)** قُلْتُ : بَلَى قَالَ : فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا زَالَتْ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنْ الأَرْضِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا فَقَالَ : **(لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)** فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ ، فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَا فَرَجَعَ لا يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَاهُنَا فَلا يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ قَالَ وَوَفَى لَنَا (١) .

الشرح والبيان :

معنى: **(يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ)** أَيْ يَسْتَوْفِيهِ ، وَيُقَالُ : سَرَى وَأَسْرَى لُغَتَانِ بِمَعْنًى . وَقَائِمُ

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلامِ ٤/ ١٨٠ ، ١٨١ ، ومسلم في الزهد والرقائق / بَاب : فِي حَدِيثِ الْهِجْرَةِ وَيُقَالُ لَهُ حَدِيثُ الرَّحْلِ ٤/ ٢٣٠٩ ح ٢٠٠٩ .

الظَّهِيرَة نِصْف النَّهَار ، وَهُوَ حَال اسْتِوَاء الشَّمْس ، سُمِّيَ قَائِمًا لأَنَّ الظِّلّ لا يَظْهَر ، فَكَأَنَّهُ وَاقِف قَائِم . وَوَقَعَ فِي أَكْثَر النُّسَخ : (**قَائِم الظُّهْر**) بِضَمّ الظَّاء وَحَذْف الْيَاء . وقوله : (**رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَة**) أَيْ ظَهَرَتْ لأَبْصَارِنَا . وقوله : (**فَبَسَطْت عَلَيْهِ فَرْوَة**) الْمُرَاد الْفَرْوَة الْمَعْرُوفَة الَّتِي تُلْبَس ، هَذَا هُوَ الصَّوَاب ، وَذَكَر الْقَاضِي أَنَّ بَعْضهمْ قَالَ: الْمُرَاد بِالْفَرْوَةِ هُنَا الْحَشِيش ؛ فَإِنَّهُ يُقَال لَهُ فَرْوَة ، وَهَذَا قَوْل بَاطِل ، وَمِمَّا يَرُدّهُ قَوْله فِي رِوَايَة الْبُخَارِيّ : (فَرْوَة مَعِي) . وَيُقَال لَهَا (فَرْوَة) بِالْهَاءِ ، وَ (فَرْو) بِحَذْفِهَا ، وَهُوَ الأَشْهَر فِي اللُّغَة ، وَإِنْ كَانَتَا صَحِيحَتَيْنِ . وقوله : (**أَنْفُض لَك مَا حَوْلك**) أَيْ أُفَتِّش لِئَلاَّ يَكُون هُنَاكَ عَدُوّ . وقوله : (**لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلام ؟ فَقَالَ : لِرَجُلٍ مِنْ أَهْل الْمَدِينَة**) الْمُرَاد بِالْمَدِينَةِ هُنَا مَكَّة، وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَة النَّبِيّ ﷺ سُمِّيَتْ بِالْمَدِينَةِ ، إِنَّمَا كَانَ اسْمهَا يَثْرِب ، هَذَا هُوَ الْجَوَاب الصَّحِيح ، وَأَمَّا قَوْل الْقَاضِي : إِنَّ ذِكْر الْمَدِينَة هُنَا وَهْم فَلَيْسَ كَمَا قَالَ ، بَلْ هُوَ صَحِيح، وَالْمُرَاد بِهَا مَكَّة . وقوله : (**فَحَلَبَ لِي فِي قَعْب مَعَهُ كُثْبَة مِنْ لَبَن . قَالَ : وَمَعِي إِدَاوَة أَرْتَوِي فِيهَا**) الْقَعْب قَدَح مِنْ خَشَب مَعْرُوف ، وَالْكُثْبَة بِضَمِّ الْكَاف وَإِسْكَان الْمُثَلَّثَة وَهِيَ قَدْر الْحَلْبَة ، قَالَهُ ابْن السِّكِّيت ، وَقِيلَ : هِيَ الْقَلِيل مِنْهُ . وَالإِدَاوَة كَالرَّكْوَة . وَأَرْتَوِي أَسْتَقِي . وَهَذَا الْحَدِيث مِمَّا يُسْأَل عَنْهُ فَيُقَال : كَيْف شَرِبُوا اللَّبَن مِنْ الْغُلاَم ، وَلَيْسَ هُوَ مَالِكه ؟

وَجَوَابه مِنْ أَوْجُه :

أَحَدهَا : أَنَّهُ مَحْمُول عَلَى عَادَة الْعَرَب أَنَّهُمْ يَأْذَنُونَ لِلرُّعَاةِ إِذَا مَرَّ بِهِمْ ضَيْف أَوْ عَابِر سَبِيل أَنْ يَسْقُوهُ اللَّبَن وَنَحْوه . **وَالثَّانِي** : أَنَّهُ كَانَ لِصَدِيقٍ لَهُمْ يَدِلُّونَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا جَائِز **وَالثَّالِث** : أَنَّهُ مَال حَرْبِيّ لا أَمَان لَهُ ، وَمِثْل هَذَا جَائِز . **وَالرَّابِع** : لَعَلَّهُمْ كَانُوا مُضْطَرِّينَ ، وَالْجَوَابَانِ الأَوَّلاَنِ أَجْوَد .وقوله : (**وَنَحْنُ فِي جَلَد مِنْ الأَرْض**) هُوَ بِفَتْحِ الْجِيم وَاللاَّم أَيْ أَرْض صُلْبَة . وَرُوِيَ : (جُدُد) بِدَالَيْنِ ، وَهُوَ الْمُسْتَوِي ، وَكَانَتْ الأَرْض مُسْتَوِيَة صُلْبَة . وقوله : (**فَارْتَطَمَتْ فَرَسه إِلَى بَطْنهَا**) أَيْ غَاصَتْ قَوَائِمهَا فِي تِلْكَ الأَرْض الْجَلَد .وَفِي هَذَا الْحَدِيث فَوَائِد : مِنْهَا هَذِهِ الْمُعْجِزَة الظَّاهِرَة لِرَسُولِ اللَّه ﷺ ، وَفَضِيلَة ظَاهِرَة لأَبِي بَكْر ﷺ مِنْ وُجُوه . وَفِيهِ خِدْمَة التَّابِع لِلْمَتْبُوعِ . وَفِيهِ :

اِسْتِصْحَاب الرَّكْوَة وَالإِبْرِيق وَنَحْوهمَا فِي السَّفَر لِلطَّهَارَةِ وَالشَّرَاب . وَفِيهِ فَضْل التَّوَكُّل عَلَى اللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى وَحُسْن عَاقِبَته (١) .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَلَمّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الْخُرُوجَ أَتَى أَبَا بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ لأَبِي بَكْرٍ فِي ظَهْرِ بَيْتِهِ ، ثُمّ عَمَدَ إلَى غَارٍ بِثَوْرٍ - جَبَلٍ بِأَسْفَلِ مَكّةَ - فَدَخَلاهُ ، وَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ عَبْدَ اللّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَتَسَمّعَ لَهُمَا مَا يَقُولُ النّاسُ فِيهِمَا نَهَارَهُ ثُمّ يَأْتِيهِمَا إذَا أَمْسَى بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْخَبَرِ ؛ وَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ مَوْلاهُ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ نَهَارَهُ ثُمّ يُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا ، يَأْتِيهِمَا إذَا أَمْسَى فِي الْغَارِ . وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَأْتِيهِمَا مِنْ الطّعَامِ إذَا أَمْسَتْ بِمَا يُصْلِحُهُمَا . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَحَدّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنّ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيّ قَالَ : انْتَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ إلَى الْغَارِ لَيْلاً ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ قَبْلَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَلَمَسَ الْغَارَ لِيَنْظُرَ أَفِيهِ سَبُعٌ أَوْ حَيّةٌ يَقِي رَسُولَ اللّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ (٢) .

في طريق الهجرة :

سلك عبد الله بن أريقط الدليل بالنبي ﷺ وأبى بكر طريق الساحل حتى يعمى خبرهما عن كفار مكة ومن تبعهم من القبائل ، ولحق بهم سراقة بن مالك والقصة يرويها ابن شهاب كما روى البخاري في الصحيح قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمُدْلِجِيُّ وَهُوَ ابْنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ يَقُولُ : جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، قَالَ سُرَاقَةُ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٨ / ١٤٨ : ١٥١ بتصرف .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٨ .

لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وَفُلانًا انطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الأَرْضَ ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الأَزْلامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلامِ ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلانِي إِلاَّ أَنْ قَالَ : (**أَخْفِ عَنَّا**) فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١)

الشرح والبيان :

معنى : (**دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ**) أَيْ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَصَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ فِي رِوَايَتِهِمَا عَنِ الزُّهْرِيِّ ، وَفِي حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ " وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ حِينَ فَقَدُوهُمَا فِي بِغَائِهِمَا ، وَجَعَلُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ مِائَةَ نَاقَةٍ ، وَطَافُوا فِي جِبَالِ مَكَّةَ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَيَرَانَا . وَكَانَ مُوَاجِهَهُ - فَقَالَ : (**كَلاَّ إِنَّ مَلائِكَةً تَسْتُرُنَا**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب / باب : هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ٤/ ٢٥٦ .

بأجنحتها)، جلس ذلك الرجل يبول مواجهة الغار ، فقال النبي ﷺ : (لو كان يرانا ما فعل هذا) . وقوله : (أسودة) أي أشخاصا . وقوله : (فخططت) بالمعجمة ، وفي رواية بالمهملة أي أمكنت أسفله . وقوله : (بزجه) الزج بضم الزاي بعدها جيم الحديدة التي في أسفل الرمح . وقوله : (وخفضت) أي أمسكه بيده وجر زجه على الأرض فخطها به لئلا يظهر بريقه لمن بعد منه ، لأنه كره أن يتبعه منهم أحد فيشركوه في الجعالة . وقوله : (فرفعتها) أي أسرعت بها السير . وقوله : (تقرب بي) التقريب السير دون العدو وفوق العادة ، وقيل : أن ترفع الفرس يديها معا وتضعهما معا . قوله : (فأهويت يدي) أي بسطهما للأخذ ، والكنانة الخريطة المستطيلة . قوله : (فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا) والأزلام: هي الأقداح ، وهي السهام التي لا ريش لها ولا نصل . قوله : (فخرج الذي أكره) أي لا تضرهم .قوله : (ساخت) بالخاء المعجمة أي غاصت . قوله : (عثان) بضم المهملة بعدها مثلثة خفيفة أي دخان ، قال معمر : قلت لأبي عمرو بن العلاء ما العثان ؟ قال : الدخان من غير نار ، وفي رواية : غبار بمعجمة ثم موحدة ثم راء ، والأول أشهر . وذكر أبو عبيد في غريبه قال : وإنما أراد بالعثان الغبار نفسه ، شبه غبار قوائمها بالدخان . قوله : (فلم يرزآني) براء ثم زاي ، أي لم ينقصاني مما معي شيئا (١) .

وكان أبو بكر ﷺ إذا مر به أحد وسأله عن رسول الله ﷺ فيقول : هاد يهديني السبيل ، وهذا من باب التعمية على الأعداء ، وحماية لشخص الرسول الكريم ﷺ .

" وطالما أن رسول الله ﷺ مع أبي بكر هو الهدف لقريش ، وقد أعلن عن وضع مائة ناقة لمن يعثر عليه ويحضره ، ومائة ناقة ثروة ضخمة للعربي الصعلوك الذي لا يجد قوته ، فسوف تتسامع العرب بخبره وتحاول الظفر به ، وتقدير هذه الصورة دفع

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٢٨٣ : ٢٨٥ بتصرف .

أبا بكر ﷺ أن يستعمل هذا التعبير ، فيوحي للسائل أن رسـول الله دليلـه علـى الطريق ، وبذلك ينتفى الاتهام الذي يحوم حول أحدهما أن يكون صاحب قريش " (١) .

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْـرٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرَفُ وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ شَابٌّ لاَ يُعْرَفُ ، قَالَ : فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ؟ فَيَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ . قَـالَ : فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ لَحِقَهُمْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا فَارِسٌ قَدْ لَحِقَ بِنَا فَالْتَفَتَ نَبِيُّ اللَّـهِ ﷺ فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ**) فَصَرَعَهُ الْفَرَسُ ثُمَّ قَامَتْ تُحَمْحِمُ . فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ مُرْنِي بِمَا شِئْتَ قَالَ : (**فَقِفْ مَكَانَكَ لا تَتْرُكَنَّ أَحَدًا يَلْحَقُ بِنَا**) قَالَ : فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَسْلَحَةً لَهُ (٢) .

المرور على أم معبد :

هي : أم معبد الخزاعية : التي نزل عليها النبي ﷺ لما هاجر ، مشهورة بكنيتهـا واسمها عاتكة بنت خالد (٣) .

فعَنْ حُبَيْشِ بن خَالِدٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَـرَجَ مِـنْ مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مِنْهَا مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ وَأَبُو بَكْرٍ ﷺ ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بن فُهَيْرَةَ ﷺ ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بن الأُرَيْقِطِ مَرُّوا عَلَى خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيَّةِ ، وَكَانَتْ بَرْزَةً (٤) جَلْدَةً تَحْتَبِي بِفِنَاءِ الْقُبَّةِ ، ثُمَّ تَسْقِي وَتُطْعِمُ ، فَسَـأَلُوهَا لَحْمًـا وَتَمْـرًا لِيَشْتَرُوهُ مِنْهَا ، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ ، فَنَظَرَ

---

(١) المنهج الحركي . منير الغضبان . ص : ١٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ٤/ ٢٥٦

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٤٩٧ .

(٤) بَرْزَةٌ : يقال امرأة بَرْزَة إذا كانت كهْلة لا تَحْتَجب احتجاب الشَّوابّ وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تَجْلس للناس وتُحدثهم من البرُوز وهو الظُهور والخُروج .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كِسْرِ الْخَيْمَةِ (١) ، فَقَالَ : " **مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ ؟** " قَالَتْ : خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ (٢) ، قَالَ : " **فَهَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟** " ، قَالَتْ : هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : " **أَتَأْذَنِينَ أَنْ أَحْلُبَهَا ؟** " ، قَالَتْ : بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، نَعَمْ إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا ، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا وَسَمَّى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا ، فَتَفَاجَتْ (٣) عَلَيْهِ وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ ، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ (٤) فَحَلَبَ فِيهَا ثَجًّا(٥) حَتَّى عَلاهُ الْبَهَاءُ (٦) ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رُوِيَتْ ، وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا ، وَشَرِبَ آخِرَهُمْ ﷺ ، ثُمَّ أَرَاضُوا ثُمَّ حَلَبَ فِيهَا ثَانِيًا بَعْدَ بَدْءٍ حَتَّى مَلأَ الإِنَاءَ ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا ثُمَّ بَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا ، فَقَلَّمَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ هُزْلا (٧) ضُحًى ، مُخُّهُنَّ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبَدٍ اللَّبَنَ عَجِبَ، وَقَالَ : مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا اللَّبَنُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ ؟ وَالشَّاةُ عَازِبٌ حِيَالٌ (٨) ، وَلا حَلُوبَةَ فِي الْبَيْتِ ؟ قَالَتْ : لا وَاللَّهِ إِلا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبَدٍ ، قَالَتْ : رَأَيْتُ رَجُلا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ أَبْلَجَ الْوَجْهِ (٩) حَسَنَ

---

(١) كِسْرِ الْخَيْمَةِ : أي جانبها .

(٢) خَلَّفَهَا الْجَهْدُ : أي الهزال .

(٣) فَتَفَاجَتْ : يريد فتحت ما بين رجليها للحلب يقال تفاج الرجل إذا فتح ما بين رجليه للبول .

(٤) يُرْبِضُ الرَّهْطَ : أي يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا ، والرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة وكذلك النفر والعصبة ما فوق ذلك إلى أربعين .

(٥) فَحَلَبَ فِيهَا ثَجًّا : والثج السيلان قال الله جل وعز " (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) (النبأ :١٤) أي : سيالاً .

(٦) حَتَّى عَلاهُ الْبَهَاءُ : يريد علا الإناء بهاء اللبن وهو وبيص رغوته يريد أنه ملأه

(٧) تَسَاوَكْنَ هُزْلا : أي تتمايل من الضعف .

(٨) وَالشَّاةُ عَازِبٌ حِيَالٌ : أي بعيد في المرعى يقال عزب فلان إذا بعد ، والحيال التي لم تحمل يقال حالت الشاة حيالا وحالت القوس تحول حولا وكذلك حال الرجل عن

(٩) أَبْلَجَ الْوَجْهِ : تريد مشرق الوجه مضيئه ومنه يقال تبلج الصبح إذا أسفر وانبلج الفجر

الْخَلْقِ لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ (١) وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ (٢) ، وَسِيمٌ ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ (٣) ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ (٤) ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ (٥) ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ (٦) ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ (٧) ، أَزَجُّ أَقْرَنُ (٨) ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلاهُ الْبَهَاءُ ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ ، فَصْلٌ لا هَذْرٌ وَلا نَزْرٌ (٩)، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ ، رَبْعَةٌ لا يَأْسَ مِنْ طُولٍ ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ ، إِنْ قَالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ (١٠) لا عَابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ (١١) ، قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ : هُوَ وَاللَّهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لَنَا أَمْرُهُ مَا ذُكِرَ بِمَكَّةَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ وَلأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلا ، فَأَصْبَحَ صَوْتٌ

---

(١) ثُجْلَةٌ : أي ضِخَمُ بَطْنٍ . ورجل أَثْجَلُ ويروى بالنون والحاء : أي نُحول ودقَّة .

(٢) صَعْلَةٌ : أي صِغَرُ الرأس .

(٣) دَعَجٌ : السَّوادُ ، وقيل : شدّة السواد ، وقيل : الدَّعَجُ شدّة سواد سواد العين وشدة بياض بياضها ، وقيل : شدة سوادها مع سعتها .

(٤) أشْفَارِهِ وَطَفٌ : أي في شَعْرِ أجْفانه طُولٌ وقَدْ وَطِفَ يَوْطَفُ فهو أَوْطَفُ .

(٥) في صَوْتِهِ صَهَلٌ : تريد فيه كالبحة وهو أن لا يكون حاداً ، والصحل البحة .

(٦) في عُنُقِهِ سَطَعٌ : أي ارتفاعٌ وطول .

(٧) وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ : كثرة أصولها وشعرها وأنها ليست بدقيقة ولا طويلة وفيها كثافة .

(٨) أَزَجُّ أَقْرَنُ : الزَّجَج : تقوُّس في الحاجب مع طُول في طَرَفه وامتداد ، أقْرَنُ : أي مقْرُون الحاجبَيْن .

(٩) هَذِرٌ وَلا نَزْرٌ : أي لا يتكلم بالكلام التافه أو القليل و لا بسقط الكلام .

(١٠) مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ : الذي يَخْدِمُه أصحابه ويُعَظِّمُونه ويُسْرِعون في طاعته ، ورجل محشود إذا كان الناس يَحُفُّون بخدمته لأنه مطاع فيهم .

(١١) عَابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ : العَابِسُ : الكَرِيهُ المَلْقَى الجَهْمُ المُحَيَّا ، والمُفَنَّدُ أي لا فائدة في كلامه لكبرٍ أصابه . انظر تفسير هذه المعاني في كتب غريب الحديث لابن قتيبة ، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، ولسان العرب لابن منظور ، وغيرها من كتب اللغة والمعاجم .

بِمَكَّةَ عَلِيًّا يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلا يَدْرُونَ مَنْ صَاحِبُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ *** رَفِيقَيْنِ قَالا خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلاهَا بِالْهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ *** فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ

فَيَا لِقُصَيٍّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمُ بِهِ *** مِنْ فَعَالٍ لا تُجَارَى وَسُؤْدَدِ

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ *** وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا *** فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ عَلَيْهِ *** صَرِيحًا ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ

فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ *** يُرَدِّدُهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

فَلَمَّا سَمِعَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ بِذَلِكَ شَبَّبَ يُجِيبُ الْهَاتِفَ ، وَهُوَ يَقُولُ :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ *** وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي

تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ *** وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلالَةِ رَبُّهُمْ *** وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعِ الْحَقَّ يُرْشَدِ

وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا *** عَمَايَتَهُمْ هَادٍ بِهِ كُلُّ مُهْتَدِ

وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبَ *** رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدِ

نَبِيٌّ يَرَى مَا لا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ *** وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ

وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ *** فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ

لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ *** بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعَدِ

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ *** وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ (١)

---

(١) حديث أم معبد أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٠ ، ١١ من حديث هشام بن حبيش وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وذكر أموراً يستدل بها على الصحة ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه الطبراني في الكبير واللفظ له ٤/٤٨ ح ٣٦٠٥ من حديث حبيش بن خالد أخو أم معبد ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٥٨ وعزاه للطبراني ، وقال وفي إسناده جماعة لم أعرفهم . وللحديث شاهدان عن جابر بن عبد الله وأبى معبد أوردهما ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٨١ ، ١٨٢ ، وعليه فالحديث حسن لغيره بمجموع الشواهد والطرق والله أعلم .

مواصلة السير والوصول إلى المدينة وترقب أهلها :

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ ، فَلَمْ يَمْلِكْ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ : هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا : لَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ :

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

وَيَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ ... فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ (١) .

الشرح والبيان :

معنى: (**يَغْدُونَ**) بِسُكُونِ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ أَيْ يَخْرُجُونَ غُدْوَةً . وقوله : (**أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ**) أَيْ طَلَعَ إِلَى مَكَانٍ عَالٍ فَأَشْرَفَ مِنْهُ . وقوله : (**أُطُم**) بِضَمِّ أوله وثانيه هُوَ الْحِصْنُ ، وَيُقَال كَانَ بِنَاء مِنْ حِجَارَة كَالْقَصْرِ . وقوله : (**مُبَيَّضِينَ**) أَيْ عَلَيْهِمْ الثِّيَاب الْبِيض الَّتِي كَسَاهُمْ إِيَّاهَا الزُّبَيْر أَوْ طَلْحَة ، وَقَالَ ابن التِّين : يَحْتَمِل أَنْ يَكُون مَعْنَاهُ مُسْتَعْجِلِينَ ، وَحَكَى عَنْ ابْن فَارِس يُقَال بَايِض أَيْ مُسْتَعْجِل .قوله : (**يَزُول بِهِمْ السَّرَاب**) أَيْ يَزُول السَّرَاب عَنْ النَّظَر بِسَبَب عُرُوضهمْ لَهُ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ ظَهَرَتْ حَرَكَتهمْ لِلْعَيْنِ . وقوله : (**يَا مَعَاشِر الْعَرَب**) فِي رِوَايَة " يَا بَنِي قَيْلَة " وَهُوَ بِفَتْحِ الْقَاف وَسُكُون التَّحْتَانِيَّة وَهِيَ الْجَدَّة الْكُبْرَى لِلأَنْصَارِ وَالِدَة الأَوْس وَالْخَزْرَج ، وَهِيَ قَيْلَة بِنْت كَاهِل بْن عُذْرَة . وقوله : (**هَذَا جَدّكُمْ**) بِفَتْحِ الْجِيم أَيْ حَظّكُمْ وَصَاحِب دَوْلَتكُمْ الَّذِي تَتَوَقَّعُونَهُ ، وَفِي رِوَايَة " هَذَا صَاحِبكُمْ " . وقوله : (**وَذَلِكَ يَوْم الاثْنَيْنِ مِنْ شَهْر رَبِيع الأَوَّل**) وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَد وَشَذَّ مَنْ قَالَ يَوْم الْجُمُعَة ، وفي رِوَايَة مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ ابْن شِهَاب " قَدِمَهَا لِهِلالِ رَبِيع الأَوَّل " أَيْ أَوَّل يَوْم مِنْهُ ، وَفِي رِوَايَة جَرِير ابْن حَازِم عَنْ ابْن إِسْحَاق " قَدِمَهَا لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ شَهْر رَبِيع الأَوَّل " وَنَحْوه عِنْد أَبِي مَعْشَر ، لَكِنْ قَالَ لَيْلَة الاثْنَيْنِ ، وَمِثْله عَنْ ابْن الْبَرْقِيّ ، وَثَبَتَ كَذَلِكَ فِي أَوَاخِر صَحِيح مُسْلِم ، وَفِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن سَعْد عَنْ ابْن إِسْحَاق " قَدِمَهَا لاثْنَتَيْ عَشْرَة لَيْلَة خَلَتْ مِنْ رَبِيع الأَوَّل " وَعِنْد أَبِي سَعِيد فِي " شَرَف الْمُصْطَفَى " مِنْ طَرِيق أَبِي بَكْر بْن حَزْم " قَدِمَ لِثَلاثَ عَشْرَةَ مِنْ رَبِيع الأَوَّل " .

وَهَذَا يُجْمَع بَيْنه وَبَيْن الَّذِي قَبْله بِالْحَمْلِ عَلَى الاخْتِلاف فِي رُؤْيَة الْهِلال ، وَعِنْده مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب / باب : هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ٤/ ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

حَدِيث عُمَر " ثُمَّ نَزَلَ عَلَى بَنِي عَمْرو بْن عَوْف يَوْم الاثْنَيْنِ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ رَبِيع الأَوَّل كَذَا فِيهِ وَلَعَلَّهُ كَانَ فِيهِ " خَلَتَا " لِيُوَافِق رِوَايَة جَرِير وَابْن حَازِم ، وَعِنْد الزُّبَيْر فِي خَبَر الْمَدِينَة عَنْ ابْن شِهَاب " فِي نِصْف رَبِيع الأَوَّل " وَقِيلَ : كَانَ قُدُومه فِي سَابِعه، وَجَزَمَ ابْن حَزْم بِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ مَكَّة لِثَلاث لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ صَفَر ، وَهَذَا يُوَافِق قَوْل هِشَام بْن الْكَلْبِيّ إِنَّهُ خَرَجَ مِنْ الْغَار لَيْلَة الاثْنَيْنِ أَوَّل يَوْم مِنْ رَبِيع الأَوَّل ، فَإِنْ كَانَ مَحْفُوظًا فَلَعَلَّ قُدُومه قُبَاء كَانَ يَوْم الاثْنَيْنِ ثَامِن رَبِيع الأَوَّل ، وَإِذَا ضُمَّ إِلَى قَوْل أَنَس إِنَّهُ أَقَامَ بِقُبَاءَ أَرْبَع عَشْرَة لَيْلَة خَرَجَ مِنْهُ أَنَّ دُخُوله الْمَدِينَة كَانَ لاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ مِنْهُ ، لَكِنْ الْكَلْبِيّ جَزَمَ بِأَنَّهُ دَخَلَهَا لاثْنَتَيْ عَشْرَة خَلَتْ مِنْهُ فَعَلَى قَوْله تَكُون إِقَامَته بِقُبَاء أَرْبَع لَيَالٍ فَقَطْ وَبِهِ جَزَمَ ابْن حِبَّان فَإِنَّهُ قَالَ : " أَقَامَ بِهَا الثُّلاثَاء وَالأَرْبِعَاء وَالْخَمِيس " يَعْنِي وَخَرَجَ يَوْم الْجُمُعَة ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْتَدّ بِيَوْمِ الْخُرُوج ، وَكَذَا قَالَ مُوسَى بْن عُقْبَة إِنَّهُ أَقَامَ فِيهِمْ ثَلاث لَيَالٍ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْتَدّ بِيَوْمِ الْخُرُوج ، وَلا الدُّخُول ، وَعَنْ قَوْم مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف أَنَّهُ أَقَامَ فِيهِمْ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا حَكَاهُ الزُّبَيْر بْن بَكَّار ، وَفِي مُرْسَل عُرْوَة بْن الزُّبَيْر مَا يَقْرُبُ مِنْهُ كَمَا يُذْكَر عَقِب هَذَا ، وَالأَكْثَر أَنَّهُ قَدِمَ نَهَارًا ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة مُسْلِم لَيْلاً ، وَيُجْمَع بِأَنَّ الْقُدُوم كَانَ آخِر اللَّيْل فَدَخَلَ نَهَارًا . وَقَوْله : (**فَقَامَ أَبُو بَكْر لِلنَّاسِ**) أَيْ يَتَلَقَّاهُمْ . وَقَوْله : (**فَطَفِقَ**) أَيْ جَعَلَ (مَنْ جَاءَ مِنْ الأَنْصَار مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُول اللَّه ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْر) أَيْ يُسَلِّم عَلَيْهِ ، قَالَ ابْن التِّين : إِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِأَبِي بَكْر لِكَثْرَة تَرَدُّده إِلَيْهِمْ فِي التِّجَارَة إِلَى الشَّام فَكَانُوا يَعْرِفُونَهُ ، وَأَمَّا النَّبِيّ ﷺ فَلَمْ يَأْتِهَا بَعْد أَنْ كَبُرَ . قُلْت : ظَاهِر السِّيَاق يَقْتَضِي أَنَّ الَّذِي يُحَيِّي مِمَّنْ لا يَعْرِف النَّبِيّ ﷺ يَظُنّهُ فَلِذَلِكَ يَبْدَأ بِالسَّلامِ عَلَيْهِ ، وَيَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله فِي بَقِيَّة الْحَدِيث " فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْر يُظَلِّل عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ ، فَعَرَفَ النَّاس رَسُول اللَّه ﷺ " وَوَقَعَ بَيَان ذَلِكَ فِي رِوَايَة مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ ابْن شِهَاب قَالَ : " وَجَلَسَ رَسُول اللَّه ﷺ صَامِتًا ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنْ الأَنْصَار مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ رَآهُ يَحْسِبهُ أَبَا بَكْر ، حَتَّى إِذَا أَصَابَتْهُ الشَّمْس أَقْبَلَ أَبُو بَكْر بِشَيْءٍ أَظَلَّهُ بِهِ " وَلِعَبْدِ الرَّحْمَن بْن عُوَيْم فِي رِوَايَة ابْن إِسْحَاق " أَنَاخَ إِلَى الظِّلّ هُوَ وَأَبُو بَكْر، وَاَللَّه مَا أَدْرِي أَيّهمَا هُوَ ، حَتَّى رَأَيْنَا أَبَا بَكْر يَنْحَاز لَهُ عَنْ الظِّلّ فَعَرَفْنَاهُ بِذَلِكَ " .

وقوله : (فَلَبِثَ رَسُول اللَّه ﷺ فِي بَنِي عَمْرو بْن عَوْف بِضْع عَشْرَة لَيْلَة) فِي حَدِيث أَنَس الآتِي فِي الْبَاب الَّذِي يَلِيه : أَنَّهُ أَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَع عَشْرَة لَيْلَة ، وَقَدْ ذَكَرْت قَبْله مَا يُخَالِفهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَ مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ اِبْن شِهَاب " أَقَامَ فِيهِمْ ثَلَاثًا " قَالَ : وَرَوَى اِبْن شِهَاب عَنْ مُجَمِّع بْن حَارِثَة " أَنَّهُ أَقَامَ اِثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ لَيْلَة " وَقَالَ اِبْن إِسْحَاق . أَقَامَ فِيهِمْ خَمْسًا ، وَبَنُو عَمْرو بْن عَوْف يَزْعُمُونَ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ . قُلْت : لَيْسَ أَنَس مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف ، فَإِنَّهُمْ مِنْ الأَوْس وَأَنَس مِنْ الْخَزْرَج ، وَقَدْ جَزَمَ بِمَا ذَكَرْته فَهُوَ أَوْلَى بِالْقَبُولِ مِنْ غَيْره .

وقوله : (وَأَسَّسَ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) أَيْ مَسْجِد قُبَاء ، وَفِي رِوَايَة عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ اِبْن شِهَاب عَنْ عُرْوَة قَالَ : الَّذِينَ بَنَى فِيهِمْ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُمْ : بَنُو عَمْرو بْن عَوْف ، وَكَذَا فِي حَدِيث اِبْن عَبَّاس عِنْد اِبْن عَائِذ وَلَفْظه " وَمَكَثَ فِي بَنِي عَمْرو بْن عَوْف ثَلَاث لَيَالٍ وَاتَّخَذَ مَكَانه مَسْجِدًا فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ ، ثُمَّ بَنَاهُ بَنُو عَمْرو بْن عَوْف فَهُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى " وَرَوَى يُونُس بْن بُكَيْر فِي " زِيَادَات الْمَغَازِي " عَنْ الْمَسْعُودِيّ عَنْ الْحَكَم بْن عُتَيْبَة قَالَ : " لَمَّا قَدِمَ النَّبِيّ ﷺ فَنَزَلَ بِقُبَاءَ قَالَ عَمَّار بْن يَاسِر : مَا لِرَسُولِ اللَّه ﷺ بُدّ مِنْ أَنْ يَجْعَل لَهُ مَكَانًا يَسْتَظِلّ بِهِ إِذَا اسْتَيْقَظَ وَيُصَلِّي فِيهِ ، فَجَمَعَ حِجَارَة فَبَنَى مَسْجِد قُبَاء ، فَهُوَ أَوَّل مَسْجِد بُنِيَ " يَعْنِي بِالْمَدِينَةِ ، وَهُوَ فِي التَّحْقِيق أَوَّل مَسْجِد صَلَّى النَّبِيّ ﷺ فِيهِ بِأَصْحَابِهِ جَمَاعَة ظَاهِرًا ، وَأَوَّل مَسْجِد بُنِيَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّة ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ بِنَاء غَيْره مِنْ الْمَسَاجِد لَكِنْ لِخُصُوصِ الَّذِي بَنَاهَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيث عَائِشَة فِي بِنَاء أَبِي بَكْر مَسْجِده . وَرَوَى اِبْن أَبِي شَيْبَة عَنْ جَابِر قَالَ : " لَقَدْ لَبِثْنَا بِالْمَدِينَةِ قَبْل أَنْ يَقْدَم عَلَيْنَا رَسُول اللَّه ﷺ بِسِنِينَ نَعْمُر الْمَسَاجِد وَنُقِيم الصَّلَاة " وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْمُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَمَسْجِد أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم) (١) فَالْجُمْهُور عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِهِ مَسْجِد قُبَاء هَذَا وَهُوَ ظَاهِر الْآيَة ، وَرَوَى مُسْلِم مِنْ طَرِيق عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي سَعِيد عَنْ أَبِيهِ " سَأَلْت

---

(١) سورة التوبة : آية (١٠٨) .

رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى فَقَالَ : هُوَ مَسْجِدكُمْ هَذَا " وَلِأَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ أَبِي سَعِيد " اِخْتَلَفَ رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى فَقَالَ أَحَدهمَا : هُوَ مَسْجِد النَّبِيّ ﷺ ، وَقَالَ الْآخَر : هُوَ مَسْجِد قُبَاء ، فَأَتَيَا رَسُول اللَّه ﷺ فَسَأَلَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : (**هُوَ هَذَا ، وَفِي ذَلِكَ - يَعْنِي مَسْجِد قُبَاء - خَيْر كَثِير**)، وَلِأَحْمَد عَنْ سَهْل بْن سَعْد نَحْوه ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ سَهْل بْن سَعْد عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب مَرْفُوعًا .

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : هَذَا السُّؤَال صَدَرَ مِمَّنْ ظَهَرَتْ لَهُ الْمُسَاوَاة بَيْن الْمَسْجِدَيْنِ فِي اِشْتِرَاكهمَا فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا بَنَاهُ النَّبِيّ ﷺ ، فَلِذَلِكَ سُئِلَ النَّبِيّ ﷺ عَنْهُ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْمُرَاد مَسْجِده ، وَكَأَنَّ الْمَزِيَّة الَّتِي اِقْتَضَتْ تَعْيِينه دُون مَسْجِد قُبَاء لِكَوْنِ مَسْجِد قُبَاء لَمْ يَكُنْ بِنَاؤُهُ بِأَمْرٍ جَزْم مِنْ اللَّه لِنَبِيِّهِ ، أَوْ كَانَ رَأْيًا رَآهُ بِخِلَافِ مَسْجِده ، أَوْ كَانَ حَصَلَ لَهُ أَوْ لِأَصْحَابِهِ فِيهِ مِنْ الْأَحْوَال الْقَلْبِيَّة مَا لَمْ يَحْصُل لِغَيْرِهِ ، اِنْتَهَى .

وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون الْمَزِيَّة لِمَا اِتَّفَقَ مِنْ طُول إِقَامَته ﷺ بِمَسْجِدِ الْمَدِينَة ، بِخِلَافِ مَسْجِد قُبَاء فَمَا أَقَامَ بِهِ إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِل ، وَكَفَى بِهَذَا مَزِيَّة مِنْ غَيْر حَاجَة إِلَى مَا تَكَلَّفَهُ الْقُرْطُبِيّ، وَالْحَقّ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَقَوْله تَعَالَى فِي بَقِيَّة الْآيَة (فِيهِ رِجَال يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا) (١) يُؤَيِّد كَوْن الْمُرَاد مَسْجِد قُبَاء ، وَعِنْد أَبِي دَاوُد بِإِسْنَادٍ صَحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ : " نَزَلَتْ (فِيهِ رِجَال يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا) فِي أَهْل قُبَاء " وَعَلَى هَذَا فَالسِّرّ فِي جَوَابه ﷺ بِأَنَّ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مَسْجِده رَفْع تَوَهُّم أَنَّ ذَلِكَ خَاصّ بِمَسْجِدِ قُبَاء ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَ الدَّاوُدِيّ وَغَيْره: لَيْسَ هَذَا اِخْتِلَافًا ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَكَذَا قَالَ السُّهَيْلِيّ وَزَادَ غَيْره أَنَّ قَوْله تَعَالَى : (مِنْ أَوَّل يَوْم) يَقْتَضِي أَنَّهُ مَسْجِد قُبَاء ، لِأَنَّ تَأْسِيسه كَانَ فِي أَوَّل يَوْم حَلَّ النَّبِيّ ﷺ بِدَارِ الْهِجْرَة ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

---

(١) سورة التوبة : آية (١٠٨) .

وقوله : (ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَته) وَقَعَ عِنْدَ ابْن إِسْحَاق وَابْن عَائِذ أَنَّهُ رَكِبَ مِنْ قُبَاء يَوْم الْجُمُعَة فَأَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَة فِي بَنِي سَالِم بْن عَوْف فَقَالُوا : يَا رَسُول اللَّه هَلُمَّ إِلَى الْعَدَد وَالْعُدَد وَالْقُوَّة ، انْزِلْ بَيْن أَظْهُرنَا . وَعِنْد أَبِي الْأَسْوَد عَنْ عُرْوَة نَحْوه وَزَادَ : وَصَارُوا يَتَنَازَعُونَ زِمَام نَاقَته ، وَسَمَّى مِمَّنْ سَأَلَهُ النُّزُول عِنْدهمْ عِتْبَان بْن مَالِك فِي بَنِي سَالِم ، وَفَرْوَة بْن عَمْرو فِي بَنِي بَيَاضَة ، وَسَعْد بْن عُبَادَةَ وَالْمُنْذِر بْن عَمْرو وَغَيْرهمَا فِي بَنِي سَاعِدَة ، وَأَبَا سَلِيط وَغَيْره ، فِي بَنِي عَدِيّ ، يَقُول لِكُلٍّ مِنْهُمْ " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَة " وَعِنْد الْحَاكِم مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ أَنَس " جَاءَتْ الْأَنْصَار فَقَالُوا إِلَيْنَا يَا رَسُول اللَّه ، فَقَالَ : دَعُوا النَّاقَة فَإِنَّهَا مَأْمُورَة ، فَبَرَكَتْ عَلَى بَاب أَبِي أَيُّوب " .

(مِرْبَدًا) بِكَسْرِ الْمِيم وَسُكُون الرَّاء وَفَتْح الْمُوَحَّدَة : هُوَ الْمَوْضِع الَّذِي يُجَفَّف فِيهِ التَّمْر . وَقَالَ الْأَصْمَعِيّ : الْمِرْبَد كُلّ شَيْء حُبِسَتْ فِيهِ الْإِبِل أَوْ الْغَنَم .

وقوله : (**قَالَ ابْن شِهَاب : وَلَمْ يَبْلُغنَا أَنَّ النَّبِيّ ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْر تَامّ غَيْر هَذِهِ الْأَبْيَات**) قَالَ ابْن التِّين : أُنْكِرَ عَلَى الزُّهْرِيّ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ ، أَحَدهمَا أَنَّهُ رَجَز وَلَيْسَ بِشِعْرٍ ، وَلِهَذَا يُقَال لِقَائِلِهِ رَاجِز ، وَيُقَال أَنْشَدَ رَجَزًا ، وَلَا يُقَال لَهُ شَاعِر وَلَا أَنْشَدَ شِعْرًا وَالْوَجْه الثَّانِي أَنَّ الْعُلَمَاء اخْتَلَفُوا هَلْ يَنْشُد النَّبِيّ ﷺ شِعْرًا أَمْ لَا . وَعَلَى الْجَوَاز هَلْ يَنْشُد بَيْتًا وَاحِدًا أَوْ يَزِيد ؟ وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْبَيْت الْوَاحِد لَيْسَ بِشِعْرٍ ، وَفِيهِ نَظَر ا ه . وَالْجَوَاب عَنْ الْأَوَّل أَنَّ الْجُمْهُور عَلَى أَنَّ الرَّجَز مِنْ أَقْسَام الشِّعْر إِذَا كَانَ مَوْزُونًا ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ ﷺ إِذَا قَالَ ذَلِكَ لَا يُطْلِق الْقَافِيَة بَلْ يَقُولهَا مُتَحَرِّكَة التَّاء ، وَلَا يَثْبُت ذَلِكَ ، وَسَيَأْتِي مِنْ حَدِيث سَهْل بْن سَعْد فِي غَزْوَة الْخَنْدَق بِلَفْظِ " فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار " وَهَذَا لَيْسَ بِمَوْزُونٍ . وَعَنْ الثَّانِي بِأَنَّ الْمُمْتَنِع عَنْهُ ﷺ إِنْشَاؤُهُ لَا إِنْشَاده ، وَلَا دَلِيل عَلَى مَنْع إِنْشَاده مُتَمَثِّلًا . وَقَوْل الزُّهْرِيّ " لَمْ يَبْلُغنَا " لَا اِعْتِرَاض عَلَيْهِ فِيهِ ، وَلَوْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ أَنْشَدَ غَيْر مَا نَقَلَهُ الزُّهْرِيّ ، لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ يَكُون بَلَغَهُ ، وَلَمْ يُطْلِق النَّفْي الْمَذْكُور . عَلَى أَنَّ ابْن سَعْد رَوَى عَنْ عَفَّانَ عَنْ مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان عَنْ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ قَالَ : " لَمْ يَقُلْ النَّبِيّ ﷺ شَيْئًا مِنْ الشِّعْر قِيلَ قَبْله أَوْ يُرْوَى عَنْ غَيْره إِلَّا هَذَا " كَذَا قَالَ ، وَقَدْ قَالَ غَيْره : إِنَّ الشِّعْر الْمَذْكُور لِعَبْدِ اللَّه بْن رَوَاحَة فَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغهُ ،

وَمَا في الصَّحِيحِ أَصَحّ ، وَهُوَ قَوله : ".شِعْر رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " وَفِي الْحَدِيث جَوَاز قَوْل الشِّعْر وَأَنْوَاعه خُصُوصًا الرَّجَز فِي الْحَرْب ، وَالتَّعَاوُن عَلَى سَائِر الأَعْمَال الشَّاقَّة ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَحْرِيك الْهِمَم وَتَشْجِيع النُّفُوس وَتَحَرُّكهَا عَلَى مُعَالَجَة الأُمُور الصَّعْبَة (١).

وفي حديث أنس السابق قال : فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَانِبَ الْحَرَّةِ ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَاءُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا ، وَقَالُوا : ارْكَبَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلاحِ ، فَقِيلَ فِي الْمَدِينَةِ : جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ . جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ . فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ . فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ وَهُوَ فِي نَخْلٍ لأَهْلِهِ يَخْتَرِفُ لَهُمْ ، فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا ، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : (**أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ ؟**) فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ . هَذِهِ دَارِي ، وَهَذَا بَابِي . قَالَ : (**فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلاً**) قَالَ : قُومَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَلَمَّا جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ ، وَقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ وَأَعْلَمُهُمْ وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ ، فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ ، فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ فَأَسْلِمُوا**) قَالُوا : مَا نَعْلَمُهُ . قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَهَا ثَلاثَ مِرَارٍ . قَالَ : (**فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ سَلامٍ؟**) قَالُوا : ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا . قَالَ : (**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟**) قَالُوا : حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ . قَالَ : (**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ ؟**) قَالُوا : حَاشَى لِلَّهِ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٢٨٦ : ٢٩١ بتصرف .

مَا كَانَ لِيُسْلِمَ . قَالَ : (أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ ؟) قَالُوا : حَاشَى لِلَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ . قَالَ : (يَا ابْنَ سَلَامٍ اخْرُجْ عَلَيْهِمْ) فَخَرَجَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ . فَقَالُوا : كَذَبْتَ فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١) .

فضل المدينة :

فضلت المدينة المنورة بهجرة النبي ﷺ إليها وإقامته فيها ، وموته بها ، ووجود القبر الشريف فيها ، ودعا لها النبي ﷺ .

فهي قرة العين ، ونور البصر ، ومهجة القلب ، أحل حبها في كل محل ، واستولى على شغاف كل قلب ، عطر الله هواءها ، وأفاض عليها من بركاته ، وزين أرضها ببصمات من رضي عنهم ورضوا عنه ، فلا زالت قبورهم علامات ، وهي بلد النور الذي لن يطفأ أبداً .

دار الحبيب أحق أن تهواها ... ونحن من طرب إلى ذكراها
لا تحسب المسك الذكي كتربها ... هيهات أين المسك من رياها
طابت فإن تبغي التطيب يا فتى ... فأدم على الساعات لثم ثراها
وابشر ففي الخبر الصحيح ... مقرراً أن الإله بطابة سماها
واختصها بالطيبين لطيبها ... واختارها ودعا إلى سكناها
لا كالمدينة منزل وكفى لها ... شرفاً حلول محمد بفناها
حظيت بهجرة خير من وطئ ... الثرى وأجلهم قدراً فكيف ثراها
جزم الجميع بأن خير الأرض ... ما قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت ... كالنفس حين زكت زكى مأواها (١)

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في التفسير / بَاب : قَوْلِهِ : { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } ٥/ ٢٠٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ ٤/ ١٨٥٤ ح ٢٣٨١ .

(٢) السنن الزكية في الفضائل النبوية . أ . د . سعد جاويش . ٤٩ ، ٥٠ .

قال القاضي عياض : وجدير لمواطن عمرت بالوحي والتنزيل ، وتـردد بهـا جبريل وميكائيل ، وعرجت منها الملائكة والروح ، وضـجت عرصـاتها بالتقـديس والتسبيح ، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من ديـن الله وسـنة رسوله ما انتشر ، مدارس آيات ومساجد وصلوات ، ومشاهد الفضائل والخيـرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك الدين ومشاعر المسـلمين ، ومواقـف سـيد المرسلين ومتبوأ خاتم النبيين ، حيث انفجرت النبوة وأين فاض عبابها ومواطن مهبط الرسالة وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها — أن تعظـم عرصـاتها ، وتتنسـم نفحاتها، وتقبل ربوعها و جدرانها (١) .

وحسبك ما قاله خير البشر ﷺ في فضلها ، ودعوته لها ولأهلها ، وما بينـه مـن تحريمها ، وأنها حرام كحرمة مكة ، وأن الدجال لا يدخلها ، والمباركة لأهلهـا فـي صاعهم ومدهم ، وأن بها الروضة الشريفة ، وأن حوضه يكون علـى منبـره يـوم القيامة، وأنها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد .

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا لا يُقْطَعُ شَجَرُهَا وَلا يُحْدَثُ فِيهَا حَدَثٌ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) (٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (**حُرِّمَ مَا بَيْنَ لابَتَيْ الْمَدِينَةِ عَلَى لِسَـانِي**) قَالَ: وَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ بَنِي حَارِثَةَ فَقَالَ : (**أَرَاكُمْ يَا بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ الْحَرَمِ**) ثُمَّ الْتَفَتَ فَقَالَ : (**بَلْ أَنْتُمْ فِيهِ**) (٣) .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٤٧ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : حَرَمِ الْمَدِينَةِ ٢/٢٢٠ ، وفي الاعتصام / بَاب : إِثْمِ مَنْ آوَى مُحْدِثًا ٨/ ١٤٨ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَـانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/٩٩٣ ح ١٣٦٥ .

(٣) أخرجاه في الموضع السابق .

وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلاَّ كِتَابُ اللَّهِ وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ وَقَالَ ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ) قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ عَدْلٌ فِدَاءٌ (١) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لأَهْلِهَا وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لأَهْلِ مَكَّةَ) (٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ) (٣) .

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ ﷺ قَالَ : أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج / بَاب : حَرَم الْمَدِينَة ٢/ ٢٢١ ، وفي الفرائض / بَاب : إِثْم مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ مَوَالِيه ٨/ ١٠، وفي الاعتصام / بَاب : مَا يُكْرَهُ مِنْ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ ٨/ ١٤٤، ١٤٥ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/٩٩٤ : ٩٩٨ ح ١٣٧٠ ، وفي العتق / بَاب : تَحْرِيمِ تَوَلِّي الْعَتِيقِ غَيْرَ مَوَالِيه ٢/ ١١٤٧ ح ١٣٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في البيوع / بَاب : بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُدِّهِ ٣/ ٢٢ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/٩٩١ ح ١٣٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهَا تَنْفِي النَّاسَ ٢/ ٢٢١ ، ومسلم في الحج / بَاب : الْمَدِينَةِ تَنْفِي شِرَارَهَا ٢/ ١٠٠٦ ح ١٣٨٢

فقَالَ : (هَذِهِ طَابَةٌ) (١) .

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (تُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَتُفْتَحُ الشَّأْمُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَتُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا) (٣) .

وعَنْ سَعْد بن أَبِي وَقَّاص ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : (لا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلاَّ انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ) (٤) .

وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ لَهَا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الزكاة / بَاب : خَرْصِ التَّمْرِ ٢/ ١٣٢ ، وفي الحج / بَاب : الْمَدِينَةُ طَابَةٌ ٢/ ٢٢١ ، وفي المغازي / بَاب : نُزُولِ النَّبِيِّ ﷺ الْحِجْرَ ٥/ ١٣٦ ، ومسلم في الحج / بَاب: أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ٢/ ١٠١١ ح ١٣٩٢ ، وفي الفضائل / بَاب فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ٤/ ١٧٨٥ ح ١٣٩٢ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : مَنْ رَغِبَ عَنْ الْمَدِينَةِ ٢/ ٢٢٢ ، ومسلم في الحج / بَاب : التَّرْغِيبِ فِي الْمَدِينَةِ عِنْدَ فَتْحِ الأَمْصَارِ ٢/ ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ح ١٣٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : الإِيمَانُ يَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ ٢/ ٢٢٢ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : بَيَانِ أَنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ ١/ ١٣١ ح ١٤٧ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : إِثْمِ مَنْ كَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ٢/ ٢٢٢ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ، وفي بَاب مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ ٢/ ٩٩٣ ح ١٣٦٣ .

يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ) (١) .
وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلائِكَةٌ لا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلا الدَّجَّالُ) (٢) .
وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ) (٣) .
وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ ﷺ فَبَايَعَهُ عَلَى الإِسْلامِ فَجَاءَ مِنْ الْغَدِ مَحْمُومًا فَقَالَ : أَقِلْنِي فَأَبَى ثَلاثَ مِرَارٍ ، فَقَالَ : (الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا) (٤)
وعَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج / بَاب : لا يَدْخُلُ الدَّجَّالُ الْمَدِينَةَ ٢/ ٢٢٣ ، وفي الفتن / بَاب : ذِكْرِ الدَّجَّالِ ٨/ ١٠٢ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : لا يَدْخُلُ الدَّجَّالُ الْمَدِينَةَ ٢/ ٢٢٣ ، ومسلم في الحج / بَاب : صِيَانَةِ الْمَدِينَةِ مِنْ دُخُولِ الطَّاعُونِ وَالدَّجَّالِ إِلَيْهَا ٢/ ١٠٠٥ ح ١٣٧٩ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : لا يَدْخُلُ الدَّجَّالُ الْمَدِينَةَ ٢/ ٢٢٣ ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة / بَاب : قِصَّةِ الْجَسَّاسَةِ ٤/ ٢٢٦٥ ح ٢٩٤٣ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب الْمَدِينَةُ تَنْفِي الْخَبَثَ ٢/ ٢٢٣ ، وفي الأحكام / بَاب : بَيْعَةِ الأَعْرَابِ ٨/ ١٢٤ ، وفي بَاب : مَنْ بَايَعَ ثُمَّ اسْتَقَالَ الْبَيْعَةَ ٨/ ١٢٤ ، وفي بَاب : مَنْ نَكَثَ بَيْعَةً ٨/ ١٢٥ ، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة / بَاب : مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْحَرَمَانِ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَمَا كَانَ بِهَا مِنْ مَشَاهِدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمِنْبَرِ وَالْقَبْرِ ٨/ ١٥١ ، ١٥٢ ، ومسلم في الحج / بَاب : الْمَدِينَةِ تَنْفِي شِرَارَهَا ٢/ ١٠٠٦ ح ١٣٨٣ .

الْبَرَكَةِ) (١) .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلالٌ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكَانَ بِلالٌ إِذَا أُقْلِعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يَقُولُ :

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قَالَ : (**اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ**) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ**) قَالَتْ : وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَأُ أَرْضِ اللَّهِ . قَالَتْ : فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلاً تَعْنِي مَاءً آجِنًا (٢).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مِكْيَالِهِمْ وَبَارِكْ**

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج /بَاب : الْمَدِينَةُ تَنْفِي الْخَبَثَ ٢/ ٢٢٤ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/ ٩٩٤ ح١٣٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في الحج / بَاب : كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ ٢/ ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، وفي المناقب : بَاب : مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْمَدِينَةَ ٤/ ٢٦٤ ، وفي المرضى / بَاب : عِيَادَةِ النِّسَاءِ الرِّجَالَ ٧/ ٥ ، وفي بَاب : مَنْ دَعَا بِرَفْعِ الْوَبَاءِ وَالْحُمَّى ٧/ ١١ .

لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ) (١) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ) قَالَ : ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ (٢) .

إلى غير من الأحاديث الكثيرة المشهورة الصحيحة التي تبين فضل المدينة ، وحب النبي ﷺ لها ولأهلها .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في البيوع / بَاب : بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُدِّهِ ٣ / ٢٢، وفي كفارات الأيمان / بَاب : صَاعِ الْمَدِينَةِ وَمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَبَرَكَتِهِ ٧/ ٢٣٧ ، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة / بَاب: مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْحَرَمَانِ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَمَا كَانَ بِهَا مِنْ مَشَاهِدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمِنْبَرِ وَالْقَبْرِ ٨/ ١٥٣ ، ومسلم في الحج / بَاب: فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/ ٩٩٤ ح ١٣٦٨ .

(٢) أخرجه مسلم في الحج / بَاب فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا ٢/ ١٠٠٠ ح ١٣٧٣ .

أسس المجتمع الجديد

- مرحلة تأسيس الدولة :
- الأساس الأول : بناء المسجد :
- فضل مسجد النبي ﷺ :
- الأساس الثاني : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :
- الأساس الثالث : عقد المعاهدة بين المسلمين واليهود :

مرحلة تأسيس الدولة :

وبعد أن انتقل النبي ﷺ من مكة إلى المدينة أقام دولة الإسلام الجديدة بأركانها المعروفة وهى : بناء المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وعقد المعاهدة بين المسلمين ويهود المدينة .

وهذه الأركان مهمة في بناء أي دولة ولابد منها إذا كانت تريد الاستمرار والبقاء .
ولقد أقام الرسول ﷺ دولته الجديدة على أسس ثلاث هي :

الأساس الأول : بناء المسجد :

المسجد هو بناء مصغر لهيكل المجتمع الإسلامي بجميع صوره ، وربطه بربه خالقه ورازقه بالصلاة والمداومة عليها ، حتى يطهر المجتمع من دنس الشرك والأوثان ، ومن وظائف المسجد أيضاً التأكيد على قضية التآخي والتناصر والتكافل بين بنى الإسلام .

" فكان أول خطوة قام بها ﷺ بناء المسجد ، فهو الركيزة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي ، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه ، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه .

إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين ، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد ، فما لم يتلاق المسلمون يومياً على مرات متعددة في بيوت الله ، وقد تساقطت مما بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار ، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تؤلف بينهم .

إن من نظام الإسلام وآدابه أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم ، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدي الله عز وجل ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية له ، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله ، ومهما انصرف كل مسلم

إلى بيته يعبد الله ويركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع في العبادة فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب في المجتمع على معاني الأثرة والتعالي والأنانية .

وإن من نظام الإسلام وآدابه ، أن ينصهر أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه ، ولكن ما لم تقم في أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تؤول إلى شتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء . فمن أجل تحقيق هذه المعاني كلها في مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة ، أسرع رسول الله ﷺ قبل كل شيء فبادر إلى بناء المسجد "(١) .

وقد تكفل ﷺ بشراء مكانه من الأنصار وأخذه منهم بالثمن ، وكان مكانه لغلامين من بني النجار ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ أَعْلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ وَمَلَأُ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ ، حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ ، وَيُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ، فَقَالَ : (يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا) قَالُوا: لَا وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ أَنَسٌ : فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ ، وَفِيهِ نَخْلٌ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ

---

(١) فقه السيرة للبوطي . ص : ١٤٣ ، ١٤٤ بتصرف .

الآخِرَةْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ (١).

الشرح والبيان :

معنى : (**ثَــامِنُونِي**) بِمُثَلَّثَةٍ عَلَى وَزْنِ فَاعِلُونِي ، وَهُوَ أَمْرٌ لَهُمْ بِذِكْرِ الثَّمَنِ مُعَيَّنًــا بِاخْتِيَارِهِمْ عَلَى سَبِيلِ السَّوْمِ لِيَذْكُرَ هُوَ لَهُمْ ثَمَنًا مُعَيَّنًا يَخْتَارُهُ ثُمَّ يَقَع التَّرَاضِي بَعْد ذَلِكَ وَقَالَ الْمَازِرِيُّ : مَعْنَى قَوْله (**ثَامِنُونِي**) أَيْ بَايِعُونِي بِالثَّمَنِ أَيْ وَلاَ آخُذهُ هِبَةً ، قَالَ : فَلَيْسَ فِيهِ إِلاَّ أَنَّ الْمُشْتَرَى يَبْدَأُ بِذِكْرِ الثَّمَن ، . وَتَعَقَّبَهُ عِيَاضٌ . بِأَنَّ التَّرْجَمَة إِنَّمَا هِــيَ لِذِكْرِ الثَّمَن مُعَيَّنًا ، وَأَمَّا مُطْلَقُ ذِكْر الثَّمَن فَلاَ فَرْقَ فِيهِ فِــي الأَوْلَوِيَّــة بَــيْن الْبَــائِع وَالْمُشْتَرِي . وقَوله : (**لاَ نَطْلُب ثَمَنه إِلاَّ إِلَى اللَّه**) تَقْدِيره لاَ نَطْلُب الثَّمَن ، لَكِنَّ الأَمْر فِيهِ إِلَى اللَّه ، أَوْ " إِلَى " بِمَعْنَى مِنْ ، وَكَذَا عِنْد الإِسْمَاعِيلِيّ " **لاَ نَطْلُب ثَمَنه إِلاَّ مِنْ اللَّه** " وَزَادَ اِبْن مَاجَهْ " أَبَدًا " . وَظَاهِر الْحَدِيث أَنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا مِنْهُ ثَمَنًا . وَخَالَفَ فِي ذَلِــكَ أَهْل السِّيَر . وقَوله : (**بِحَائِطِكُمْ**) أَيْ بُسْتَانكُمْ وَقَدْ كَانَ مِرْبَدًا ، فَلَعَلَّهُ كَانَ أَوَّلاً حَائِطًــا ثُمَّ خَرِبَ فَصَارَ مِرْبَدًا ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله : " **إِنَّهُ كَانَ فِيهِ نَخْل وَخَرِبَ** " وَقِيلَ : كَانَ بَعْضه بُسْتَانًا وَبَعْضه مِرْبَدًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْبَاب الَّذِي قَبْله تَسْمِيَة صَاحِبَيْ الْمَكَان الْمَــذْكُور ، وَوَقَعَ عِنْد مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ الزُّهْرِيّ أَنَّهُ اشْتَرَاهُ مِنْهُمَا بِعَشَرَةِ دَنَانِير ، وَزَادَ الْوَاقِدِيّ أَنَّ أَبَا بَكْر دَفَعَهَا لَهُمَا عَنْهُ . وقَوله : (**فَأَمَرَ رَسُول اللَّه ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ**) قَالَ اِبْن بَطَّال : لَمْ أَجِد فِي نَبْش قُبُور الْمُشْرِكِينَ لِتُتَّخَذ مَسْجِدًا نَصًّا عَــنْ أَحَــد مِــنْ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في كِتَاب الصَّلاَةِ / باب : هَلْ تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيُتَّخَذُ مَكَانُهَا مَسَاجِدَ ١/ ١١٠ ، ١١٢ ، وفي الحج / بَاب : حَــرَم الْمَدِينَة ٢/ ٢٢٠ ، وفي البيوع / بَاب : صَاحِبُ السِّلْعَة أَحَقُّ بِالسَّوْمِ ٣/ ١٧ ، وفي الوصايا / بَاب : إِذَا أَوْقَفَ جَمَاعَةٌ أَرْضًا مُشَاعًا فَهُوَ جَائِزٌ ٣/١٩٦ ، وفــي بَــاب : وَقْف الأَرْضِ لِلْمَسْجِدِ ٣/ ١٩٧ ، وفي بَاب : إِذَا قَالَ الْوَاقِفُ لا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلا إِلَــى اللَّه فَهُوَ جَائِزٌ ٣/ ١٩٨ ، وفي المناقب / بَاب مَقْدَم النَّبِيّ ﷺ وَأَصْــحَابِهِ الْمَدِينَــة ٤/ ٢٦٦ ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة / بَاب : ابْتِنَاء مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ ١/ ٣٧٣ ح ٥٢٤ .

الْعُلَمَاء، نَعَمْ اخْتَلَفُوا هَلْ تُنْبَش بِطَلَب الْمَال ؟ فَأَجَازَهُ الْجُمْهُور وَمَنَعَهُ الأَوْزَاعِيُّ ، وَهَذَا الْحَدِيث حُجَّة لِلْجَوَاز ، لأَنَّ الْمُشْرِك لاَ حُرْمَة لَهُ حَيًّا وَلاَ مَيِّتًا .
قَوْله : (**وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ**) هُوَ مَحْمُول عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُثْمِر . وَيَحْتَمِل أَنْ يُثْمِر لَكِنْ دَعَتْ الْحَاجَة إِلَيْهِ لِذَلِكَ ، وَقَوْله : " **فَصَفُّوا النَّخْل** " أَيْ مَوْضِع النَّخْل . وَقَوْله : " **عِضَادَتَيْهِ** " بِكَسْرِ الْمُهْمَلَة وَتَخْفِيف الْمُعْجَمَة تَثْنِيَة عِضَادَة ، وَهِيَ الْخَشَبَة الَّتِي عَلَى كَتِف الْبَاب ، وَلِكُلِّ بَاب عِضَادَتَانِ ، وَأَعْضَاد كُلّ شَيْء مَا يَشُدّ جَوَانِبه .وقَوْله : (يَرْتَجِزُونَ) أَيْ يَقُولُونَ رَجَزًا ، وَهُوَ ضَرْب مِنْ الشِّعْر عَلَى الصَّحِيح .
وَفِي الْحَدِيث جَوَاز التَّصَرُّف فِي الْمَقْبَرَة الْمَمْلُوكَة بِالْهِبَةِ وَالْبَيْع ، وَجَوَاز نَبْشْ الْقُبُور الدَّارِسَة إِذَا لَمْ تَكُنْ مُحْتَرَمَة ، وَجَوَاز الصَّلَاة فِي مَقَابِر الْمُشْرِكِينَ بَعْد نَبْشهَا وَإِخْرَاج مَا فِيهَا ، وَجَوَاز بِنَاء الْمَسَاجِد فِي أَمَاكِنهَا ، قِيلَ وَفِيهِ جَوَاز قَطْع الأَشْجَار الْمُثْمِرَة لِلْحَاجَةِ أَخْذًا مِنْ قَوْله " وَأَمَرَ بِالنَّخْلِ فَقُطِعَ " وَفِيهِ نَظَرٌ لاحْتِمَالِ أَنْ يَكُون ذَلِكَ مِمَّا لا يُثْمِر إِمَّا بِأَنْ يَكُون ذُكُورًا وَإِمَّا أَنْ يَكُون طَرَأَ عَلَيْهِ مَا قَطَعَ ثَمَرَته (١).

" وكان من أعمال الرسول ﷺ بالمدينة أن يوضح للمسلمين أصول دينهم ومبادئه ، فبنى لهم المسجد الذي أصبح مقراً لاجتماعهم ، ومكاناً معروفاً لعبادتهم ، فكانوا يصلون فيه ويتدارسون به شئونهم كلها ، ولم يكن بناء المسجد عملاً من شئون العبادة وحدها – وإن عبادة الله من أهم الأغراض المطلوبة في الإسلام – وإنما يدل بناء المسجد على رغبة الرسول ﷺ في جمعهم في مكان واحد حول رئاسة مسئولة عنهم ، وكان هذا الاتجاه يعنى محاولة حصر اللقاءات في مكان واحد حتى يمكن عرض صورة سليمة يظهر فيها المسلمون متحدين أمام خصومهم المضطربين حولهم، وحتى يمكن حصر التفكير الإسلامي في دوائر منظمة ، ولفت انتباه الناس إلى رئاسة واحدة تجتمع بهم في مكان عام " (٢) .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخارى٤/٣٨٢ ، ٥/ ٤٦٨ بتصرف .
(٢) عصر الرسالة . ص : ٢٦٠ ، ٢٦١ .

فضل مسجد النبي ﷺ :

اختص مسجد النبي ﷺ بعدة أمور جعلته من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، فهو المسجد الذي بناه النبي ﷺ مع أصحابه ، وفيه روضة من رياض الجنة، وهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم على أحد الأقوال في تفسير الآية الكريمة ، وقد ورد بذلك رواية مسلم ، وأن الصلاة فيه خير من الصلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام بمكة .

فعن أَبي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قُلْتُ لَهُ : كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ؟ قَالَ : قَالَ أَبِي : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ؟ قَالَ : فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ ثُمَّ قَالَ : (**هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا**) لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ . قَالَ : فَقُلْتُ : أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبَاكَ هَكَذَا يَذْكُرُهُ (١) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**) (٢) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْمَازِنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**) (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم في الحج / بَاب : بَيَانِ أَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُوَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ ٢/ ١٠١٥ ح ١٣٩٨ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجمعة / بَاب : فَضْلِ الصَّلاةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ٢/ ٥٧ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الصَّلاةِ بِمَسْجِدَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ٢/ ١٠١٢ ح ١٣٩٤ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجمعة / بَاب : فَضْلِ مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ ٢/ ٥٧ ، ومسلم في الحج / بَاب : مَا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ٢/ ١٠١٠ ح ١٣٩٠ .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) (١).

الأساس الثاني : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

المؤاخاة تعني انصهار المهاجرين في الأنصار حتى صاروا وكأنهم شيء واحد لا فرق بين عربي على عجمي ، ولا غني على فقير ، ولا سيد على مسود ، فالجميع تحت راية الإسلام شيء واحد ، حتى وصفهم ربهم بالإيثار في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢) .

وأثنى سبحانه وتعالى على إنفاقهم وبذلهم أموالهم في قوله : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (٣) .

" إن أهمية هذا الأساس تظهر في الجوانب التالية :

أولاً : إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم على أساس من وحدة الأمة وتساندها ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة ، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما ،

---

(١) أخرجاه في الموضعين السابقين .

(٢) سورة الحشر : آية (٩) .

(٣) سورة الحديد : آية (١٠) .

وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .
على أن التآخي أيضاً لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها ، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى ، خرافة ووهم ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية . ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التي جاءهم بها من عند الله تعالى ، والتي تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح ، إذ ليس ممن المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه .

ثانياً : إن المجتمع – أي مجتمع – إنما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتثرة متفككة ، بشيء واحد ، وهو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها ، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائمين طبق ميزان العدل والمساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع العادل السليم ، وإن كانا قائمين على الحيف والظلم ، فذلك هو المجتمع الظالم والمنحرف .
وإذا كان المجتمع السليم إنما يقوم على أساس من العدالة في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق ، فما الذي يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه ؟
إن الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لذلك ، إنما هي التآخي التآلف ، يليها بعد ذلك ضمانة السلطة والقانون .

فمهما أرادت السلطة أن تحقق مبادئ العدالة بين الأفراد ، فإنها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم ، بل إن هذه المبادئ لا تعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ، ومن شأن الأحقاد والضغائن أن تحمل في طيها بذور الظلم والطغيان في أشد الصور والأشكال .

من أجل هذا اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين

والأنصار أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم ، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك الأرضية الأولى ، ألا وهي الأخوة الإسلامية ، ولولا هذه الأخوة العظيمة التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية ، لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي وإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه " (١) .

وعن هذه المؤاخاة يقول ابن إسحاق : : وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، فَقَالَ – فِيمَا بَلَغَنَا ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ – : (**تَآخَوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ**) ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : (**هَذَا أَخِي**)

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ ، وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ ، وَرَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ خَطِيرٌ وَلاَ نَظِيرٌ مِنْ الْعِبَادِ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَخَوَيْنِ .

وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ ﷺ وَعَمّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخَوَيْنِ ، وَإِلَيْهِ أَوْصَى حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ حِينَ حَضَرَهُ الْقِتَالُ إنْ حَدَثَ بِهِ حَادِثُ الْمَوْتِ .

وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو الْجَنَاحَيْنِ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ ، أَخَوَيْنِ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَئِذٍ غَائِبًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَخَارِجَةُ بْنُ زُهَيْرٍ ، أَخُو بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ أَخَوَيْنِ .

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ وَعِتْبَانُ بْنُ مَالِكٍ ، أَخُو بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ أَخَوَيْنِ .

وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَاسْمُهُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذِ بْنِ

---

(١) فقه السيرة للبوطي . ص : ١٤٧ : ١٤٩ .

النّعْمَانِ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ، أَخَوَيْنِ . وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَـوفٍ ، وَسَـعْدُ بْـنُ الرَّبِيعِ، أَخُو بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، أَخَوَيْنِ .
وَالزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ ، وَسَلاَمَةُ بْنُ سَلاَمَةَ بْنِ وَقْشٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ، أَخَـوَيْنِ .
وَيُقَالُ بَلْ الزّبَيْرُ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ ، أَخَوَيْنِ .
وَعُثْمَانُ بْنُ عَفّانَ ، وَأَوْسُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمُنْذِرِ أَخُو بَنِي النّجّارِ ، أَخَوَيْنِ .
وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللّهِ ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ ، أَخَوَيْنِ .
وَسَعْدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَأُبَيّ بْنُ كَعْبٍ أَخُـو بَنِـي النّجّـارِ : أَخَـوَيْنِ .
وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَأَبُو أَيّوبَ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ ، أَخُو بَنِي النّجّـارِ : أَخَـوَيْنِ
وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَعَبّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشٍ ، أَخُو بَنِي عَبْـدِ الأَشْـهَلِ : أَخَوَيْنِ .
وَعَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، أَخُو بَنِي عَبْدِ عَـبْسٍ ، حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ : أَخَوَيْنِ . وَيُقَالُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشّمّاسِ ، أَخُو بَلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، خَطِيبُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَعَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ : أَخَوَيْنِ .
وَأَبُو ذَرّ ، وَهُوَ بُرَيْرُ بْنُ جُنَادَةَ الْغِفَارِيّ ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو أَخُو بَنِي سَـاعِدَةَ بْـنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ : أَخَوَيْنِ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَسَمِعْت غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ أَبُو ذَرّ جُنْدَبُ بْنُ جُنَادَةَ .قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ ، حَلِيفُ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى وَعُوَيْمُ ابْنُ سَاعِدَةَ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ .أَخَوَيْنِ .
وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيّ ، وَأَبُو الدّرْدَاءِ ، عُوَيْمِرُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَلْحَارِثِ بْـنِ الْخَـزْرَجِ ، أَخَوَيْنِ . قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَبِلاَلٌ ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا ، مُؤَذّنُ رَسُـولِ اللّهِ ﷺ وَأَبُو رُوَيْحَةَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ الْخَثْعَمِيّ ، ثُمّ أَحَدُ الفزع أخوين. فهؤلاء من سُمّيَ لَنَا ، مِمّنْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ آخَى بَيْنَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ (١) .
" ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فـلا حميـة إلا للإسـلام ، وأن

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٦٩ : ٢٧١.

تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً وعملاً يـرتبط بالـدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثـر ، وكانـت عواطـف الإيثـار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثـال ، والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشع الجهـل والـنقص والجـبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله " (١) .

ولقد ركز القرآن في حديثه على حب المهاجرين والأنصار على قضـية أساسـية وهى قضية الإيثار التي نتجت عن هذا الحب الصافي والمؤاخاة التي غرسـها فـيهم النبي ﷺ ، وسجلت السنة المباركة هذه القضية – أي قضية الإيثار – لتكـون معينـاً صافياً للمسلمين الذين يأتون بعدهم للإقتداء بهم فعن إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالاً فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ وَلِـي امْرَأَتَـانِ فَـانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَـكَ فِـي أَهْلِكَ وَمَالِكَ أَيْنَ سُوقُكُمْ ؟ فَدَلُّوهُ عَلَى سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَمَا انْقَلَبَ إِلاَّ وَمَعَهُ فَضْلٌ مِـنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ . فَقَالَ : النَّبِيُّ ﷺ (مَهْيَمْ) قَالَ: تَزَوَّجْتُ . قَالَ : (كَمْ سُقْتَ إِلَيْهَا ؟) قَالَ : نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ شَكَّ إِبْرَاهِيمُ (٢) .

---

(١) فقه السيرة لفضيلة الشيخ محمد الغزالي ص : ١٩٠ ، ١٩١ بتصرف .

(٢) أخرجه البخاري في الْمَنَاقِبِ / باب : إِخَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَـارِ ٤/ ٢٢٢ ، وفي بَاب : كَيْفَ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ٤/ ٢٦٨ ، وفي النكاح / بَاب : قَوْلِ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ انْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ شِئْتَ حَتَّى أَنْزِلَ لَـكَ عَنْهَـا ٦/ ١١٨ ، وفـي الدعوات / بَاب : الدُّعَاءِ لِلْمُتَزَوِّجِ ٧/ ١٦٣ .

إن هذه القصة لتوضح تمام الإيضاح بما لا يدع مجالاً للشك أن المؤاخاة التي غرسها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار آتت أكلها ، وها هو المثل العملي الذي لو قضى دعاة المدنية والحضارة حياتهم في صنعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

إنه الإسلام ونبي الإسلام الذي جعله ربه رحمة للعالمين ، ليس للمسلمين فحسب بل للعالم أجمع من إنس وجن ، وعربي وعجمي ، وأبيض وأسود .

يقول الشيخ : محمد الغزالي رحمه الله : إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه، وداروا في فلكه رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراجه الآلات والأثقال ، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم ، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعة .

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالإسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً ، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض (١) .

ثم إن هذه المؤاخاة كانت مهمة في هذا الوقت بالذات ، لمواساة الأنصار للمهاجرين إن لم يكن بالمال فبالكلام كما ظهر ذلك واضحاً من قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقد عرض سعد على عبد الرحمن المال والولد لكنه رفض ، وأخذ يعمل بالتجارة ، ومع أن عبد الرحمن لم يأخذ شيئاً من سعد ، إلا أن كلامه قد أعطاه حافزاً مهماً وهو الإحساس بعدم الغربة وترك الأوطان ، وأن له حرية التحرك في المدينة ، وكأنه في مكة بلده أو أشد ، فكانت هذه هي النكتة المهمة في ركن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

---

(١) فقه السيرة للغزالي . ص : ١٩٢ .

ومن ناحية أخرى خرطت المهاجرين في صف المجتمع المدني وصاروا وكأنهم شيء واحد ، يدينون بدين واحد ، وربهم واحد ، ورسولهم ﷺ يعيش معهم وبينهم ، فتخلقوا بأخلاقه ، واقتدوا بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ، وصار رسول الله ﷺ قائدهم ورئيسهم لا يصدرون إلا عن رأيه ومشورته .

الأساس الثالث : عقد المعاهدة بين المسلمين واليهود :

انتقل النبي ﷺ إلى المدينة ، وكانت ذات تقلب عقدي ، فهناك اليهود ممثلين في يهود خيبر وبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ودائماً ما حدثت بينهم وبين الأوس والخزرج أصحاب العقيدة الوثنية آنذاك حروباً ومناوشات ، وكانوا دائماً ما يهددونهم بمبعث نبي منهم يقتلونهم معه قتل عاد وإرم ، ولكن الله خذلهم ، وأظهر كذبهم ، ومنّ على العرب قاطبة ببعث خير البشر ﷺ منهم .

" لقد عاش اليهود بالمدينة في بيئة وثنية جعلتهم يشعرون بأنهم أسمى من غيرهم في العقيدة والثقافة والمستويات الأخرى ، وكانوا يرون أنفسهم فوق كل الناس في كل الأمور الملاحظة في الحياة العامة والخاصة ، وكانوا يرغبون في أن يظلوا متفوقين على مواطنيهم العرب في كل شيء يتصل بحياتهم الروحية والمادية والثقافية ، مع أنهم لم يكونوا كذلك في كل الأحوال ، وكانوا لا يريدون المساهمة في تغيير أوضاع الآخرين حولهم ما دامت الفائدة في تخلفهم وانتشار الفساد فيهم لا تعود عليهم بالضرر والمتاعب ، ولقد وجدوا في نجاح دعوة الإسلام بالمدينة ضياعاً لدورهم ومستقبلهم ، فقابلوهم بروح عصرهم واندفعوا في العناد ضد المسلمين حتى النهاية " (١) .

فكان من الطبيعي بعد انتقال النبي ﷺ من مكة إلى المدينة أن يؤلف بين هذه القلوب المتنافرة ، وأن يخمد هذه النيران المتأججة ، فقام ﷺ بعقد الهدنة بين اليهود والمسلمين ممثلين في الأوس والخزرج وغيريهما من قبائل المدينة .

---

(١) عصر الرسالة . ص : ٣٠٠ .

والمعاهدة التي أبرمها مع اليهود لاكتمال عامل الأمن والأمان للدولة الجديدة ، فهي من الأهمية بمكان في هذه البداية ، أما عندما خانوا العهد ونقضوه ، وقويت شوكة المسلمين أخرجوا اليهود من المدينة بسبب تأليبهم لكفار قريش على الرسول ﷺ وأصحابه .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ وَأَقَرَّهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَشَرَطَ لَهُمْ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ إنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين ، وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، كُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو الْحَارِثِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ ، يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو جُشَمٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهِمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو النَّجَّارِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَنُو الأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْمُفْرَحُ الْمُثْقَلُ بِالدَّيْنِ وَالْكَثِيرُ الْعِيَالِ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَبْرَحْ تُؤَدِّي أَمَانَةً *** وَتَحْمِلُ أُخْرَى أَفْرَحَتْكَ الْوَدَائِعُ

وَأَنْ لاَ يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ (١) أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا ، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ ، وَلا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ وَلا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ ، وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ موالي بعض دُونَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالأُسْوَةَ ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِئُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ ، وَإِنَّهُ لا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالاً لِقُرَيْشٍ وَلا نَفْسَهَا ، وَلا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلاً عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ بِهِ ، إلا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ ، وَلا يَحِلُّ لَهُمْ إلا قِيَامٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلا يُؤْوِيهِ وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ ، وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ ، وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إلا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، إلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ

(١) أي طَلَب دَفْعاً على سبيل الظُّلم فأضافه إليه وهي إضافة بمعنى من . ويجوز أن يُراد بالدَّسيعة العَطية : أي ابْتَغَى منهم أن يدفَعوا إليه عَطيَّة على وجه ظُلْمهم : أي كونهم مظلومين أو أضافها إلى ظُلْمه لأنه سببُ دَفْعهم لها . النهاية في غريب الحديث . مادة : دسع .

فَإِنَّهُ لا يُوتِغُ إلا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ ، وَإِنَّ جَفْنَةَ بَطْنٌ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ لِبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الإِثْمِ ، وَإِنَّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ بِطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنَّهُ لا يُنْحَجَزُ عَلَى ثَأْرِ جُرْحٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إلا مَنْ ظَلَمَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَبَرِّ هَذَا ، وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الإِثْمِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ ، وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ، وَإِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلا آثِمٌ ، وَإِنَّهُ لا تُجَارُ حُرْمَةٌ إلا بِإِذْنِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ ، وَإِنَّهُ لا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلا مَنْ نَصَرَهَا . وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ ، وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إلا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ عَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمْ الَّذِي قِبَلَهُمْ ، وَإِنَّ يَهُودَ الأَوْسِ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَى مِثْلِ مَا لأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ . مَعَ الْبِرِّ الْمَحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَيُقَالُ مَعَ الْبِرِّ الْمُحْسِنِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الإِثْمِ لا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إلا عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ ، وَإِنَّهُ لا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَآثِمٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ ، إلا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١) .

إن هذه الشروط التي وضعها النبي ﷺ في غاية العدل والإنصاف ، لا ظلم فيها ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٧ : ٢٦٩ .

محاباة ، أراد بها النبي ﷺ تأمين الجبهة الداخلية لدولة الإسلام ، وبخاصة مع يهود المدينة بعد أن استشرى الإسلام في بيوت المدينة وانتشر ، فخاف اليهود من ذلك ، والنتيجة المترتبة على ذلك هي تأليب قريش وغيرهم من الوثنيين ضد المسلمين ، فأراد النبي ﷺ أن يؤمن هذا الجانب حتى تقوى شوكة الدولة الإسلامية ، وانكشفت نواياهم بوضوح فيما بعد ، فأجلاهم النبي ﷺ من المدينة .

بداية الصراع المسلح وتشريع الجهاد

- تعريف الجهاد .
- الحكمة من تشريع الجهاد .
- حكم الجهاد .
- الإعداد للجهاد .
- فضل الجهاد وإخلاص النية فيه والترغيب فيه .
- الترهيب من ترك الجهاد ومُضيّه إلى يوم الدين .

تعريف الجهاد

معنى الجهاد في اللغة :

الجِهاد : مصدر الفعل الرباعي : " جاهد " على وزن " فِعال " بمعنى " المفاعلة " والفعل الثلاثي للكلمة هو " جَهِد " ويضبط صاحب القاموس (١) المصدر الثلاثي ومعناه فيقول : " الجَهْدُ : الطاقة ، ويُضَمُّ والمشقة " (٢) .

وقال الرازي (٣) : " الجُهْد " بفتح الجيم وضمها : الطاقة ، وقرئ بهما في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ) (٤) " والجَهْدُ " بالفتح : المشقة ، وجاهد في سبيل الله "مُجَاهَدَةً " و " جِهَاداً " (٥) .

وبيّن الفيومي : أن " الجُهْدُ " بالضم في الحجاز ، وبالفتح في غيرهم : الوسع والطاقة ، وقيل : المضموم : الطاقة والمفتوح : المشقة (٦) .

وفي لسان العرب : " الجَهْدُ " بالفتح ، و" الجُهدُ " بالضم : الطاقة ، وقيل : " الجَهْدُ " بالفتح : المشقة ، و " الجُهدُ " بالضم : الطاقة (٧) .

وقال ابن الأثير : قد تكرر لفظ " الجَهدُ " بالفتح و " الجُهْدُ " بالضم ، في الحديث

---

(١) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم ، أبو طاهر مجد الدين الشيرازي اللغوي الشافعي ، الفيروزآبادي ، من أئمة اللغة والأدب ، صاحب القاموس المحيط في اللغة ، توفى رحمه الله سنة : سبع عشرة وثمانمائة من الهجرة . (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٠/٧٩ ، الأعلام ٧/١٤٦) .

(٢) القاموس المحيط ، مادة : جهد ، فصل الجيم : باب الدال .

(٣) هو : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، زين الدين ، من فقهاء الحنفية ، وله علم بالتفسير والأدب ، صاحب مختار الصحاح في اللغة ، توفى بعد سنة : ست وستين وستمائة . (الأعلام ٦/٥٥) .

(٤) سورة التوبة : آية (٧٩) .

(٥) مختار الصحاح ، مادة : جهد .

(٦) المصباح المنير ، مادة : جهد .

(٧) لسان العرب ، مادة : جهد .

كثيراً ، وهو بالضم : الوسع والطاقة ، وبالفتح : المشقة ، وقيل : المبالغة والغاية ، وقيل : هما لغتان في الوسع والطاقة ، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير (١) . كان هذا في بناء الكلمة ومدلولاتها اللغوية .

أما عن المعنى المراد بالجهاد في اللغة يقول ابن الأثير : الجهاد : محاربة الكفار ، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل يقال : جَهَد الرجل في الشيء ، أي : جدَّ فيه وبالغ ، وجاهد في الحرب مجاهدة وجهاداً (٢) .

وقيل : هو الدعاء إلى الدين الحق ، والقتال مع من لا يقبله (٣) .

وقال القسطلاني في شرح صحيح البخاري: " الجهاد بكسر الجيم ، مصدر جاهدت العدو مجاهدة ، وجهاداً . وأصله : جيهاد ، كقيتال ، فخُفِّف بحذف الياء ، وهو مشتق من الجَهْد ، بفتح الجيم ، وهو التعب ، والمشقة ، لما فيه من ارتكابها ، أو من الجُهْد بالضم ، وهو الطاقة ، لأن كل واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه " (٤) .

والذي ذكره القسطلاني يجمع مدلولات الكلمة من طاقة وتعب ومشقة فإذا انضم إليه ما ذكره ابن الأثير صار الجهاد بمعنى : " استفراغ ما في الوسع والطاقة من تعب ومشقة ، ومن قول أو فعل لمجاهدة قوى الشر " .

وهو بهذا يشمل القتال في سبيل الله لحماية الدين ، ويشمل أيضاً الذَّبُّ باللسان على من يفتري الكذب على الإسلام وأهله ، فالجهاد علاقة بين طرفين يجاهد كل واحد منهما الآخر مع اختلاف الغاية والهدف ، فمن يجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمته فهو في حزب الله ، ومن يقاتل لنصرة الطاغوت فهو في حزب الشيطان ، وفي كلٍ بذل الوسع والطاقة والمشقة والجهد .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ، مادة : جهد .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الكليات لأبى البقاء الكفوي ، ص : ٣٥٤ .
(٤) إرشاد الساري ٥/٣١ . ط / دار الفكر .

معنى الجهاد في الشرع :

قال الكاساني (١) : يستعمل في بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك والمبالغة في ذلك (٢) .

وقال ابن نجيم (٣) : الجهاد : هو الدعاء إلى الدين الحق والقتال مع من امتنع عن القبول بالنفس والمال (٤) .

والناظر في التعريفين السابقين يجد أنهما يقتصران على الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، وبيان الوسائل المتاحة لذلك والتي تساعد على تحققه ، وهناك تعريف أوسع ذكره الحافظ ابن حجر للجهاد فقال : هو بذل الجهد في قتال الكفار ، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفساق ، فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ثم على تعليمها ، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات ، وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، وأما مجاهدة الفسّاق فباليد ثم باللسان ثم القلب (٥) .

وجميع الاطلاقات التي أطلقها الحافظ ابن حجر تهدف إلى حماية الدين والحفاظ عليه ، فمجاهدة الكفار تكون واجبة عندما يقفون في وجه الدعوة الإسلامية وإبراز نورها لمن يريد الله هدايته ، كذلك لدفع العدوان المتوقع على المسلمين من جانب

---

(١) هو : الإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب : بملك العلماء ، فقيه حنفي من أهل حلب ، توفى سنة : سبع وثمانين وخمسمائة رحمه الله . (الجواهر المضية ٢/٢٤٤ ، والأعلام ٢/٧٠) .

(٢) بدائع الصنائع ٧/٩٧ .

(٣) هو : زين الدين بن إبراهيم بن محمد الشهير : بابن نجيم ، فقيه حنفي من العلماء ، مصري ، توفى سنة : سبعين وتسعمائة . (شذرات الذهب ٨/٣٥٨ ، والأعلام ٣/٦٤) .

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم ٥/١١٩ .

(٥) فتح الباري ٦/٥ .

المشركين .

ومجاهدة النفس تكون بإبعادها عن المعاصي والشهوات التي تجرها إلى منعطف الرذيلة ، وحملها على الطاعة وتقوى الله .

ومجاهدة الشيطان تكون بالاستعاذة بالله منه كما قال تعالى : (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١)

ومجاهدة الفسّاق تكون بوعظهم وردعهم عن المعصية فعن أبى سعيد الخدري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**) (٢)

---

(١) سورة الأعراف : آية (٢٠٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان / باب : بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ٦٩/١ ح ٤٩ .

حكمة مشروعية الجهاد

تتعلق حكمة مشروعية الجهاد بعدة عوامل :

الأول منها : لما كان الدين الإسلامي هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده كما قال تعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) (١) اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون آخر الأديان ، ورسالته آخر الرسالات ، كما أن صاحب الرسالة وهو سيدنا محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء ، لذا عمم الله بعثته إلى الناس جميعاً في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة .

قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٢) وقال تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ) (٣) .

وقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (٤) .

فهذه الآيات تدل على عموم بعثة النبي ﷺ وأنه مرسل إلى جميع المكلفين ، وفي ذلك يقول ابن كثير : هذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي .... وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة .... وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم (٥).

---

(١) سورة المائدة : آية (٣) .

(٢) سورة سبأ : آية (٢٨) .

(٣) سورة الأعراف : آية (١٥٨) .

(٤) سورة الفرقان : آية (١) .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٣٩/٢ بتصرف .

وجاء في السنة ما يدل على إرساله ﷺ إلى الناس كافة ، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ) (٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) (٣) .

يقول النووي عند تعرضه بالشرح للحديث الأول والثاني : قوله ﷺ (وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ) وفي الرواية الأخرى : (إلى الناس كافة) قيل : المراد بالأحمر : البيض من العجم وغيرهم ، وبالأسود : العرب لغلبة السُمرة فيهم وغيرهم من السودان وقيل : المراد بالأسود : السودان ، وبالأحمر : من عداهم من العرب وغيرهم ، وقيل: الأحمر : الإنس ، والأسود : الجن ، والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم .

وقال في شرح الحديث الثالث : فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ ، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور ، وهذا جار على ما تقدم في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له ، أخرجه البخاري في أول التيمم ٨٨/١ ، ومسلم في أول المساجد ٣٧٠/١ ح ٥٢١ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له ، أخرجه البخاري في التعبير / باب : رؤيا الليل ٧٢/٨ ، ومسلم في أول المساجد ومواضع الصلاة ٣٧١/١ ح ٥٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان / باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٣٤/١ ح ١٥٣ .

الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح ... وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى . والله أعلم (١) .

فرسالته ﷺ نسخت جميع الرسالات السابقة ، واقتضت الحكمة أن يجاهد كل من يخالفه في المعتقد ، وخاصة وأنه قد أرسل إلى قوم أهل شرك يعبدون الأصنام ، فدعاهم إلى الإسلام ، وكسّر أصنامهم ، وذلك مشهور في كتب السيرة ، وكما حدث يوم الفتح الأعظم حين دخل مكة في عز من جنده ، فكسّر الأصنام وتلا قوله تعالى : (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) (٢) .

وعمومية الرسالة وختم نبينا ﷺ الرسل يرد على الدعاوى الزائفة والتي تقول : إن الجهاد هو قتال المسلمين لكل من ليس بمسلم لإكراههم على الإسلام وإن لم يعتدوا عليهم ولم يعادوهم (٣) .

وهذا كذب وافتراء على الإسلام وأهله ، لأن الإسلام لم يكره أحداً على الدخول فيه كما قال تعالى : (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (٤) .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بيّن واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً (٥) على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً ، ثم قال : وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه – الآية –

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٨٨/٢ ، ٥/٥ .
(٢) سورة الإسراء : آية (٨١).
(٣) تفسير المنار ٢٦٩/١٠ . ط / الهيئة العامة المصرية للكتاب .
(٤) سورة البقرة : آية (٢٥٦) .
(٥) في الأصل " أحد " ، والصواب : " أحداً " بالنصب على المفعولية .

محمولة على أهل الكتاب ، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية ، وقال آخرون : بل هي منسوخة بآية القتال ، وإنه يجب أن يُدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف ، دين الإسلام ، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل ، وهذا معنى الإكراه ، قال الله تعالى : (سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) (١) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (٢) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٣) وفي الصحيح : (**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل**) (٤) يعني : الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكباد ، ثم بعد ذلك يسلمون ، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة (٥) .

فكان لابد من حماية الدعوة الإسلامية وإيصالها إلى جميع الناس ، ومن يعترض طريق الدعوة كان الجهاد في حقه مشروعاً ، لأن الدين الإسلامي للناس جميعاً لا يخص أمة دون الأخرى ، لذا دعا النبي ﷺ القبائل العربية إلى الإسلام ، وأرسل كتبه ورسله إلى ملوك ورؤساء الدول المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، فمن قبل الدين دخل في أمان الإسلام ومن رفض الدين كان القتال في حقه أمراً مشروعاً .

---

(١) سورة الفتح : آية (١٦) .

(٢) سورة التوبة : آية (٧٣) ، وسورة التحريم : آية (٩) .

(٣) سورة التوبة : آية (١٢٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : الأسارى في السلاسل ٤/٢٠ بلفظ : (عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ) عن أبي هريرة ﷺ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٤٠٦ ، ٤٠٧ بتصرف .

يقول الشيخ . محمد عبده : ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي ﷺ قد بلّغ رسالته إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزئوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه وبعث إليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة (١) .

العامل الثاني في حكمة مشروعية الجهاد :

ورد الأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ ولأمته بجهاد الكفار ، وذلك لدفع الاعتداء الواقع عليهم من قبل المشركين ، وتأسيس الدولة الإسلامية التي ستكون مركزاً لدين الإسلام، وتأمين حدودها من الإغارة عليها من قبل العدو .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (٢) .

ووجه سبحانه الأمر للمؤمنين بقتال الكفار ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٣) .

وقال تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٤)

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي جاء فيها الأمر بقتال المشركين ، والحكمة في ذلك، أن يكون الدين كله لله كما وضحته الآية الأخيرة . وفي تفسيرها روى البخاري

(١) تفسير المنار ٢٧٣/١٠ .
(٢) سورة التوبة : آية (٧٣) ، وسورة التحريم : آية (٩) .
(٣) سورة التوبة : آية (١٢٣) .
(٤) سورة الأنفال : آية (٣٩) .

عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ : (خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْنُ عُمَرَ فَقَالَ رَجُلٌ كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ : وَهَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ) (١) .

وفي السنة جاء الحض على قتال المشركين في أحاديث كثيرة منها :

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) (٢) .

وعَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا) (٣) .

فبان من خلال هذا العرض أن الحكمة في تشريع الجهاد هي حماية الدين وتأمين الدعوة الإسلامية .

العامل الثالث في حكمة تشريع الجهاد :

يتجلى في خيرية الأمة الإسلامية ، وحيث إنها الأمة الخاتمة ، فقد فضلها الله على جميع الأمم بأن جعلها أمة النبي محمد ﷺ ، كذلك فضلها بأنها تملك زمام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تجلى ذلك في التنزيل الحكيم .

قال تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير / تفسير سورة الأنفال / باب قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله) (الأنفال : ٣٩) ٢٠٠/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان / باب قوله تعالى: (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ) (التوبة : ٥) ١١/١ ، ١٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير / باب : إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ١٣٨٨/٣ ح ١٧٦٧.

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (١) .

وفي تفسيرها روى البخاري بسنده عن أبى هريرة ﷺ (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) قال: (خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ)(٢)

ورفعه البخاري في آخر الجهاد عن أبى هريرة ﷺ أيضاً عن النبي ﷺ قال : (عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ) (٣) .

قال ابن الجوزى : معناه : أنهم أسروا وقيدوا فلما عرفوا صحة الإسلام دخل طوعاً فدخلوا الجنة (٤) .

وكأن خبر أبى هريرة في تفسير (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٥) هو تفسير للخبر المرفوع الذي أورده البخاري في الجهاد .

وهو يُبيّن فضل الأمة الإسلامية في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ووجه الأمر بالمعروف في هذا الخبر : أنها تجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمته ، وتدعو إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فمن استجاب عصم دمه وماله كما سبق، ومن رفض دعوة الإسلام كان بالخيار إما أن يدفع الجزية ويعطى الأمان ، وإما أن يكون من المحاربين فيقاتل ، وقد يكون من الأسارى ، كما وضحه هذا الخبر .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير / تفسير سورة آل عمران / باب قول الله تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران : ١١٠) ١٧٠/٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : الأسارى في السلاسل ٢٠/٤ .

(٤) فتح الباري ١٦٨/٦ ، ١٦٩ .

(٥) سورة آل عمران : آية (١١٠) .

فالدعوة إلى الإسلام قبل الجهاد من الآداب الإسلامية التي رعاها الإسلام في جهاد الكافرين والجاحدين ، حتى لا تكون لهم حجة يعتذرون بها ، بل أغلق الباب أمامهم ، وقد حضت السنة على الدعوة قبل الجهاد في أحاديث كثيرة .

فَعَنْ سَهْلِ بن سَعْد ﷺ (١) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ فَقِيلَ : يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ : أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ) (٢)

قال الحافظ ابن حجر : قوله : (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) ووقع في حديث أبي هريرة عند مسلم : (فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ ؟ قَالَ : قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) (٣) واستدل بقوله : (ادْعُهُمْ) أن الدعوة شرط في جواز القتال ، والخلاف في ذلك مشهور ، فقيل : يشترط مطلقاً ، وهو عن مالك سواء من بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم ، قال : إلا أن يعجلوا المسلمين . وقيل : لا مطلقاً ، وعن الشافعي مثله . وعنه لا يقاتل من لم تبلغه حتى يدعوهم ، وأما من بلغته فتجوز الإغارة عليهم بغير دعاء ، وهو مقتضى الأحاديث ، ويحمل ما في حديث سهل على الاستحباب ، وعن الحنفية تجوز الإغارة عليهم مطلقاً وتستحب

---

(١) هو : سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري ... من مشاهير الصحابة ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، مات سنة : إحدى وتسعين ، وقيل : قبل ذلك ﷺ . (الإصابة ٨٨/٢) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : فضل من أسلم على يديه رجل ٢٠/٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة / باب : من فضائل علي ﷺ ١٨٧٢/٤ ح ٢٤٠٦ .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة / باب : من فضائل علي ﷺ ١٨٧٢/٤ ح ٢٤٠٥ .

الدعوة .

وقوله : (فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا .... إلخ) يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله (١) .

وهناك مثل آخر يفيد أن من شأن الأمة الإسلامية كذلك النهى عن المنكر ، والمنكر هنا يشمل جميع أنواع الكبائر التي تهدد دين الإسلام وهذا المثل ضربه الصديق أبو بكر ﷺ للأمة جمعاء كي يقتدوا به في المحافظة على دينهم .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ (٢) .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ) (٣) قال رحمه الله مبيناً فضل أبى بكر الصديق ﷺ وفضل الصحابة في حماية الدين بعد رسول الله ﷺ ، يقول الحافظ ابن كثير : أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم ، وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت ، وغير ذلك

---

(١) فتح الباري ٧/٥٤٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان / باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥١ ، ٥٢ ح ٢٠ .

(٣) سورة التوبة : آية (١٢٣) .

من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال ، وذلك سنة : تسع من هجرته ﷺ ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً فاختاره الله لما عنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق ﷺ ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل ، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغاة ، وبيّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبى حفص عمر بن الخطاب ﷺ ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ شهيد الدار ، فكسي الإسلام رياسته حلة سابغة . وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه ، وبلغت الملة الحنفية من أعداء الله غاية مآربها... وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم (١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٥/٢ ، ٥٢٦ بتصرف .

بعد هذه المقولة التي ذكرها الحافظ ابن كثير يتجلى بوضوح خيرية الأمة الإسلامية بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وعلى رأسه الجهاد ، وبذلك حفظت الدين من التحريف والتبديل ، وقامت بنشر نوره في ربوع الأرض في مشارقها ومغاربها ، وأثبتت للعالم أن الإسلام دين نظام وحضارة ، وأنه استطاع أن يؤسس دولته ويثبت أركانها ، ويضيف إليها كل يوم مدناً جديدة تكون امتداداً لحضارته ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سمو تعاليم الإسلام ورقيّه بما يتماشى مع جميع العقول الموجودة، ولا غرو في ذلك فهو الدين الخاتم كما سبق توضيحه .

ولقد آثرت أن أذكر عالمية الرسالة المحمدية وخيرية الأمة الإسلامية لدفع أي شبهة أو اعتراض يقول بأن أهل الإسلام يتدخلون في شئون غيرهم .

وخلاصة القول في حكمة مشروعية الجهاد ، هو الدعوة إلى الإسلام ، ومنع الاعتداء على الدولة الإسلامية ، وحماية حدودها وأمنها ، كذلك حماية لدين الله وعلو كلمته .

يقول الكاساني : ولأن ما فرض له الجهاد : وهو الدعوة إلى الإسلام وإعلاء الدين الحق، ودفع شر الكفرة وقهرهم (١) .

ويقول الشيخ . عبد الوهاب خلاف : الإسلام أسس علاقات المسلمين بغيرهم على المُسَالمة والأمان ، لا على الحرب والقتال ، إلا إذا أريدوا بسوء لفتنتهم عن دينهم أو صدهم عن دعوتهم ، فحينئذ يفرض عليهم الجهاد دفعاً للشر وحماية للدعوة ، ولو أن غير المسلمين كفوا عن فتنتهم وتركوهم أحراراً في دعوتهم ، ما شهر المسلمون سيفاً ، ولا أقاموا حرباً (٢) .

ويقول الشيخ . محمد أبو زهرة تحت عنوان " الباعث على الحرب في الإسلام " النبي ﷺ قاتل لأمرين : الأمر الأول : دفع الاعتداء ، والأمر الثاني : تأمين الدعوة

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٩٨/٧ . ط / دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية . للشيخ . عبد الوهاب خلاف . ص : ٧٦ ، ٧٧ .

الإسلامية لأنها دعوة الحق . (١) .

من خلال هذه الأقوال يتضح أن الإسلام انتشر بسمو تعاليمه ، وأن المسلمين لم يقاتلوا المشركين وغيرهم حباً في القتال ، ولكنهم قاتلوا لدفع الاعتداء الواقع عليهم ، ولم يكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام ، وهنا يأتي سؤال مهم ، وهو : ما هي العلة في قتال الكفار ؟ أهي الكفر أم الحرابة ؟

ولكي يجيب الأئمة على هذا السؤال قرروا أن الجهاد فرضه الله تعالى على عباده لحماية الدين ، ودفع الظلم والعدوان الواقع عليهم من قبل أعدائهم ، وهذا أمر متفق عليه عند جميع الأئمة ، ولكنهم اختلفوا في العلة الباعثة على الجهاد أهي بسبب كفر الكافرين أم هي بسبب حرابتهم للمسلمين ؟

" فقال الحنفية والمالكية والحنابلة : علة قتال الكافرين هي حرابتهم وعدوانهم ، وقال الشافعية : العلة في قتال الكفار هي كفرهم " (٢) .

وسبب اختلافهم يرجع إلى ما ورد في شأن القتال من الآيات القرآنية ، فبعضها جاء بمطلق المقاتلة ، وبعضها يقيد المقاتلة بغاية تشير إلى الباعث على القتال (٣) .

والناظر في الآيات القرآنية يجد أن العلة في قتالهم هي الحرابة ، والعدوان قال تعالى: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (٤) .

وفي تفسيرها يقول الحافظ ابن كثير : إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم ، كما قال : (وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) العلاقات الدولية في الإسلام للشيخ . محمد أبو زهرة . ص : ٩٢ .

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم ١١٩/٥ ، والمقاصد العامة للشريعة . ص : ٢٥٣ .

(٣) المقاصد العامة للشريعة . ص : ٢٥٣ .

(٤) سورة البقرة : آية (١٩٠) .

كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً) (١) ولهذا قال في الآية : (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ) (٢) أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم ، كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً (٣) .

والحافظ ابن كثير يقرر ما قررته الآية الكريمة وهو مبدأ " القصاص " ويقول تعالى مؤيداً هذا المبدأ : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) (٤) .

وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد أن العلة في قتالهم هي الحرابة ، وليست الكفر .

فَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ : (**اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا(٥) وَلَا تَغْدِرُوا (٦) وَلَا تَمْثُلُوا (٧) وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا(٨)**) (٩) .

---

(١) سورة التوبة : آية (٣٦) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٩١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٧/١ .

(٤) سورة البقرة : آية (١٩٤) .

(٥) لا تغلوا : يقال : غل من المغنم يَغُلُّ بالضم غلولاً : خان . مختار الصحاح . مادة : غلل .

(٦) لا تغدروا : الغدر ترك الوفاء ، والمعنى : لا تنقضوا العهد . مختار الصحاح . مادة : غدر .

(٧) ولا تمثلوا : مثل بالقتيل : جدعه . مختار الصحاح . مادة : مثل .

(٨) وليداً ك الوليد الصبي المولود ، والأمة وليدة : المصباح المنير . مادة : ولد .

(٩) أخرجه مسلم في الجهاد / باب : تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ١٣٥٦/٣ ح ١٧٣١ .

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : (**وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ**) (١) .

فبين النبي ﷺ أن العلة في قتال الكفار هي عدوانهم ، لأنه نهى في الحديث الأول عن الغدر والخيانة والتمثيل وقتل الأطفال ، وفي الحديث الثاني نهى عن قتل النساء والصبيان .

يقول الإمام المازري في الحديث الأول : إنما نهى عن قتل الأطفال لأنه لا نكاية فيهم ولا قتال ، ولا ضرر بأهل الإسلام ، بل هم من جملة الأموال ولم يبلغوا التكليف ، فلهذا لم يقتلوا (٢) .

وقال القاضي عياض في الحديث الثاني : أجمع العلماء على الأخذ بهذا الحديث في ترك قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا . واختلفوا إذا قاتلوا ، فجمهور العلماء كافة – من يحفظ عنه العلم منهم – أنهم إذا قاتلوا يقتلون . قال الحسن : وكذلك لو خرج النساء معهم إلى بلاد الإسلام . قال الأوزاعي : وكذلك إذا كانت حارسة للعدو ، ومذهبنا : أنها لا تقتل في مثل هذا إلا إذا قاتلت (٣) .

فلو كانت العلة في قتلهم الكفر لأمر بقتل النساء والصبيان ، ولكن العلة في قتلهم هي رد العدوان ، وإبطال كيدهم ومكرهم .

" فالجهاد مشروع للمحافظة على مصلحة الدين ، وأنه فرض على الكفاية ، والعلة في مقاتلة الكفار حربهم وعدوانهم وظلمهم (٤) .

يقول الشيخ . محمود شلتوت : الإسلام دين الحجة والبرهان ، دين الأمن والسلام ،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : قتل النساء في الحرب ٢١/٤ ، ومسلم في الجهاد / باب : تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب ١٣٦٤/٣ ح ١٧٤٤ .

(٢) إكمال المعلم ٣١/٦ .

(٣) إكمال المعلم ٦/ ٤٨ .

(٤) المقاصد العامة للشريعة . ص : ٢٥٨ .

دين التعاون والتآخي ، دين التعمير والبناء ، وهو لا يعدل عن الحجة ما وجد منهـا سبيلاً إلى هدفه ، وهو إقرار الحق في نصابه ، وتمتع الناس بحريتهم الطبيعية ، وثمار العدل والمساواة ، فإذا ما التوت بالعقول السبل ، واختلس الإنسان من سكان الكهـوف والمغاور أخلاقهم وطيشهم فعبث بالحياة ، وأراق الدماء ، وسخر الضعفاء ، وتحكـم بجبروته في الحقوق ، وانقض على الهادئين فزلزل عليهم أمنهم ، وعلـى المـالكين فاغتصب حقوقهم وانتزع منهم أوطانهم ، وفتنهم في دينهم ودنياهم – فهنا وهنا فقط – حفظاً لعرض الإنسان أن يثلم ، ولحكمة الله في خلق الإنسان أن تذهب ، لا يجد بُدّاً من ارتكاب الصعب، وهو خوض معامع الحرب والقتال ، فيأذن بها لأهله حتى يرد أهـل البغي والعناد وليحترموا حقوق الإنسانية المكرمة (١) .

حكم الجهاد

الجهاد أمر مهم لحماية الدين والدعوة الإسلامية ، ولكن ما حكمه ؟

وللإجابة على هذا السؤال اختلف الأئمة ، وقد لخص الحافظ ابن حجر قولهم في حكم الجهاد فقال : للناس في الجهاد حالان : إحداهما : في زمن النبـي ﷺ ، والأخـرى : بعده .

فأما الأولى : فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقاً ، ثم بعد أن شرع هل كان فرض عين أو كفاية ؟

قولان مشهوران للعلماء وهما مذهب الشافعي ، وقال الماوردي (٢) : كـان عينـاً على المهاجرين دون غيرهم ، ويؤيده وجوب الهجرة قبل الفتح في حق كل من أسـلم إلى المدينة لنصر الإسلام .

---

(١) من توجيهات الإسلام . ص : ٢٣٦ .

(٢) هو : الإمام العلامة ، أقضى القضاة ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي، صاحب التصانيف ، وله " الحاوي " في الفقه الشافعي ، توفي في سنة : خمسين وأربعمائة . (سير أعلام النبلاء ١٨/٦٤ ، تاريخ بغداد ١٢/١٠٢) .

وقال السهيلي : كان عيناً على الأنصار دون غيرهم ، ويؤيده مبايعتهم للنبي ﷺ ليلة العقبة على أن يؤوا رسول الله ﷺ وينصروه .

فيخرج من قولهما أنه كان عيناً على الطائفتين كفاية في حق غيرهم ، ومع ذلك فليس في حق الطائفتين على التعميم ، بل في حق الأنصار إذا طرق المدينة طارق ، وفي حق المهاجرين إذا أريد قتال أحد من الكفار ابتداء ، ويؤيد هذا ما وقع في قصة بدر فإنه كالصريح في ذلك .

وقيل : كان عيناً في الغزوة التي يخرج فيها النبي ﷺ دون غيرها ، والتحقيق أنه كان عيناً على من عينه النبي ﷺ في حقه ولو لم يخرج .

الحال الثاني : بعده ﷺ فهو فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه كأن يدهم العدو ويتعين على من عينه الإمام ، ويتأدى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور ، ومن حجتهم أن الجزية تجب بدلاً عنه ، في السنة أكثر من مرة اتفاقا فليكن بدلها كذلك ، وقيل : يجب كلما أمكن وهو قوى ، والذي يظهر أنه استمر على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ إلى أن تكاملت فتوح معظم البلاد ، وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ثم صار إلى ما تقدم ذكره ، والتحقيق أيضاً أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه (١) .

وهذا الذي قاله الحافظ ابن حجر أولى بالقبول . والله أعلم .

الإعداد للجهاد :

الجهاد كما سبق هو بذل ما في الوسع والطاقة لمجاهدة الأعداء ، وهذا الوسع وتلك الطاقة لابد لهما من مَدَدٍ يقويهما ويشدُّ أزرهما .

والمطلوب من الأمة الإسلامية أن تعد نفسها إعداداً قوياً لمجاهدة الأعداء ، وأن تظهر بمظهر قوي حتى لا يغتر العدو بهيبتها وقدسيتها التي منحها الله عز وجل لها في قوله

---

(١) فتح الباري ٤٥/٦ .

تعـالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) (١) .

وجاء أمر الله تعالى واضحاً لهذه الأمة بإعداد القوة لمقاتلة الأعداء في قوله تعـالى : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ) (٢) .

فهذا أمر واضح بإعداد القوة لمقاتلة الأعداء المعروفين وغيرهم .

يقول أبو بكر الجصاص (٣) : أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بإعداد السلاح والكُراع (٤) قبل وقت القتال إرهاباً للعدو ، والتقدم في ارتباط الخيل استعداداً لقتال المشركين ، وقد رُوي في القوة أنها الرمي (٥) .

ويقول أبو بكر بن العربي (٦) : أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء بعد أن

---

(١) سورة آل عمران : آية (١١٠) .

(٢) سورة الأنفال : آية (٦٠) .

(٣) هو : أحمد بن على ، أبو بكر الرازي ، الفقيه الحنفي ، إمام أصحاب الرأي في وقته ، الإمام الكبير الشأن المعروف : بالجصّاص ، صاحب التصانيف ، توفى سنة : سبعين وثلاثمائة . (تاريخ بغداد ٣١٤/٤ ، ٣١٥ ، الجواهر المضية ٢٢٠/١ : ٢٢٤ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٠/١٦ ، تذكرة الحفاظ ٩٥٩/٣) .

(٤) الكُراع : بضم الكاف : اسم يجمع الخيل . مختار الصحاح . مادة : كرع .

(٥) أحكام القرآن للجصّاص ٨٨/٣ .

(٦) هو : الإمام الحافظ القاضي ، أبو بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي ، صاحب التصانيف ، وتوفى رحمه الله سنة : ثلاث وأربعين وخمسمائة . (سير أعلام النبلاء ١٩٧/٢٠ : ٢٠٤) .

أكد في تقدمة التقوى ، فإن الله تعالى لو شاء لهزمهم بالكلام ، والتفل في الوجوه ، وحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله ﷺ ، ولكنه أراد أن يُبلى بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ ، فأمر بإعداد القُوى والآلة في فنون الحرب التي تكون لنا عُدَّة وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى ، بإمداد الملائكة العليا (١) .

وواضح من كلام ابن العربي أنه رد الحكمة من إعداد القوة إلى الابتلاء والتمحيص من الله تعالى لعباده ليميز الطيب من الخبيث .

وقد فسّر النبي ﷺ القوة المذكورة في الآية بالرمي ، فَعَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ قال : (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (٢) **أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**) (٣) .

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ ﷺ (٤) قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ (٥) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :(**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**) قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ ؟**) قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (**ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**) (٦) .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٨٧٢ .

(٢) سورة الأنفال : آية (٦٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : فضل الرمي والحث عليه ٣/ ١٥٢٢ ح ١٩١٧ .

(٤) هو : سلمة بن عمرو بن الأكوع ... واسم الأكوع : سنان بن عبد الله . أول مشاهده الحديبية.، وكان من الشجعان ويسبق الفرس عدواً ، وبايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت ، توفى ﷺ سنة : أربع وسبعين على الصحيح ، وقيل : أربع وستين . (الإصابة ٢/٦٦ ، ٦٧) .

(٥) انتضل القوم وتناضلوا : أي رموا للسبق ، وناضله إذا رماه ، وفلان يناضل عن فلان إذا رمي عنه وحاجج وتكلم بعذره ، ودفع عنه . النهاية . مادة : نضل .

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : التحريض على الرمي ٣/٢٢٧ .

وعن السر في تفسير القوة بالرمي ، يقول القرطبي : القوة : التقوى بما يحتاج إليه من الدروع والمجان والسيوف والرماح والرمي وسائر آلآت الحرب ، إلا أنه لما كان الرمي أنكاها في العدو ، وأنفعها فسرها وخصصها بالذكر وأكدها ثلاثاً ، ولم يرد أنها كل العُدَّة بل أنفعها . ووجه أنفعيتها أن النكاية بالسهام تبلغ العدو من الشجاع وغيره بخلاف السيف والرمح ، فإنه لا تحصل النكاية بهما إلا من الشجعان الممارسين للكر والفر ، وليس كل أحد كذلك ، ثم إنها أقرب مئونة وأيسر محاولة وإنكاءً ألا ترى أنه قد يرمى رأس الكتيبة فينهزم أصحابه ؟ إلى غير ذلك مما يحصل منه من الفوائد (١).

ولما كان للرمي هذه الأهمية العظيمة كان تركه مذموماً ، لأن تركه إهمال للجهاد ، وتوهين لقوة الأمة الإسلامية ، وتقويض لبنيانها .

فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ وَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ) (٢).

واضح من حديث النبي ﷺ الحث على مداومة الرمي ، حتى وإن كان ذلك لهواً كيلا ينساه الإنسان ، وفيه أيضاً التدرب على تعلمه .

يقول القاضي عياض : فيه جواز المناضلة والمسابقة بالسهام والحض على ذلك ، وألا يترك ذلك ، وإن استغنى عنه بما كفى الله من الفتح على الأعداء وظهور الدين... ومثله جواز اللعب بالسلاح والمثاقفة (٣) وإجراء الخيل وأشباه هذا ... إذ في كل ذلك التمرن والاستعداد ، ومعاهدة الجسم ، ورياضة الأعضاء بها (٤) .

---

(١) المفهم ٣/٧٥٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ٣/١٥٢٢ ح ١٩١٨ .

(٣) المثاقفة : قال الزمخشري : ثقف ثقافة ، وثاقفه مثاقفة : لاعبه بالسلاح . أساس البلاغة . مادة : ثقف .

(٤) إكمال المعلم ٦/٣٤٦ ، ٣٤٧ بتصرف يسير .

ويقول الصنعاني (١) : ويؤخذ من ذلك شرعية التدرب فيه لأن الإعداد إنما يكون مع الاعتياد ، إذ من لم يحسن الرمي لا يسمى معداً للقوة (٢) .

وهناك حديث آخر صريح في ذم من تعلم الرمي ثم تركه .

فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى) (٣).

يقول القرطبى : هو ظاهر في ذم من ترك الرمي بعد أن علمه ، وسبب هذا الذم أن هذا الذي تعلم الرمي حصلت له أهلية الدفاع عن دين الله والغناء فيه ، والنكاية في العدو . فقد تعين لأن يقوم بوظيفة الجهاد فإذا ترك ذلك حتى يعجز عنه فقد فرّط في القيام بما تعين عليه فَذُمَّ على ذلك (٤) .

ومع تطور العصر ، فلم تقتصر القوة على الرمي فحسب ، بل دخلت أشياء لم تكن موجودة في عصر النبي ﷺ وذلك كالبنادق والمدافع والدبابات والطائرات والسفن الحربية وغيرها ، وإن كان مفهوم الرمي يتناولها جميعاً ، إلا أن إمكانية التصنيع اختلفت ، وأصبح الإنفاق على العملية العسكرية يتكلف أموالاً باهظة ، قد ترهق أحياناً اقتصاد الدولة ، لذا حث الله تعالى على الإنفاق في سبيل الله بعد أن أمر بإعداد القوة ، فقال تعالى: (وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ) (٥) .

---

(١) هو : محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الأمير الحسني الصنعاني ، من علماء اليمن ولد سنة : ألف وتسع وتسعين من الهجرة ، وتوفي سنة : ألف ومائة واثنتين وثمانين رحمه الله . (البدر الطالع ١٣٣/٢: ١٣٩ ، والأعلام ٣٨/٦) .

(٢) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام ٩٤/٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : فضل الرمي والحث عليه ، وذم من علمه ثم نسيه ١٥٢٢/٣ ، ١٥٢٣ ح ١٩١٩ .

(٤) المفهم ٧٦١/٣ .

(٥) سورة الأنفال : آية (٦٠) .

يقول الشيخ . سيد قطب : ولما كان إعداد العدة يقتضى أموالاً ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل الإنفاق في سبيل الله لإعلاء كلمته ، منها :
عن أبى هريرة عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ (٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَاهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ -كُلُّ خَزَنَةِ بَابٍ - : أَيْ فُلُ (٣) هَلُمَّ**) قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاكَ الَّذِي لَا تَوَى عَلَيْهِ(٤) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**) (٥) .

قال المهلب : فيه فضل الجهاد على سائر الأعمال ، وأن للمجاهد أجر المصلى والصائم والمتصدق وإن لم يفعل ذلك ، ألا ترى أن باب الريان هو للصائمين خاصة ، وقد اشترط في هذا الحديث أنه يُدعى من كل باب فاستحق ذلك بإنفاق قليل من المال في سبيل الله (٦) وعن زيد بن خالد ﷺ (٧) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا**

---

(١) في ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب ١٥٤٤/٣ .
(٢) أي : شيئين من أي نوع كان مما ينفق ، والزوج يطلق على الواحد وعلى الاثنين وهو هنا على الواحد . فتح الباري ٥٨/٦.
(٣) جزم الخطابي أنه ترخيم من فلان ، وجزم غيره بأنه لغة فيه . فتح الباري ٥٨/٦
(٤) بالمثناة والأكثر أنه مقصور ، ومعناه : أي : لا هلاك . شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥٠/٥، وفتح الباري ٥٨/٦ ..
(٥) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : فضل النفقة في سبيل الله ٢١٣/٣ .
(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٩/٥ .
(٧) هو : زيد بن خالد الجهني ، روى عن النبي ﷺ ، وشهد الحديبية ، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح ، مات سنة : ثمان وسبعين ، وقيل : سنة : ثمان وستين ﷺ . (الإصابة ٥٦٥/١) .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ) (١) .
يقول القاضي عياض : قوله : (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا) أي : له أجر فعل الخير ، وأجر الغزو ، وإن لم يلحق بجميع تضعيف أجر معطى الخير ، وأجر الغازي ، لأنه يجتمع في تلك الأشياء أفعال أُخر وأعمال من البر كثيرة ، ولهذا أجر إخراج المال فيه بمثل نصف أجر من خرج مجاهداً بنفسه وماله ، وكذلك مجهز الغازي وخالفه في عياله بالخير الذي ليس له إلا حسن عونه ، وبذل ماله في جهازه ، والقيام بمن خلفه ، وكذلك المعونة في جميع أعمال البر (٢) .

ولم يقف الحد عند إعداد القوى العسكرية فقط بل تعداه إلى القوى البدنية التي تستطيع حمل هذه الأسلحة ، فنجد الإسلام يحث المسلم على المحافظة على بنيانه وقوته ، سواء كان ذلك بالرياضة أو بالمأكل والملبس وغير ذلك ، فنجد النبي ﷺ يمتدح القوة في المؤمن ، وأنها أحب عند الله تعالى ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) (٣) .

يقول الإمام النووي : المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة ، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد وأسرع خروجاً إليه ، وذهاباً في طلبه ، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك ، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى ، وأرغب في الصلاة والصوم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : فضل من جهز غازياً ٢١٤/٣ ، ومسلم في الإمارة / باب : فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ١٥٠٧/٣ ح ١٨٩٥ .
(٢) إكمال المعلم ٣١٧/٦ بتصرف .
(٣) أخرجه مسلم في القدر / باب : الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله ٢٠٥٢/٤ ح ٢٦٦٤ .

والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلباً لها ومحافظة عليها ونحو ذلك . وأما قوله ﷺ : (وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ) فمعناه : في كل من القوى والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات (١) .

وكان النبي ﷺ يشجع على الرياضة ، ومنها الرمي كما سبق ، وكذلك السبق ، حتى يحتفظ الجسم بقوته .

فعن عائشة رضي الله عنها : أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ : فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي ، فَقَالَ : (هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ) (٢)

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ : أن رجلاً مِنْ الْأَنْصَارِ قال : أَلَا مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ؟ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ قَالَ : فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ قُلْتُ : أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا؟ قَالَ : لَا . إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي وَأُمِّي ذَرْنِي فَلِأُسَابِقَ الرَّجُلَ قَالَ : (إِنْ شِئْتَ) قَالَ : قُلْتُ : اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ فَطَفَرْتُ (٣) فَعَدَوْتُ قَالَ : فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي (٤) ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ . قَالَ : فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ . قَالَ : قُلْتُ : قَدْ سُبِقْتَ وَاللَّهِ . قَالَ : أَنَا أَظُنُّ . قَالَ : فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ) (٥)

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢١٥/١٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد / باب : في السبق على الرجل ٢٩/٣ ح ٢٥٧٨ بإسناد حسن لأجل " أبي صالح الأنطاكي ، محبوب بن موسى " قال ابن حجر : " صدوق " . (التقريب ٢٣٩/٢) .

(٣) الطفرة : الوثبة ، والمعنى : وثبت وقفزت . مختار الصحاح . مادة : طفر .

(٤) أي : حبست عليه قليلاً لأروح نفسي ، ولا يقطع البهر وطول الجري نفسي ، والشرف : ما ارتفع من الأرض . إكمال المعلم ١٩٩/٦ .

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير / باب : غزوة ذي قرد وغيرها ١٤٣٢/٣ : ١٤٤١ ح ١٨٠٦ من حديث طويل ، والنص الموجود من صفحة : ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ .

فمسابقة سلمة بن الأكوع للرجل من الأنصار من الجائزات ، ولو كان منهياً عنها لما أباحها النبي ﷺ في حضرته ، وفيها إعداد للقوة الجسمانية ، وتدريب على الرمي المطلوب في قتال الأعداء .

يقول القاضي عياض : وأما المسابقة على الأقدام وفى غير ذلك من الأعمال بغير رهان، فمن باب الجائزات ، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع ، ومنه مسابقة النبي ﷺ لعائشة، فهذا من الجائز المباح لا غير ، وقد تكون مسابقة الرجال على الأقدام من باب مسابقة الخيل المنسوبة والمرغب فيها على رأى من رأى ذلك ، لما فيه من التدريب والتجربة للحاجة إلى سبق المسابق في ذلك كما احتيج إلى سلمة في غزوة ذي قرد (١) كما يحتاج إلى الخيل في ذلك (٢) .

ويقول النووي : وفى هذا دليل لجواز المسابقة على الأقدام ، وهو جائز بلا خلاف إذا تسابقا بلا عوض ، فإن تسابقا على عوض ، ففي صحتها خلاف الأصح عند أصحابنا : لا تصح (٣) .

ولم تنس السنة المطهرة حق الجسم في الطعام والشراب ، وبينت أن تركهما يضعف الجسم ويثبطه عن عزمه في قتال الأعداء .

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : **بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ وَأُصَلِّي اللَّيْلَ فَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ وَإِمَّا لَقِيتُهُ فَقَالَ : (أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَلَا تُفْطِرُ وَتُصَلِّي ؟ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا وَإِنَّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَظًّا) قَالَ : إِنِّي لَأَقْوَى لِذَلِكَ . قَالَ : (فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام) قَالَ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ : (كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى) قَالَ : مَنْ لِي بِهَذِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ** (٤)

---

(١) ذي قرد : قال النووي : هو بفتح القاف والراء وبالدال المهملة ، وهو ماء على نحو يوم من المدينة مما يلي غطفان . المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/١٧٣ .

(٢) إكمال المعلم ٦/٢٨٦ .

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/١٨٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم / باب : حق الأهل في الصوم ٢/٢٤٦ .

قال الخطابي : محصل قصة عبد الله بن عمرو : أن الله تعالى لم يتعبد عبده بالصوم خاصة، بل تعبده بأنواع من العبادات ، فلو استفرغ جهده لقصّر في غيره ، فالأولى الاقتصاد فيه ليستبقى بعض القوة لغيره ، وقد أشير إلى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام في داود ﷺ : (وكان لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى) لأنه كان يتقوى بالفطر لأجل الجهاد(١) .

وقال ابن بطال : وفيه أن التعمق في العبادة والإجهاد للنفس مكروه لقلة صبر البشر على التزامها لاسيما في الصيام الذي هو إضعاف للجسم ، وقد رخص الله فيه في السفر ، لإدخال الضعف على من تكلف مشقة الحل والترحال ، فكيف إذا انضاف ذلك إلى من كلفه الله قتال أعدائه الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ألا ترى أن النبي ﷺ قال ذلك في هذا الحديث عن داود : (وكان لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى) فإنه أبقى لنفسه قوة ، لئلا تضعف نفسه عن المدافعة واللقاء .

قال : وقد كره قوم من السلف صوم الدهر ، وقالوا : إنما نهى عن صيام الأبد لما في ذلك من الإضرار بالنفس ، والحمل عليها ، ومنعها من الغذاء الذي هو قوامها وقوتها على ما هو أفضل من الصوم كالصلاة النافلة وقراءة القرآن والجهاد ، وقد أخبر ﷺ بقوله في صوم داود (وكان لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى) أن من فضل صومه على غيره ، إنما كان من أجل أنه لا يضعف عن القيام بالأعمال التي هي أفضل من الصوم، وذلك ثبوته لحرب أعداء الله عند التقاء الزحوف ، وتركه الفرار منهم (٢) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ (٣) لَا يَصُومُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ

---

(١) فتح الباري ٤/٢٦١ .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤/١٢١ ، ١٢٢ بتصرف .

(٣) هو : زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة الأنصارى الخزرجى ، أبو طلحة ، مشهور بكنيته ، كان من فضلاء الصحابة ، وهو زوج أم سليم ، مات سنة : أربع وثلاثين ، وقيل : قبلها بسنتين ، وقيل : سنة خمسين أو إحدى وخمسين ﷺ (الإصابة ١/٥٦٦ ، ٥٦٧) .

أَجْلِ الْغَزْوِ فَلَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ أَرَهُ مُفْطِرًا إِلَّا يَوْمَ فِطْرٍ أَوْ أَضْحَى) (١) .

قال المهلب : كان أبو طلحة فارس رسول الله ، وممن له الغناء في الحرب ، فلذلك كن يفطر ليتقوى على العدو ، وقد قال النبي ﷺ (**تَقَوَّوْا لِعَدُوِّكُمْ بِالإِفْطَارِ**)(٢) وأيضاً فإن المجاهد يكتب له أجر الصائم القائم ، وقد مثله ﷺ بالصائم لا يفطر ، والقائم لا يفتر ، فدل هذا كله على فضل الجهاد على سائر أعمال التطوع ، فلما مات رسول الله وكثر الإسلام واشتدت وطأة أهله على عدوهم ، ورأى أنه في سعة عما كان عليه من الجهاد ، ورأى أن يأخذ حظه من الصوم ، ليدخل يوم القيامة من باب الريان (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِسِتَّ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ فَلَمْ يَعِبْ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ) (٤) .

وعنه أيضاً قال : سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ قَالَ : فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ**) فَكَانَتْ رُخْصَةً فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ : (**إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ فَأَفْطِرُوا**) وَكَانَتْ عَزْمَةً فَأَفْطَرْنَا ثُمَّ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُنَا نَصُومُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ (٥) .

في هذين الحديثين بيان لجواز الفطر في نهار رمضان لقتال الأعداء ، وأن الفطر أقوى للجسم وأحفظ له كما بيّن النبي ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : من اختار الغزو على الصوم ٢١١/٣ .

(٢) أخرجه مالك في الصيام / باب : ما جاء في الصيام في السفر ٢٥٣/١ بلفظ (تَقَوَّوْا لِعَدُوِّكُمْ) وإسناده : صحيح .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٢/٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الصوم / باب : جواز الصوم في شهر رمضان للمسافر ٧٨٦/٢ ح ١١١٦ .

(٥) أخرجه مسلم في الصوم / باب : أجر المفطر في السفر إذا تول العمل ٧٨٩/٢ ح ١١٢٠

وعن الغرض المراد من إعداد القوة لقتال الأعداء ، يقول الشيخ . سيد قطب : إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في مشارق الأرض لتحرير الإنسان ، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها ، فلا يُصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .

والأمر الثاني : أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة .

والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي ، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها .

والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه (١).

ويقول أ . رشيد رضا نقلاً عن الشيخ . محمد عبده : أن يكون القصد الأول من إعداد هذه القوى المرابطة إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة أو مصالحها أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها ، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر : بالسلم المسلح ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً ، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً، فقيد الأمر بإعداد القوى والمرابطة بقوله : (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (٢) ، (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٤٣/٣ .
(٢) سورة الأنفال : آية (٦٠) .
(٣) تفسير المنار ١٢٥/١٠ .

فضل الجهاد وإخلاص النية والترغيب فيه :

أولاً : فضل الجهاد :

شرع الجهاد في الإسلام لحماية الدين من الفتن والبدع التي يصدرها أعداؤه ، كذلك لرد العدوان الواقع أو المتوقع عليهم ، فحماية الدين أمر ضروري ، وخاصة أن أعداء الإسلام يريدون النيل منه في كل وقت وحين ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١) وإذا كان كذلك : كان الجهاد لابد منه لحماية الدين ، ولما كان الجهاد هو : بذل الوسع في جهاد الكفار ، وهذا الوسع والجهد يتحقق ببذل النفس والمال ، وكل غال ونفيس ، لأجل هذا كان الجهاد أفضل الأعمال .

يقول ابن دقيق العيد (٢) : القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل ، لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه (٣) .

وقد وردت آيات كثيرة تُبيِّن فضل الجهاد وثوابه منها :

قوله تعالى : (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ

---

(١) سورة البقرة : آية (٢١٧) .

(٢) هو : الإمام الفقيه المحدث ، تقي الدين أبو الفتح ، محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الصعيدي المالكي والشافعي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة : خمس وعشرين وستمائة ، وتوفي سنة : اثنتين وسبعمائة رحمه الله . (تذكرة الحفاظ ١٤٨١/٤ : ١٤٨٤) .

(٣) فتح الباري ٨/٦ .

وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١) .

يقول ابن كثير في تفسيرها : يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة : بايعهم والله فأغلى ثمنهم (٢) .

وهذه المعاوضة إنما تدل على فضل الجهاد عند الله سبحانه وتعالى ، وذكرها في آية أخرى باسم التجارة ، وهى تجارة رابحة لأنها مع الله .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ - يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٣) .

وفى السنة وردت أحاديث كثيرة تبرز فضل الجهاد ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأن ثوابه لا يقتصر على الدنيا فقط من الأجر والغنيمة ، بل يتعداه إلى الآخرة بنيل درجات الشهداء .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ

(١) سورة التوبة : آية (١١١) .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٢/٢ .
(٣) سورة الصف : آية (١٠ ، ١١ ، ١٢) .

مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) (١) .

قال القاضي عياض في شرحه لهذا الحديث : الغدوة بفتح الغين : السير بالغدو ، والغدوة بالضم : من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس ، والغدوة بالفتح : السير إلى الزوال . والروحة : السير بالرواح ، وذلك من الزوال إلى آخر النهار ، والغدوة والروحة : الذهاب مرة واحدة في هذين الوقتين ، ومعناه : أن فضل ذلك وثوابه ونعيمه – على قلة هذا العمل – خير من نعيم الدنيا كله لو ملكه مالك على اتساعه في التقدير ، ومحل ذلك من العظم في النفوس لشاهديه ، وذلك لأنه زائل ونعيم الآخرة باق . وقيل : معناه ومعنى ما جاء من يبحث له من تمثيل أمور الآخرة آثراً بها بأمور الدنيا ؛ أنهما خير من الدنيا وما فيها لو ملكه مالك فأنفقه في الآخرة ، فإن الجهاد أفضل من ذلك ، وأما تمثيل الباقي بالفاني على وجهه فغير مراد ، ولا يصح التمثيل به (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد ، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : (**الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا**) قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**) قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : الغدوة والروحة في سبيل الله ٢٠٣/٣ ، ومسلم في الإمارة / باب : فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ١٤٩٩/٣ ح ١٨٨٠ .

(٢) إكمال المعلم ٣٠٠/٦ .

(٣) فتح الباري ١٨/٦ .

(٤) سبق تخريجه .

قال الطبري (١) : إنما خص ﷺ هذه الثلاثة بالذكر لأنها عنوان على ما سواها من الطاعات ، فإن من ضيع الصلاة المفروضة حتى يخرج وقتها من غير عذر مع خفة مؤنتها عليه وعظيم فضلها فهو لما سواها أضيع ، ومن لم يبر والديه مع وفور حقهما عليه كان لغيرهما أقل براً ، ومن ترك جهاد الكفار مع شدة عدواتهم للدين كان لجهاد غيرهم من الفساق أترك ، فظهر أن الثلاثة تجتمع في أن من حافظ عليها كان لما سواها أحفظ ، ومن ضعيها كان لما سواها أضيع (٢) .

وفى الحديث بيان فضل الجهاد ، وأنه من أفضل الأعمال ، وعن أبى هريرة ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**) (٣) .

وفى شرحه يقول القاضي عياض : وقوله : (**أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**) له وجهان : أحدهما : أن يدخله إياها عند موته ، كما جاء في الشهداء في كتاب الله (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (٤) .

ويحتمل أن يريد دخوله الجنة عند دخول السابقين والمقربين لها دون حساب ولا عقاب ولا مؤاخذة بذنب ، وإذ الشهادة كفارة لما تقدم من ذنوبه ، وقوله : (**أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**) فيه وجهان : أحدهما : مع ما نال

---

(١) هو : أبو جعفر ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري ، صاحب التصانيف البديعة ، مولده سنة : أربع وعشرين ومائتين ، وتوفى سنة : عشر وثلاثمائة رحمه الله . (سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ ، وتاريخ بغداد ١٦٢/٢ : ١٦٩) .

(٢) فتح الباري ٧/٦ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ٢٠١/٣ ، ومسلم في الإمارة / باب : فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ١٤٩٦/٣ ح ١٨٧٦

(٤) سورة آل عمران : آية (١٦٩) .

- من أجر مجرد إن لم تكن غنيمة أو أجر وغنيمة إذا كانت ، فاكتفى بذكر الأجر أولاً عن تكراره ، وقيل: " أو " هاهنا بمعنى الواو (١) .

وعن أبى سعيد الخدري ﷺ قال : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ**) قَالُوا : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : (**مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**) (٢) .

يقول الحافظ ابن حجر : وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى ، ولما فيه من النفع المتعدى (٣).

وعن أبى هريرة ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ : (**لَا أَجِدُهُ . قَالَ : هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ ؟**) قَالَ : وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ (٤)

قال الحافظ ابن حجر : قال القاضي عياض : اشتمل حديث الباب على تعظيم أمر الجهاد، لأن الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد ، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها ، ولهذا قال ﷺ (**لا تستطيع ذلك**) (٥) واستدل به على أن الجهاد أفضل الأعمال مطلقاً (٦) .

---

(١) إكمال المعلم ٢٩٤/٦ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ٢٠٠/٣ ، ٢٠١ ، ومسلم في الإمارة / باب : فضل الجهاد والرباط ١٥٠٣/٣ ح ١٨٨٨ .

(٣) فتح الباري ٩/٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : فضل الجهاد والسير ٢٠٠/٣ .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ١٤٩٨/٣ ح ١٨٧٨ . عن أبى هريرة ﷺ ، بلفظ مقارب.

(٦) فتح الباري ٨/٦ .

ثانياً : إخلاص النية في الجهاد :

إخلاص النية مطلوب لقبول العبادات من الإنسان ، وقد ورد الحض عليه في آيات كثيرة، حيث إن العبادة لا تكون مقبولة عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، خالية من الرياء وحب الدنيا ، وهذا يجعل الإخلاص عنصراً جوهرياً في الجهاد وفى غيره من العبادات حتى تكون مقبولة ويحصل الثواب عليها من الله عز وجل .

وقد أمر الله عباده بأن يتقربوا إليه بالنية الخالصة له ، وتجريد العمل من كل غرض إلا لإرضائه سبحانه ، وأن تكون الطاعة قربة له جل شأنه ، قال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (١) ، وقال تعالى : (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ - أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (٢) .

فقد دلت الآيات على وجوب الإخلاص في كل عمل ، لذا فإن الرسول ﷺ نبّه إلى ضرورة وجود النية في كل عمل وعلى أساسها يتحدد الثواب من الله تعالى(٣) .

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (٤) .

---

(١) سورة البينة : آية (٥) .

(٢) سورة الزمر : آية (٢ ، ٣) .

(٣) الجهاد وأحكامه في التشريع الإسلامي . د . محمد عبد الفتاح البنهاوي . ص : ١٧٤ ، ١٧٥ بتصرف .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في بدء الوحي / باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٢ ، ومسلم في الإمارة / باب : قوله ﷺ (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ) ٣/١٥١٥ ، ١٥١٦ ح ١٩٠٧ .

فالنية هي التي تحول العمل من عادة إلى عبادة ، وهي التي تفرق بين المخلص وغيره ، والجهاد كغيره من العبادات يحتاج إلى إخلاص النية .

وقد صورت أحاديث النبي ﷺ أنواعاً من البشر تختلف نياتهم في الجهاد باختلاف الباعث عليه ، والنبي ﷺ يضرب المثل لأمته كي يخلصوا لله في أعمالهم ، وأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : (**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) (١) .

قال ابن دقيق العيد : في الحديث : دليل على وجوب الإخلاص في الجهاد ، وتصريح بأن القتال للشجاعة والحمية والرياء خارج عن ذلك (٢) .

وقال النووي : فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة ، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣).

وعن أبي موسى ﷺ أيضاً قال : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً(٤) وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) (٥) .

وفي رواية أخرى عن أبي موسى ﷺ أيضاً : أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٢٠٦/٣، ومسلم في الإمارة / باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ١٥١٢/٣ ، ١٥١٣ ح ١٩٠٤ .

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد . ص : ٧٢٢ . ط/ مكتبة السنة . القاهرة ..

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٤٩/١٣ .

(٤) الحمية : العار والأنفة . مختار الصحاح . مادة : حمى .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ١٥١٣/٣ ح ١٩٠٤ .

عَنْ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ فَقَالَ : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . قَالَ : فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا . فَقَالَ : **(مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** (١) .

قال الشوكاني (٢) : والحاصل من الروايات : أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء : طلب المغنم ، وإظهار الشجاعة ، والرياء ، والحمية ، والغضب ، وكل منها يتناوله المدح والذم ، ولهذا لم يحصل الجواب بالإثبات ولا بالنفي (٣) .

فبيّن النبي ﷺ أن القتال الخالص لله تعالى هو القتال في سبيله لإعلاء كلمته ، والمراد بكلمة الله – كما قال الحافظ ابن حجر – دعوة الله إلى الإسلام ، ويحتمل أن يكون المراد: أنه لا يكون في سبيل الله إلا من كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله فقط ، بمعنى أنه لو أضاف إلى ذلك سبباً من الأسباب المذكورة أخل بذلك ، ويحتمل أن لا يخل إذا حصل ضمناً لا أصلاً ومقصوداً (٤) .

وبيّن النبي ﷺ أن هذه الأمور التي تُخل بإخلاص النية في الجهاد تنقص من أجره . فعن عبد الله بن عمرو ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : **(مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنْ الْآخِرَةِ وَيَبْقَى لَهُمْ الثُّلُثُ وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ)** (٥) .

قال النووي : وأما معنى الحديث : فالصواب الذي لا يجوز غيره أن الغزاة إذا

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ١٥١٣/٣ ح ١٩٠٤ .

(٢) هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ، توفي سنة : خمس ومائتين وألف من الهجرة . (البدر الطالع ٢١٤/٢ ، الأعلام ٢٩٨/٦) .

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ٣٣/٨ .

(٤) فتح الباري ٣٤/٦ .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : بيان قدر ثواب من غزا فغنم ١٥١٤/٣ ح ١٩٠٦ .

سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم ، أو سلم ولم يغنم ، وأن الغنيمة هي في مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو ، وتكون هذه الغنيمة من جملة الأجر (١) .

ثم بيّن النبي ﷺ أن من قاتل للرياء والسمعة أو لغرض من الأغراض المذمومة يكون عقابه النار في الآخرة .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : **(إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ . قَالَ : كَذَبْتَ . وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ . قَالَ : كَذَبْتَ . وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ : كَذَبْتَ . وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ)** (٢) .

قال النووي : – الحديث – دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته ، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال ، كما قال الله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (البينة : ٥) (٣) .

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥٢/١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ١٥١٣/٣ ، ١٥١٤ ح ١٩٠٥ .

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥٠/١٣ ، ٥١ .

كذلك بيّن النبي ﷺ أن من قاتل في سبيل الله لإعلاء كلمته مخلصاً في نيته لله تعالى ، استحق بهذا الإخلاص النعيم الأبدي .

فعن البراء بن عازب ﷺ قال : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ ؟ قَالَ : (أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ) فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا) (١) .

قال المهلب بن أبى صُفرة : في هذا الحديث : دليل أن الله يعطى الثواب الجزيل على العمل اليسير تفضلاً منه على عباده ، فاستحق هذا نعيم الأبد في الجنة بإسلامه ، وإن كان عمله قليلاً ، لأنه اعتقد أنه لو عاش لكان مؤمناً طول حياته فنفعته نيته ، وإن كان قد تقدمها قليل من العمل ، وكذلك الكافر إذا مات ساعة كفره يجب عليه التخليد في النار ، لأنه انضاف إلى كفره اعتقاده أنه يكون كافراً طول حياته لأن الأعمال بالنيات (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : وفى هذا الحديث : أن الأجر الكثير قد يحصل بالعمل اليسير فضلاً من الله وإحساناً (٣) .

فدلت هذه الأحاديث أن النية تختلف من شخص لآخر ، وأن الجهاد المقبول عند الله ما كان خالصاً لوجهه لإعلاء كلمته ونصر دينه وحمايته ، وأن النية هى المُرجّح لثواب الأعمال .

ثالثاً : الترغيب في الجهاد :

الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ، وحماية دينه ، من أفضل الأعمال عند الله سبحانه وتعالى ، كما بيّن النبي ﷺ .

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : عمل صالح قبل القتال ٢٠٦/٣ ، ومسلم في الإمارة / باب : ثبوت الجنة للشهيد ١٥٠٩/٣ ح ١٩٠٠ .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٤/٥ .

(٣) فتح الباري ٣١/٦ .

الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : (**الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا**) قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**) قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي (١) .

ولقد رغّب النبي ﷺ في الجهاد في أحاديث كثيرة منها :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا**) فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : (**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ** - أُرَاهُ قَالَ : **فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**) (٢) .

قال ابن بطال في شرحه للحديث : أخبر ﷺ بدرجات المجاهدين في سبيله وفضيلتهم في الجنة ليرغّب أمته في مجاهدة المشركين وإعلاء كلمة الإسلام (٣) .

وقال الحافظ ابن حجر : وفي الحديث : فضيلة ظاهرة للمجاهدين ، وفيه عظم الجنة وعظم الفردوس منها ، وفيه إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد إما بالنية الخالصة أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة ، لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أُعدّ للمجاهدين (٤) .

وعن أنس بن مالك ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**) (٥) .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : درجات المجاهدين ٢٠٢/٣ .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٣/٥ .

(٤) فتح الباري ١٦/٦ ، ١٧ .

(٥) سبق تخريجه .

وعن أبي هريرة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَقَابُ قَوْسٍ(١) فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ) وَقَالَ : (لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ) (٢) .

قال المهلب بن أبي صفرة : قوله : (**الغدوة والروحة خير من الدنيا**) يعني : خير من زمن الدنيا ، لأن الغدوة والروحة في زمن ، فيقال : إن ثواب هذا الزمن القليل في الجنة خير من زمن الدنيا كلها ، وكذلك قوله (**لقاب قوس أحدكم**) أو (**موضع سوط أحدكم في الجنة**) يريد أن ما صغر في الجنة من المواضع كلها بساتينها وأرضها ، فأخبر في هذا الحديث أن قصير الزمان وصغير المكان في الآخرة خير من طويل الزمان وكبير المكان في الدنيا ، تزهيداً فيها وتصغيراً لها وترغيباً في الجهاد ، إذ بالغدوة والروحة فيه أو مقدار قوس المجاهد يعطيه الله في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها ، فما ظنك بمن أتعب نفسه وأنفق ماله (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ**) (٤) .

قال ابن بطال : فيه من الفقه : أن رسول الله ﷺ كان يتمنى من أعمال الخير ما يعلم أنه لا يعطاه حرصاً منه ﷺ على الوصول إلى أعلى درجات الشاكرين وبذلاً

---

(١) القابُ : القدْرُ ، ويقال : القابُ : ما بين مقبض القوس والسِّيَة ، ولكل قوس قابان ، وقاب قوس : أي قدر قوس . المصباح المنير . مادة : قوب .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد /باب : الغدوة والروحة في سبيل الله ٢٠٢/٣ .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٤/٥ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : تمنى الشهادة ٢٠٣/٣ ، ومسلم في الإمارة / باب : فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ١٤٩٧/٣ ح ١٨٧٦ .

لنفسه في مرضاة ربه وإعلاء كلمة دينه ، ورغبة في الازدياد من ثـواب ربـه ، ولتتأسى به أمته في ذلك ، وقد يثاب المرء على نيته (١) .

وعن أبى هريرة ﷺ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَـادِ عَـنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ (٢) أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ**) (٣) .

يُبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث فضل من يجرح في سبيل الله مخلصاً النية لله فـي جهاده ، فيأتي يوم القيامة متغير الهيئة ليدل على أنه بذل نفسه لله لإعلاء كلمته وحماية دينه .

يقول النووي : قوله ﷺ : (**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَـبِيلِهِ**) هـذا تنبيـه علـى الإخلاص في الغزو ، وأن الثواب المذكور فيه إنما هو لمن أخلص فيه ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، قالوا : وهذا الفضل وإن كان ظاهره أنه في قتال الكفار فيـدخل من جرح في سبيل الله في قتال البغاة وقطاع الطريق وفى إقامة الأمـر بـالمعروف والنهى عن المنكر ونحو ذلك (٤) .

وقال ابن دقيق العيد : ومجيئه يوم القيامة مع سيلان الجرح فيه أمران : أحدهما : الشهادة على ظالمه بالقتل . الثاني : إظهار شرفه لأهل المشهد والموقف بما فيه مـن رائحة المسك الشاهدة بالطيب (٥) .

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٦/٥ .

(٢) الكَلْمُ : الجراحة . مختار الصحاح . مادة : كلم .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الجهاد / باب : من يجرح في سـبيل الله عز وجل ٢٠٤/٣، ومسلم في الإمارة /باب : فضل الجهاد والخروج فـي سـبيل الله ١٤٩٦/٣ ح ١٨٧٦ .

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢٢/١٣ .

(٥) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام . ص: ٧١٠ .

وعن عبد الله بن أبي أوفى (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :(وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) (٢) .

قال القاضي عياض : هذه استعارة ، يعني : أن الجهاد وحضور المعارك سبب لدخولها – أي الجنة – ومقرب إليها (٣) .

الترهيب من ترك الجهاد ، ومُضيّه إلى يوم الدين

أولاً : التحذير من ترك الجهاد :

الجهاد من الوسائل العملية لحماية الدين ، فإذا ما ترك : صار أمر الدين هيناً ، يعبث به كل من يريد النيل منه ، لذا حذّر القرآن الكريم والسنة المطهرة من ترك الجهاد .

قال تعالى يحذر الأمة من ترك الجهاد في سبيله لإعلاء كلمته : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) (٤)

ثم عقّب ببيان الوعيد الذي ينتظر من ترك الجهاد ، فقال تعالى : (إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥) .

---

(١) هو : عبد الله بن أبي أوفى ، واسمه : علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد الأسلمي ، له ولأبيه صحبة ، شهد الحديبية ، وروى أحاديث شهيرة ، مات سنة : ثمانين ﷺ . (الإصابة ٢٧٩/٢ ، ٢٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد / باب : الجنة تحت بارقة السيوف ٢٠٨/٣ .

(٣) إكمال المعلم ٣٢٤/٦ .

(٤) سورة التوبة : آية (٣٨) .

(٥) سورة التوبة : آية (٣٩) .

وتأتي أحاديث النبي ﷺ لتفسّر ما جاء في القرآن الكريم في شدة وعيده لمن تـرك الجهاد ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَـدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ) (١) .

وعن أبي أمامة (٢) ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (٣) .

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلاَ عَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ) (٤) .

ففي هذه الأحاديث بيّن النبي ﷺ عقوبة تارك الجهاد ، من الموت على شعبة مـن نفاق ، والذل والعار الذي يلحقه ، وكذلك العذاب في الدنيا ، ثم العذاب الذي ينتظره

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة / باب : ذم من مات ولم يغز ١٥١٧/٣ ح ١٩١٠ .

(٢) هو : صُدى بالتصغير بن عجلان بن الحارث ، ويقال : ابن وهب الباهلي أبو أمامة ، مشهور بكنيته ، روى عن النبي ﷺ ، مات ﷺ سنة : سـت وثمـانين . (الإصـابة ١٨٢/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد / باب : كراهية ترك الغزو ١٠/٣ بإسناد صـحيح ، وإن كان في إسناده " القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي " قال الحافظ ابن حجر : " صـدوق يرسل كثيراً " إلا أن روايته عن أبي أمامة ليست مرسلة ، قال ابن أبي حـاتم : روى عن علي مرسلاً وابن مسعود مرسلاً وعائشة مرسلاً وروى عن أبي أمامة ، فبين أنه لم يرسل عن أبي أمامة ، وقد وثقه الأئمة . (تهذيب الكمال للمزي ٣٨٣/٢٣ ، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١١٣/٧ ، وتقريب التهذيب ١٢٥/٢) .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ١٤٨/٤ ، ١٤٩ ، بإسناد حسن ، فيه " عقبة بن قبيصـة بن عقبة " "صدوق" ، " وعلي بن سعيد الرازي " شيخ الطبراني ، قال ابـن يـونس : تكلموا فيه ، وقال الدارقطني : ليس بذاك ، وقال الحافظ ابن حجر : لعل كلامهم فيـه من جهة دخوله في أعمال السلطان ، وقد وثقه : ابن يونس ، ومسلمة بن قاسم .(لسان الميزان ٢٦٥/٤ ، ٢٦٦) .

في الآخرة .

ثم إن المسلمين إذا تركوا الجهاد سلّط الله عليهم أعداءهم كما ورد في الحديث الذي رواه ثوبان (١) مولى رسول الله ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**) قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ : (**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ (٢) السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلَ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ (٣)**) قَالَ : قُلْنَا : وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ : (**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**) (٤) .

بيّن الحديث الشريف أن المسلمين إذا تركوا الجهاد وانشغلوا بأمور الحياة سلط الله عليهم عدوهم ، وقذف في قلوبهم الضعف والوهن ، وذلك لحبهم للدنيا وكراهيتهم للموت .

ثانياً : مُضى الجهاد إلى يوم الدين :

الجهاد فرض على الكفاية ، بمعنى إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ويتعين إذا كان العدو ببلاد المسلمين أو قريباً منها .

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة ، وذلك لحماية الدين وحفظه ، فعن ثوبان ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ**

---

(١) هو : ثوبان مولى رسول الله ﷺ صحابي مشهور ، يقال : إنه من العرب من حكمي بن سعد بن حمير ، وقيل : من السراة ، اشتراه ثم أعتقه رسول الله ﷺ فخدمه ، مات ﷺ سنة : أربع وخمسين . (الإصابة ١/٢٠٤) .

(٢) غثاء السيل : حميلُهُ . المصباح المنير . مادة : غثا .

(٣) الوهن : الضعف . مختار الصحاح . مادة : وهن .

(٤) أخرجه أبو داود وأحمد واللفظ له ، أخرجه أبو داود في الملاحم / باب : في تداعي الأمم على الإسلام ٤/١١١ ح ٤٢٩٧ ، وأحمد في المسند ٥/٢٧٨ وسندهما صحيح .

خَذَلَهُمْ (١) **حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**) (٢) .

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**) (٣) .

وعن جابر بن سمرة (٤) ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (**لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ** (٥) **مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**) (٦) .

وعن عقبة بن عامر (٧) ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**) (٨) .

فبيّن النبي ﷺ أن الجهاد باق حتى تقوم الساعة مادام هناك جماعة مؤمنة تقاتل

---

(١) الخذل : ترك العون والنصرة . مختار الصحاح . مادة : خذل ، والمراد هنا : خالفهم ، كما صرحت به الروايات الأخرى .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في الإمارة / باب : قوله ﷺ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ) ١٥٢٣/٣ ح ١٩٢٠ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الاعتصام بالسنة / باب : قول النبي ﷺ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ) ١٤٩/٨ ، ومسلم في الإمارة / باب : قوله ﷺ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ) ١٥٢٣/٣ ح ١٩٢٠ .

(٤) هو : جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب العامرى السوائي ، له ولأبيه صحبة ، توفى ﷺ سنة : أربع وسبعين . (الإصابة ٢١٢/١) .

(٥) العصابة : بالكسر الجماعة منم الناس والخيل والطير . مختار الصحاح . مادة : عصب .

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة ١٥٢٤/٣ ح ١٩٢٢ .

(٧) هو : عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدى الجهنى الصحابي المشهور ، روى عن النبي ﷺ كثيراً، ومات ﷺ سنة : ثمان وخمسين . (الإصابة ٤٨٩/٢) .

(٨) أخرجه مسلم في الإمارة ١٥٢٥/٣ ح ١٩٢٤ .

لإعلاء كلمة الله ، وحماية دينه ، رغم كيد الحاقدين .

وعن المراد بهؤلاء الجماعة يقول البخاري : هم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟

وقال القاضي عياض : إنما أراد - أحمد - أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث (١).

وقال النووي : يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض ، وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة ، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث (٢) .

ويقول ابن بطال : يريد - ﷺ - أن أمته آخر الأمم وأن عليها تقوم الساعة ، وإن ظهرت أشراطها ، وضعف الدين ، فلابد أن يبقى من أمته من يقوم به . والدليل على ذلك قوله : (لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ) . وفيه : أن الإسلام لا يُذل ، وإن كثر مطالبوه(٣) .

ولقد ترجم الإمام البخاري لباب من أبواب الجهاد عنده بقوله " باب : الجهاد ماض مع البر والفاجر لقول النبي ﷺ (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ثم ذكر الحديث عن عروة البارقي (٤) ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا

---

(١) إكمال المعلم ٣٥٠/٦ .

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦٧/١٣ .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٥٥/١ .

(٤) هو : عروة بن الجعد ، ويقال : ابن أبى الجعد البارقى ، مشهور له أحاديث ، وكان فيمن حضر فتوح الشام ونزلها ، ثم سيّره عثمان إلى الكوفة ، وحديثه عند أهلها . (الإصابة ٤٧٦/٢) .

الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ) (١) .

قال المهلب : استدلال البخاري صحيح أن الجهاد ماض مع البر والفاجر إلى يوم القيامة. من أجل أنه أبقى ﷺ الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة ، وقد علم أن من أئمته أئمة جور لا يعدلون ، ويستأثرون بالمغانم ، فأوجب هذا الحديث الغزو معهم، ويقوى هذا المعنى أمره بالصلاة وراء كل بر وفاجر من السلاطين وأمره بالسمع والطاعة ولو كان عبداً حبشياً (٢) .

وقال القاضي عياض : وهذا من كلامه البليغ ﷺ ، وتحسينه الألفاظ العذبة السهلة بعضها ببعض ، والناصية : الشعر المسترسل على الجبهة قاله الخطابي ، وكنى بها عن الذات نفسها ، يقال : فلان مبارك الناصية ، أى الذات والنفس ، وهذا كله دليل على تفضيل الخيل وارتباطها في سبيل الله ، واتخاذها عدة لجهاد أعدائه ، وأن خيرها وبركتها ما فسر في الحديث من الغنيمة . وفيه أن الجهاد باق ثابت إلى يوم القيامة ، واستدل به بعض العلماء باستمراره تحت راية كل بر وفاجر بهذا الحديث ، وفيه بقاء الإسلام والمجاهدين الذابين إلى يوم القيامة (٣) .

وقال النووي : وفى هذه الأحاديث – أي التي ذكرها الإمام مسلم في فضل الخيل – استحباب رباط الخيل واقتنائها للغزو وقتال أعداء الله وأن فضلها وخيرها والجهاد باق إلى يوم القيامة (٤) .

ويقول الحافظ ابن حجر : وفى الحديث : الترغيب في الغزو على الخيل ، وفيه

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجهاد / باب : الجهاد ماض مع البر والفاجر ٢١٥/٣ ، ٢١٦ ، ومسلم في الإمارة / باب : الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ١٤٩٢/٣ ح ١٨٧٣ .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥٧/٥ ، ٥٨ .

(٣) إكمال المعلم ٢٨٨/٦ بتصرف .

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٦/١٣ .

أيضاً : بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة ، لأن من لازم الجهاد بقاء المجاهدين وهم المسلمون (١) .

مما سبق تبين أن الجهاد باق إلى يوم القيامة يقوم على شأنه جماعة من الناس اختصهم الله تعالى من بين عباده لحماية الدين والنفس والعرض والمال ، فهو إن فقد في نفس الغالب الأعم من الناس الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم غثاء كغثاء السيل ، إلا أنه يحيا في نفس البعض منهم حماية لدين الله تعالى .

وبهذا يتبين أيضاً أن فرض الجهاد في بداية الهجرة المباركة إلى المدينة كان من الضروري ، لإظهار شوكة الدولة الجديدة والدفاع عنها والتصدي لطواغيت الشرك قريش ومن تبعهم .

ولعلك استفدت أن الإسلام لا يبادى أحداً بعداء أبداً ، وأنه دين سلام ، وواحة أمن وأمان ، أما إذا حصل الاستهزاء والسخرية وانتهاك الحرمات ، فلابد من التصدي لكل متغطرس بكل قوة وشجاعة .

وتدرك أيضاً من خلال هذه الدراسة هدف الرسول ﷺ وأصحابه من الجهاد في سبيل الله ، وأنه كان لإعلاء كلمته ، وتدرك المقومات التي قوم بها النبي ﷺ أصحابه لكي يكون جهاداً خالصاً لوجهه الكريم .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٦٧ .

غزوات الرسول ﷺ وسراياه

- معنى الغزوة :
- معنى السرية :

معنى الغزوة :

الغَزْوَة المرّة من الغَزْو : والاسم الغَزاة . وجمع الغازي : غُزَاة وغُزَّي وغَـزِيٌّ وغُزّاءٌ كقُضاة وسُبَّق وحَجِيج وفُسَّاق . وأغْزَيْتُ فُلاناً : إذا جَهَّزْتَه للغَزْو . والمَغْـزَى والمَغْزاة : موضع الغزْو . وقد يكون الغَزْو نَفْسه (١) .

وغَزَا الشيءَ غَزْواً أرادَه وطَلَبَه ، وغَزَوت فُلاناً أغْزُوه غَزْواً والغزْوَة : ما غُزِي وطُلِبَ ، ومَغْزَى الكلام مَقْصِدُه ، وعَرفتُ ما يُغْزَى من هذا الكلام ، أي مـا يُـرادُ ، والغَزْوُ : القَصْدُ وكذلك الغَوْزُ وقد غَزاهُ وغازَهُ غَزْواً وغَوْزاً إذا قَصَدَه ، وغَزَا الأمرَ واغتَزاه كلاهما قَصَدَه ويقال : ما تَغْزو وما مَغزاك أي ما مَطْلَبُك والغَزْوُ السيرُ إلـى قتالِ العَدُوّ وانتِهابه (٢) .

ويقال لها المَغَازِي جَمْع مَغْزَى ، يُقَال غَزَا يَغْزُو غَزْوًا وَمَغْزَى وَالأَصْل غَـزْوًا وَالْوَاحِدَة غَزْوَة وَالْمِيم زَائِدَة ، وَعَنْ ثَعْلَب الْغَزْوَة الْمَرَّة وَالْغَزَاة عَمَل سَـنَة كَامِلَـة ، وَأَصْل الْغَزْو الْقَصْد ، وَمَغْزَى الْكَلَام مَقْصِده ، وَالْمُرَاد بِالْمَغَازِي هُنَا مَا وَقَعَ مِنْ قَصْد النَّبِيّ ﷺ الْكُفَّار بِنَفْسِهِ أَوْ بِجَيْش مِنْ قِبَله ، وَقَصْدهمْ أَعَمّ مِنْ أَنْ يَكُون إِلَى بِلَادهمْ أَوْ إِلَى الأَمَاكِن الَّتِي حَلُّوهَا حَتَّى دَخَلَ مِثْل أُحُد وَالْخَنْدَق (٣) .

معنى السرية :

هي طائفةٌ من الجَيش يبلغُ أقصاها أربَعمائة تُبْعث إلى العَدوّ وجمعُها السَّرَايا سَمُّوا بذلك : لأنهم يكونُون خُلاصةَ العسكر وخيارَهم من الشَّيء السَّرِيّ النَّفيس . وقيل سُمُّوا بذلك : لأنهم يَنفُذُون سرّاً وخُفْية وليس بالوجْه لأن لامَ السِّرّ رَاءٌ وهذه ياءٌ . ومعنـى ذلك أن الإمام أو أميرَ الجَيش يَبْعثُهم وهو خارجٌ إلى بلاد العدُوّ فإذا غَنِموا شيئاً كان

---

(١) النهاية في غريب الحديث . مادة : غزا.

(٢) لسان العرب . مادة : غزا .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٣٢٦ .

بَيْنَهم وبينَ الجيش عامَّة لأنهم رِدْءٌ لهم وفِئةٌ ، فأمَّا إذا بَعَثهم وهو مُقيم فإن القَاعِدين معه لا يُشارِكونَهم في المَغْنم ، فإن كانَ جعَل لهم نَفَلا من الغَنيمة لم يَشْرَكْهم غيرُهم في شيء منه على الوَجْهَين معاً (١) .

وَالسَّرِيَّة بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَكَسْرِ الرَّاء وَتَشْدِيد التَّحْتَانِيَّة هِيَ الَّتِي تَخْرُج بِاللَّيْلِ ، وَالسَّارِيَة الَّتِي تَخْرُج بِالنَّهَارِ ، وَقِيلَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأَنَّهَا تُخْفِي ذَهَابهَا . وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهَا أُخِذَتْ مِنْ السِّرّ وَلا يَصِحّ لاخْتِلاف الْمَادَّة ، وَهِيَ قِطْعَة مِنْ الْجَيْش تَخْرُج مِنْهُ وَتَعُود إِلَيْهِ ، وَهِيَ مِنْ مِائَة إِلَى خَمْسمِائَة فَمَا زَادَ عَلَى خَمْسمِائَة يُقَال لَهُ مَنْسَر بِالنُّونِ وَالْمُهْمَلَة ، فَإِنْ زَادَ عَلَى الثَّمَانمِائَة سُمِّيَ جَيْشًا ، وَمَا بَيْنهمَا يُسَمَّى هَبْطَة ، فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَة آلاف يُسَمَّى جَحْفَلاً ، فَإِنْ زَادَ فَجَيْش جَرَّار ، وَالْخَمِيس الْجَيْش الْعَظِيم ، وَمَا افْتَرَقَ مِنْ السَّرِيَّة يُسَمَّى بَعْثًا ، فَالْعَشَرَة فَمَا بَعْدهَا تُسَمَّى حَفِيرَة ، وَالأَرْبَعُونَ عُصْبَة ، وَإِلَى ثَلاثمِائَة مِقْنَب بِقَاف وَنُون ثُمَّ مُوَحَّدَة ، فَإِنْ زَادَ سُمِّيَ جَمْرَة بِالْجِيمِ ، وَالْكَتِيبَة مَا اجْتَمَعَ وَلَمْ يَنْتَشِر (٢) .

قال ابن القيم : وغَزَوَاتُهُ كُلّهَا وَبُعُوثُهُ وَسَرَايَاهُ كَانَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فِي مُدّةِ عَشْرِ سِنِينَ . فَالْغَزَوَاتُ : سَبْعٌ وَعِشْرُونَ ، وَقِيلَ : خَمْسٌ وَعِشْرُونَ ، وَقِيلَ : تِسْعٌ وَعِشْرُونَ ، وَقِيلَ : غَيْرُ ذَلِكَ ، قَاتَلَ مِنْهَا فِي تِسْعٍ : بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَالْخَنْدَقِ وَقُرَيْظَةَ وَالْمُصْطَلِقِ وَخَيْبَرَ وَالْفَتْحِ وَحُنَيْنٍ وَالطّائِفِ . وَقِيلَ : قَاتَلَ فِي بَنِي النّضِيرِ وَالْغَابَةِ وَوَادِي الْقُرَى مِنْ أَعْمَالِ خَيْبَرَ .

---

(١) النهاية في غريب الحديث . مادة سرر .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٦٥٣ .

وَأَمَّا سَرَايَاهُ وَبُعُوثُهُ فَقَرِيبٌ مِنْ سِتِّينَ (١) .
وَالْغَزَوَاتُ الْكِبَارُ الأُمَّهَاتُ سَبْعٌ : بَدْرٌ وَأُحُدٌ وَالْخَنْدَقُ وَخَيْبَرُ وَالْفَتْحُ وَحُنَيْنٌ وَتَبُوكُ .
وَفِي شَأْنِ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ نَزَلَ الْقُرْآنُ : فَسُورَةُ الأَنْفَالِ : ذكرت غزوة بَدْرٍ ، وَفِي أُحُدٍ نزل آخِرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ قَوْلِهِ : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [آلُ عِمْرَانَ ١٢١] إِلَى قُبَيْلِ آخِرِهَا بِيَسِيرٍ ، وَفِي قِصَّةِ الْخَنْدَقِ وَقُرَيْظَةَ وَخَيْبَرَ : صَدْرُ سُورَةِ الأَحْزَابِ ، وَسُورَةُ الْحَشْرِ فِي بَنِي النَّضِيرِ ، وَفِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ وَخَيْبَرَ : سُورَةُ الْفَتْحِ ، وَأُشِيرَ فِيهَا إِلَى الْفَتْحِ ، وَذُكِرَ الْفَتْحُ صَرِيحًا فِي سُورَةِ النَّصْرِ . وَجُرِحَ مِنْهَا ﷺ فِي غَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ أُحُدٌ ، وَقَاتَلَتْ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مِنْهَا فِي بَدْرٍ وَحُنَيْنٍ ، وَنَزَلَتْ الْمَلائِكَةُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَزَلْزَلَتْ الْمُشْرِكِينَ وَهَزَمَتْهُمْ وَرَمَى فِيهَا الْحَصْبَاءَ فِي وُجُوهِ الْمُشْرِكِينَ فَهَرَبُوا ، وَكَانَ الْفَتْحُ فِي غَزْوَتَيْنِ : بَدْرٍ وَحُنَيْنٍ . وَقَاتَلَ بِالْمَنْجَنِيقِ مِنْهَا فِي غَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الطَّائِفُ وَتَحَصَّنَ فِي الْخَنْدَقِ فِي وَاحِدَةٍ وَهِيَ الأَحْزَابُ أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ ﷺ (٢) .

---

(١) هذا العدد مختلف عليه فيه ، فقد حقق الصالحي الشامي هذا العدد في سبل الهدى والرشاد فقال : قال ابن إسحاق : السرايا والبعوث ثمانياً وثلاثين ، وذكرها أبو عمر في أول باب الاستيعاب سبعاً وأربعين . وذكرها محمد بن عمر ثمانياً وأربعين ، وأبو الفضل ستاً وخمسين . ونقل المسعودي عن بعضهم أنها ستون . وعلى ذلك جرى الحافظ أبو الفضل العراقي في ألفية السيرة ، وذكر فيها أن الإمام الحافظ محمد بن نصر أوصلها إلى السبعين، وان الإمام الحافظ أبا عبد الله الحاكم قال: إنه ذكر في الإكليل أنها فوق المائة. قال العراقي : ولم أجد هذا القول لأحد سواه. قال الحافظ : لعل الحاكم أراد بضم المغازي إليها. قلت والذي وقفت عليه من السرايا والبعوث لغير الزكاة يزيد على السبعين . انظر سبل الهدى والرشاد ٣/٦ بتصرف .

(٢) زاد المعاد ١/ ٣٢ ، ٣٣ بتصرف يسير .

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى :

هي غزوة بدر الكبرى ويقال لها : العظمى ، وبدر القتال ، ويوم الفرقان ، كما رواه ابن جرير وابن المنذر، وصححه الحاكم عن ابن عباس ، قال: لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل . وهي الوقعة العظيمة التي أعز الله تبارك وتعالى بها الإسلام ، ودفع الكفر وأهله ، وجمعت الآيات الكثيرة والبراهين الشهيرة ، وليحقق الله تعالى ما وعدهم من إحدى الطائفتين ، وما أخبرهم به من ميلهم إلى العير دون الجيش ، ومجئ المطر عند الالتقاء ، وكان للمسلمين نعمة وقوة ، وعلى الكفار بلاء ونقمة (١) .

وبَدْر قَرْيَة مَشْهُورَة نُسِبَتْ إِلَى : بَدْر بْن مَخْلَد بْن النَّضْر بْن كِنَانَة كَانَ نَزَلَهَا ، وَيُقَال: بَدْر بْن الْحَارِث ، وَيُقَال : بَدْر اِسْم الْبِئْر الَّتِي بِهَا ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ : لاسْتِدَارَتِهَا، أَوْ لِصَفَاءِ مَائِهَا ، فَكَانَ الْبَدْر يُرَى فِيهَا ، وَحَكَى الْوَاقِدِيّ إِنْكَار ذَلِكَ كُلّه عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ شُيُوخ بَنِي غِفَار ، وَإِنَّمَا هِيَ مَأْوَانَا وَمَنَازِلنَا وَمَا مَلَكَهَا أَحَد قَطُّ يُقَال لَهُ بَدْر ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَم عَلَيْهَا كَغَيْرِهَا مِنْ الْبِلَاد (٢) .

وكانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة في شهر رمضان في السابع عشرة على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (٣) .

وسبب هذه الغزوة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقرة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٨ .

(٢) فتح الباري ٧/٣٣٣ .

(٣) محمد ﷺ . ص : ١٦١ .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ، ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة – بدل العير – هذا الاصطدام العنيف في بدر ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة (١) .

نجاة العير :

كَانَ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ دَنَا مِنْ الْحِجَازِ يَتَحَسّسُ الأَخْبَارَ وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنْ الرّكْبَانِ تَخَوّفًا عَلَى أَمْرِ النّاسِ . حَتّى أَصَابَ خَبَرًا مِنْ بَعْضِ الرّكْبَانِ أَنّ مُحَمّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَك وَلِعِيرِك فَحَذِرَ عِنْدَ ذَلِكَ . فَاسْتَأْجَرَ : ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيّ ، فَبَعَثَهُ إلَى مَكّةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إلَى أَمْوَالِهِمْ وَيُخْبِرَهُمْ أَنّ مُحَمّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ . فَخَرَجَ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إلَى مَكّةَ ، وَهُوَ يَصْرُخُ بِبَطْنِ الْوَادِي وَاقِفًا عَلَى بَعِيرِهِ قَدْ جَدّعَ بَعِيرَهُ وَحَوّلَ رَحْلَهُ وَشَقّ قَمِيصَهُ وَهُوَ يَقُولُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اللّطِيمَةَ اللّطِيمَةَ أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمّدٌ فِي أَصْحَابِهِ لا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا ، الْغَوْثَ الْغَوْثَ (٢) .

تعبئة قريش للقتال :

تَجَهّزَ النّاسُ سِرَاعًا ، وَقَالُوا : أَيَظُنّ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْ تَكُونَ كَعِيرِ ابْنِ

---

(١) الرحيق المختوم . ص : ١٨٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٤ ، ٣٣٥ بتصرف .

الْحَضْرَمِيِّ كَلاَّ وَاللَّهِ لَيَعْلَمُنَّ غَيْرَ ذَلِكَ . فَكَانُوا بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِمَّا خَارِجٍ وَإِمَّا بَاعِثٍ مَكَانَهُ رَجُلاً . وَأَوْعَبَتْ قُرَيْشٌ ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أَشْرَافِهَا أَحَدٌ . إِلاَّ أَنَّ أَبَا لَهَبِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَخَلَّفَ وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصِيَ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَكَانَ قَدْ لاطَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ كَانَتْ لَهُ عَلَيْهِ أَفْلَسَ بِهَا ، فَاسْتَأْجَرَهُ بِهَا عَلَى أَنْ يُجْزِئَ عَنْهُ بَعْثَهُ فَخَرَجَ عَنْهُ وَتَخَلَّفَ أَبُو لَهَبٍ (١).

القوة الغاشمة :

كان الذين خرجوا من قريش نحو ١٠٠٠ منهم ٦٠٠ دارع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة ، وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد ثم أسلم ﷺ وهو الأب الخامس للإمام الشافعي ﷺ ، وكان معهم أيضا ٧٠٠ بعير . وخرجوا ومعهم القيان وهن الإماء المغنيات يضربن بالدفوف يغنين بهجاء المسلمين وهم في غاية البطر والخيلاء حين خروجهم اعتمادا على كثرة عددهم وعددهم قال تعالى : (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (الأنفال : ٤٧) وكان المطعون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً . وكان كل واحد منهم ينحر كل يوم عشرة جزر وهؤلاء الإثنا عشر هم : أبو جهل . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة . وحكيم بن حزام . والعباس بن عبد المطلب .

وأبو البختري . وزمعة بن الأسود . وأبي بن خلف . وأمية بن خلف . والنضر بن الحارث . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وفيهم أنزل الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (الأنفال : ٣٦) (٢) .

---

(١) نفسه ٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) محمد ﷺ . ص : ١٦٢ .

خروج الرسول ﷺ وأصحابه للقاء قريش :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي لَيَالٍ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي أَصْحَابِهِ يَـوْمَ الاثْنَـيْنِ لِثَمَانِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ – وَاسْتَعْمَلَ عَمْرُو بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ – وَيُقَالُ اسْـمُهُ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ أَخَا بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ ، عَلَى الصَّلاةِ بِالنَّاسِ ثُمَّ رَدَّ أَبَا لُبَابَةَ مِنْ الرَّوْحَاءِ ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ . وَدَفَعَ اللِّوَاءَ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ (١) .

عدد المسلمين وعتادهم :

كان عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ٣١٣ ، وقيل : لما عـد ﷺ أصـحابه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح . وقال : (**عدة أصحاب طالوت الذي جازوا معـه النهر**)(٢) . وخرجت معه الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه . ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب .

وتخلف ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم : ثلاثة من المهاجرين : عثمـان ابن عفان خلفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضـة ، فأقام عليها حتى ماتت . وطلحة بن عبيد الله . وسعيد بن زيد بعثهما يتجسسان خبـر العير وخرجا في طريق الشام .

وخمسة من الأنصار : أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسي خلفه على المدينة . وعاصم بن عدي العجلاني خلفه على أهل العالية . والحارث بن حاطب العمري رده من الروحاء إلى بني عوف لشيء بلغه عنهم . والحارث بن الصمة كسر بالروحاء . وخوات بن جبير كسر أيضا . وهؤلاء ثمانية لا اختلاف فيهم . وكانت الإبل سبعين يتعاقب النفر البعير . وكانت الخيل فرسين فرس للمقداد بن عمرو . وفرس لمرثد بن أبـي مرثـد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٧ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : عِدَّةِ أَصْحَابِ بَدْرٍ ٥/٥ .

الغنوي . وكان اللواء مع مصعب بن عمير . وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها : العقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار وجعل على الساقة : قيس بن أبي صعصعة الأنصاري ، فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوة عدوهم (١) .

مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في أمر قريش :

خرج الرسول ﷺ لملاقاة عير قريش ، ونجت العير بقيادة أبي سفيان ، ولكن قريشاً هالها ما حدث من المسلمين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فأرادوا من باب العزة والأنفة والغرور والكبر أن يلقنوا المسلمين درساً لا ينسوه ، ويقتدي به قبائل العرب ، وبذلك يعرفوا قدرها ومكانتها في القبائل ، ومن ناحية أخرى تمنوا القضاء على هؤلاء الفئة الرعاع - في زعمهم - وعلى هذا الرجل الذي يدعى محمداً ، وبذلك ينفذوا ما لم يستطيعوا تنفيذه في مكة من القضاء عليه وعلى دعوته رغم الخطة المحكمة التي دبرت بليل ، ولكن فشلت هذه الخطة ، فراحوا يتمنون الأماني علهم يجدوا من هذا الكرب الذي ران على قلوبهم سنين عديدة متنفساً .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلِ ابْنُ هِشَامٍ : وَاَللَّهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلَّ عَامٍ - فَنُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلاثًا ، فَنَنْحَرُ الْجُزُرَ ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ وَنَسْقِي الْخَمْرَ وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا ، فَلا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا ، فَامْضُوا (٢) .

وعزموا على قتال المسلمين ، فلم يجد الرسول ﷺ وأصحابه بداً من ذلك ، وفي هذا ما فيه على نفس المسلمين ، إذ أنهم لابد لهم من ملاقاة قريش لا محالة ، ولكن الله سبحانه مَنَّ على المسلمين بالتثبيت والطمأنينة ، وألقى النعاس عليهم ، والرعب في

(١) محمد ﷺ . ص : ١٦٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤١ .

قلوب الأعداء ، وأنزل المطر ربطاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وإليك تصوير القرآن الكريم لهذه الحالة النفسية الرهيبة التي سيطرت على المسلمين ، فقال تعـالى : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ - يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ - وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ - لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ - إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ - وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ - إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ - ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ - وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ - فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ -

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) [الأنفال : ٥ : ١٨] .

وخوف المسلمين كان من عدم تكافئ القوى ، إذ أنـه لا يوجـد تكـافئ حقيقـي بالمنظور البشري بينهما ، فقوة الشرك تفوق قوة المسلمين بالمنظور البشري المادي .

أما من المنظور الإيماني العقدي فلا يكون الحساب هكذا ، بل لابد من استنفاد أسباب النصر والأخذ بها وإليك الدليل ، إذ يقول الله في قصة طالوت وجـالوت : (فَلَمَّـا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِـيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَـالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ - وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة : ٢٤٩ ، ٢٥٠]

يقول القرطبي : الآية تحريض على القتال واستشعار للصبر وإقتداء بمن صدق ربه قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلـك بما كسبت أيدينا ! وفي البخاري : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم (١) وفيـه مسند أن النبي ﷺ قال : (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ) (٢) .

فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلـة !

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير / بَاب عَمَلٌ صَالِحٌ قَبْلَ الْقِتَالِ ٣/ ٢٠٦ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير / بَاب مَنْ اسْتَعَانَ بِالضُّـعَفَاءِ وَالصَّـالِحِينَ فِـي الْحَرْبِ من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ ٣/ ٢٢٥ .

قال الله تعالى : { اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ } [آل عمران : ٢٠٠] وقال : { وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ } [المائدة : ٢٣] وقال : { إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } [النحل : ١٢٨] وقال { وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ } [الحج : ٤٠] وقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ } [الأنفال : ٤٥] .

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم ! (١) .

وإليك هذا الملمح العظيم حيث ربط ﷺ بين عدة أصحاب طالوت ، وبين قوة المسلمين في بدر وكأن النبي ﷺ يقول للمسلمين اقتدوا بأصحاب طالوت في قلة عددهم إلا أنهم أخذوا بأسباب النصر واستعانوا بالله فهزموا عدوهم ، وفي هذا أيضاً تطمين لقلوب المسلمين أن الله ناصرهم إن شاء سبحانه .

فعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلاَّ مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَ مِائَةٍ (٢) .

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه لابد من ملاقاة جيش المشركين ، وأن هذا سيكون أول لقاء فعلى مع قريش ، أراد ﷺ أن يستوثق من الأنصار ويستشير أصحابه فيما يفعلون للقاء قريش .

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ : فَتَكَلَّمَ أَبُوبَكْرٍ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / باب : عِدَّةِ أَصْحَابِ بَدْرٍ ٥/٥ .

فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ (١) فَقَالَ : إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا (٢) الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ (٣) لَفَعَلْنَا ، قَالَ : فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا ، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ فَأَخَذُوهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَيَقُولُ : مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ ، وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ . فَقَالَ : نَعَمْ أَنَا أُخْبِرُكُمْ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ : مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ وَلَكِنْ هَذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا قَالَ هَذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ انْصَرَفَ قَالَ : (وَالَّذِي

---

(١) وقع في السير أن الذي استشاره الرسول ﷺ من الأنصار هو : سعد بن معاذ ، وأن سعد بن عبادة لم يحضر بدراً ، وأجاب العلماء على ذلك فقال الشامي الصالحي في سبل الهدى والرشاد : وهذا القول إنما يعرف عن سعد بن معاذ ، كذلك رواه ابن عقبة وابن إسحاق وابن سعد وابن عائذ وغيرهم ، والصحيح أن سعد بن عبادة لم يشهد بدراً ، فإن سعداً كان متهيئا للخروج فنهش قبل أن يخرج فأقام .وذكر الحافظ في الفتح نحوه ، ثم قال : ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين : الأولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان ، وذلك بين في رواية مسلم ، والثانية: بعد أن خرج كما في حديث ابن مسعود في الصحيح ، وحينئذ قال سعد بن معاذ ما قال . ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية وهذا أولى بالصواب . سبل الهدى والرشاد ٤/ ٨٠ .

(٢) أي الخيل .

(٣) بَرْك الْغِمَاد : أَمَّا (بَرْك) فَهُوَ بِفَتْحِ الْبَاء وَإِسْكَان الرَّاء هَذَا هُوَ الْمَعْرُوف ، وَقَالَ بَعْض أَهْل اللُّغَة : صَوَابه كَسْر الرَّاء ، وَاتَّفَقَ الْجَمِيع عَلَى أَنَّ الرَّاء سَاكِنَة إِلا مَا حكى عَنْ بعضهم أَنَّهُ ضَبَطَهُ بِإِسْكَانِهَا وَفَتْحهَا ، وَهَذَا غَرِيب ضَعِيف . وَأَمَّا (الْغِمَاد) فَبِغَيْنٍ مُعْجَمَة مَكْسُورَة وَمَضْمُومَة لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ ، لَكِنَّ الْكَسْر أَفْصَح ، وَهُوَ الْمَشْهُور فِي رِوَايَات الْمُحَدِّثِينَ ، وَالضَّمّ هُوَ الْمَشْهُور فِي كُتُب اللُّغَة ، وَهُوَ مَوْضِع مِنْ وَرَاء مَكَّة بِخَمْسِ لَيَالٍ بِنَاحِيَةِ السَّاحِل ، وَقِيلَ : بَلْدَتَانِ ، وقيل : هُوَ مَوْضِع بِأَقَاصِي هَجَر ، وَقَالَ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ : بَرْك الْغِمَاد وَسَعَفَات هَجَر كِنَايَة يُقَال فِيمَا تَبَاعَدَ . المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف

نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ) قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّــهِ ﷺ : (هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ) قَالَ : وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ (هَاهُنَا هَاهُنَا) قَالَ : فَمَا مَاطَ (١) أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : شَهِدْتُ مِنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا لأَنْ أَكُــونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْــرِكِينَ فَقَــالَ : لا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى :{اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}(٣) وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ يَعْنِي قَوْلَهُ(٤) .

وكان هذا الموقف من المقداد في غزوة بدر فقد قال ابن إسحاق : وَأَتَاهُ الْخَبَــرُ عَــنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ ، فَقَامَ أَبُــو بَكْــرٍ الصِّدِّيقُ ، فَقَالَ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ وَأَحْسَنَ ثُمَّ قَامَ الْمِقْــدَادُ بْــنُ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاَللَّهِ لا نَقُولُ لَــكَ كَمَــا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى : " اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ، إنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ " وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ فَوَاَلَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إلَى بِرْكِ الْغِمَــادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ . وَإِنَّمَا يُرِيدُ الأَنْصَارَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَــدَدُ النَّاسِ وَأَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِــلَ إلَى دِيَارِنَا ، فَإِذَا وَصَلْتَ إلَيْنَا ، فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا .

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَلاَّ تَكُونَ الأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نَصْرَهُ إلاَّ مِمَّــنْ دَهَمَــهُ

---

(١) أي تباعد .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير / باب : غزوة بدر ٣/ ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ح ١٧٧٩ .

(٣) سورة المائدة : من الآية (٢٤) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي / بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } ٥/ ٤ .

بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ بِلادِهِمْ . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَجَلْ قَالَ لَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا ، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ . لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ (١) .

مسير الرسول ﷺ إلى بدر والرباط بها :

وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ عَشِيًّا أَدْنَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بَدْرٍ ، فَقَالَ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْمَنْزِلِ فَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا عَالِمٌ بِهَا وَبِقُلُبِهَا ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ نَسِيرَ إِلَى قُلُبٍ قَدْ عَرَفْنَاهَا ، فَهِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ عَذْبَةٌ فَنَنْزِلَ عَلَيْهَا وَنَسْبِقَ الْقَوْمَ إِلَيْهَا وَنُغَوِّرَ مَا سِوَاهَا مِنَ الْمِيَاهِ . وَسَارَ الْمُشْرِكُونَ سِرَاعًا يُرِيدُونَ الْمَاءَ ، وَبَعَثَ عَلِيًّا وَسَعْدًا وَالزُّبَيْرَ إِلَى بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ فَقَدِمُوا بِعَبْدَيْنِ لِقُرَيْشٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَسَأَلَهُمَا أَصْحَابُهُ مَنْ أَنْتُمَا ؟ قَالا : نَحْنُ سُقَاةٌ لِقُرَيْشٍ ، فَكَرِهَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ وَوَدُّوا لَوْ كَانَا لِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا : أَخْبِرَانِي أَيْنَ قُرَيْشٌ ؟ قَالا : وَرَاءَ هَذَا الْكَثِيبِ . فَقَالَ كَمِ الْقَوْمُ ؟ فَقَالا : لا عِلْمَ لَنَا ، فَقَالَ كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ فَقَالا : يَوْمًا عَشْرًا ، وَيَوْمًا تِسْعًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**الْقَوْمُ مَا بَيْنَ تِسْعِمِائَةٍ إِلَى الأَلْفِ**) فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَطَرًا وَاحِدًا ، فَكَانَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَابِلاً شَدِيدًا مَنَعَهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ ، وَكَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَلاًّ ، طَهَّرَهُمْ بِهِ ، وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ، وَوَطَّأَ بِهِ الأَرْضَ ، وَصَلَّبَ بِهِ الرَّمْلَ ، وَثَبَّتَ الأَقْدَامَ ، وَمَهَّدَ بِهِ الْمَنْزِلَ ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٩ .

وَرَبَطَ بِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَسَبَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمَاءِ فَنَزَلُوا عَلَيْهِ شَطْرَ اللَّيْلِ ، وَصَنَعُوا الْحِيَاضَ ، ثُمَّ غَوَّرُوا مَا عَدَاهَا مِنَ الْمِيَاهِ ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْحِيَاضِ . وَبُنِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرِيشٌ يَكُونُ فِيهَا عَلَى تَلٍّ يُشْرِفُ عَلَى الْمَعْرَكَةِ ، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ الْمَعْرَكَةِ وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَمَا تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَ إِشَارَتِهِ ، فَلَمَّا طَلَعَ الْمُشْرِكُونَ وَتَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ جَاءَتْ بِخُيَلائِهَا وَفَخْرِهَا ، جَاءَتْ تُحَادُكَ ، وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ**) ، وَقَامَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ وَقَالَ : (**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ**) ، فَالْتَزَمَهُ الصِّدِّيقُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُنْجِزَنَّ اللَّهُ لَكَ مَا وَعَدَكَ (١) .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ : (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ**) فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ حَسْبُكَ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } (٢) .

قال الشامي الصالحي : قال الإمام الخطابي ما حاصله : لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر ﷺ كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم ، لأنه كان أول مشهد شهده ، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال ، لتسكن نفوسهم عند ذلك ، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك ، وعلم أنه استجيب له ، لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة ، فلهذا عقبه بقوله: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ) [القمر ٤٥].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : كان النبي ﷺ في مقام الخوف ،

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } ٥/ ٤ ، ٥ .

وصاحبه في مقام الرجاء ، وكلا المقامين سواء في الفضل .

قال تلميذه السهيلي: لا يريد أن النبي ﷺ والصديق سواء ، ولكن الرجاء والخوف مقامان لابد للإيمان منهما ، فأبو بكر كان في تلك الساعة في مقام الرجاء لله تعالى، والنبي ﷺ كان في مقام الخوف من الله تعالى ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء فخاف ألا يعبد الله تعالى في الأرض بعدها.

وقال قاسم بن ثابت في دلائله : إنما قال الصديق للنبي ﷺ ما قال معاونة ورقة عليه ، لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه ، فقال له: بعض هذا يا رسول الله ، أي لم تتعب نفسك هذا التعب والله تعالى قد وعدك بالنصر؟! وكان رقيق القلب شديد الإشفاق على النبي ﷺ ، وزل من لا علم عنده ممن ينسب إلى التصوف في هذا الموضع زللاً شديداً ، فلا يلتفت إليه ، ولعل الخطابي أشار إليه(١).

بدء القتال :

بَاتَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يُصَلّي إلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ هُنَاكَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ السّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ فِي السّنَةِ الثّانِيَةِ فَلَمّا أَصْبَحُوا ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كَتَائِبِهَا ، وَاصْطَفّ الْفَرِيقَانِ فَمَشَى حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فِي قُرَيْشٍ ، أَنْ يَرْجِعُوا وَلا يُقَاتِلُوا ، فَأَبَى ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُتْبَةَ كَلامٌ أَحْفَظَهُ وَأَمَرَ أَبُو جَهْلٍ أَخَا عَمْرِو بْنِ الْحَضْرَمِيّ أَنْ يَطْلُبَ دَمَ أَخِيهِ عَمْرٍو ، فَكَشَفَ عَنْ اسْتِهِ وَصَرَخَ وَاعَمْرَاه ، فَحَمِيَ الْقَوْمُ وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ وَعَدّلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الصّفُوفَ ثُمّ رَجَعَ إلَى الْعَرِيشِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ خَاصّةً ، وَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي قَوْمٍ مِنْ الأَنْصَارِ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ يَحْمُونَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ . وَخَرَجَ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ ، يَطْلُبُونَ الْمُبَارَزَةَ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ ثَلاثَةٌ مِنْ الأَنْصَارِ : عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَعَوْفٌ وَمُعَوّذٌ ابْنَا عَفْرَاءَ ، فَقَالُوا لَهُمْ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَقَالُوا : مِنْ الأَنْصَارِ . قَالُوا : أَكْفَاءٌ كِرَامٌ وَإِنّمَا نُرِيدُ بَنِي عَمّنَا ، فَبَرَزَ إلَيْهِمْ عَلِيّ

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٨١ .

وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَحَمْزَةُ ، فَقَتَلَ عَلِيٌّ قِرْنَهُ الْوَلِيدَ ، وَقَتَلَ حَمْزَةُ قِرْنَهُ عُتْبَةَ ، وَقِيلَ: شَيْبَةَ ، وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَةُ وَقِرْنُهُ ضَرْبَتَيْنِ فَكَرَّ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ عَلَى قِرْنِ عُبَيْدَةَ فَقَتَلَاهُ وَاحْتَمَلَا عُبَيْدَةَ وَقَدْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ فَلَمْ يَزَلْ ضَمِنًا حَتَّى مَاتَ بِالصَّفْرَاءِ . وَكَانَ عَلِيٌّ يُقْسِمُ بِاللَّهِ لَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيهِمْ { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } الآيَةَ [الْحَجّ : ١٩]. ثُمَّ حَمِيَ الْوَطِيسُ وَاسْتَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدُّعَاءِ وَالابْتِهَالِ وَمُنَاشَدَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَرَدَّهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ وَقَالَ: بعض مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاءَةً وَاحِدَةً وَأَخَذَ الْقَوْمَ النُّعَاسُ فِي حَالِ الْحَرْبِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ فَقَالَ : (**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ**) وَجَاءَ النَّصْرُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ جُنْدَهُ وَأَيَّدَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَمَنَحَهُمْ أَكْتَافَ الْمُشْرِكِينَ أَسْرًا وَقَتْلاً ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ(١)

حث النبي ﷺ أصحابه على القتال :

أخذ الرسول ﷺ ينظم الجيش تارة ويحث على القتال تارة أخرى ، ويشحذ الهمم المتعبة من عنت المعركة ويقوى بأسها ، ويربط جأشها .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسَيْسَةَ (٢) عَيْنًا (٣) يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ . قَالَ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ فَقَالَ : (إِنَّ

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ (بُسَيْسَة) بِبَاءٍ مُوَحَّدَةٍ مَضْمُومَةٍ ، وَبِسِينَيْنِ مُهْمَلَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ بَيْنَهُمَا يَاء مُثَنَّاة تَحت سَاكِنَة ، قَالَ الْقَاضِي : هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسَخ ، قَالَ : وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَأَصْحَاب الْحَدِيث ، قَالَ : وَالْمَعْرُوف فِي كُتُب السِّيرَة (بَسْبَس) بِبَاءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ بَيْنهمَا سِين سَاكِنَة ، وَهُوَ بَسْبَس بْن عَمْرو ، وَيُقَال : اِبْن بِشْر مِنْ الْأَنْصَار مِنْ الْخَزْرَج ، وَيُقَال : حَلِيف لَهُمْ ، قُلْت : يَجُوز أَنْ يَكُون أَحَد اللَّفْظَيْنِ اِسْمًا لَهُ وَالْآخَر لَقَبًا .

(٣) أيْ : مُتَجَسِّسًا وَرَقِيبًا .

لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا) فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ : (لاَ إِلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا) فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لاَ يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ) فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ) قَالَ : يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ؟ قَالَ : (نَعَمْ) قَالَ : بَخٍ بَخٍ (١). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ؟) قَالَ : لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا . قَالَ : (فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا) فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ(٢) فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ (٣) .

فلما أصبح صف أصحابه قبل أن تنزل قريش ، وطلعت قريش ورسول الله ﷺ يصفف أصحابه ويعدلهم كأنما يقوم بهم القدح ، ومعه يومئذ قدح يشير به إلى هذا : تقدم ، وإلى هذا: تأخر ، حتى استووا (٤) .

مدد الملائكة :

ظل النبي ﷺ يدعو ربه ويناجيه ، حتى هدأ الله سبحانه من روعه واستجاب لدعائه وأنزل عليه الملائكة معاونين للمسلمين ، ومثبتين لهم وفي ذلك يقول تعالى : {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ -

---

(١) هيَ : كَلِمَة تُطْلَق لِتَفْخِيم الأَمْر وَتَعْظِيمه فِي الْخَيْر .

(٢) هُوَ بِقَاف وَرَاء مَفْتُوحَتَيْنِ ثُمَّ نُون ، أَيْ : جُعْبَة النُّشَّاب . انظر هذه المعاني في المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٤٤ : ٤٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة / بَاب : ثُبُوت الْجَنَّة لِلشَّهِيد ٣/ ١٥١٠ ح ١٩٠١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ١٥ .

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ - إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} (١).

وقال :{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ - بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ - وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ - لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ}(٢).

استَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ اللّهَ وَاسْتَغَاثُوهُ وَأَخْلَصُوا لَهُ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللّهُ إِلَى مَلائِكَتِهِ { أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ } [الأنفال ١٢] ، وَأَوْحَى اللّهُ إِلَى رَسُولِهِ { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [الأنفال ٩] قُرِئَ بِكَسْرِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا ، فَقِيلَ الْمَعْنَى إِنَّهُمْ رِدْفٌ لَكُمْ . وَقِيلَ يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْسَالاً لَمْ يَأْتُوا دَفْعَةً وَاحِدَةً . فَإِنْ قِيلَ هَا هُنَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَمَدَّهُمْ بِأَلْفٍ وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ قَالَ { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ

---

(١) سورة الأنفال : الآيات من (٩: ١٢) .

(٢) سورة آل عمران : الآيات من (١٢٣ : ١٢٧) .

يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } [آل عمران ١٢٤] فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ؟

قِيلَ : قَدْ اُخْتُلِفَ فِي هَذَا الإِمْدَادِ الَّذِي بِثَلَاثَةِ آلافٍ وَالَّذِي بِالْخَمْسَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ :
أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكَانَ إِمْدَادًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ فَلَمَّا فَاتَ شَرْطُهُ فَاتَ الإِمْدَادُ وَهَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ .
وَالثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَقَتَادَةَ والرواية الأخرى عن عِكْرِمَةَ ، واخْتَارَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ . وَحُجَّةُ هَؤُلاءِ أَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا } [آل عمران ١٢٣ - ١٢٥] إِلَى أَنْ قَالَ : { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ } أَيْ هَذَا الإِمْدَادَ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ قَالَ هَؤُلاءِ فَلَمَّا اسْتَغَاثُوا ، أَمَدَّهُمْ بِتَمَامِ ثَلاثَةِ آلافٍ ثُمَّ أَمَدَّهُمْ بِتَمَامِ خَمْسَةِ آلافٍ لَمَّا صَبَرُوا وَاتَّقَوا ، فَكَانَ هَذَا التَّدْرِيجُ وَمُتَابَعَةُ الإِمْدَادِ أَحْسَنَ مَوْقِعًا ، وَأَقْوَى لِنُفُوسِهِمْ وَأَسَرَّ لَهَا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مُتَابَعَةِ الْوَحْيِ وَنُزُولِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .
وَقَالَتْ الْفِرْقَةُ الأُولَى : الْقِصَّةُ فِي سِيَاقِ أُحُدٍ ، وَإِنَّمَا أَدْخَلَ ذِكْرَ بَدْرٍ اعْتِرَاضًا فِي أَثْنَائِهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [آل عمران ١٢١] ثُمَّ قَالَ { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران ١٢٣] ، فَذَكَّرَهُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا نَصَرَهُمْ بِبَدْرٍ وَهُمْ أَذِلَّةٌ ثُمَّ عَادَ إِلَى قِصَّةِ أُحُدٍ ، وَأَخْبَرَ عَنْ قَوْلِ رَسُولِهِ لَهُمْ

{ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ } ثُمَّ وَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ صَبَرُوا وَاتَّقَوْا ، أَمَدَّهُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ فَهَذَا مِنْ قَوْلِ رَسُولِهِ وَالإِمْدَادُ الَّذِي بِبَدْرٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ، وَهَذَا بِخَمْسَةِ آلافٍ وَإِمْدَادُ بَدْرٍ بِأَلْفٍ وَهَذَا مُعَلَّقٌ عَلَى شَرْطٍ وَذَلِكَ مُطْلَقٌ وَالْقِصَّةُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ هِيَ قِصَّةُ أُحُدٍ مُسْتَوْفَاةٌ مُطَوَّلَةٌ وَبَدْرٌ ذُكِرَتْ فِيهَا اعْتِرَاضًا ، وَالْقِصَّةُ فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ قِصَّةُ بَدْرٍ مُسْتَوْفَاةٌ مُطَوَّلَةٌ فَالسِّيَاقُ فِي آلِ عِمْرَانَ غَيْرُ السِّيَاقِ فِي الأَنْفَالِ . يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ قَوْلَهُ { وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا } [آل عمران ١٢٥] قَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّهُ يَوْمُ أُحُدٍ ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الإِمْدَادُ الْمَذْكُورُ فِيهِ فَلا يَصِحُّ قَوْلُهُ إِنَّ الإِمْدَادَ بِهَذَا الْعَدَدِ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَإِتْيَانُهُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يَوْمَ أُحُدٍ . وَكَانَتِ الْمَلائِكَةُ يَوْمَئِذٍ تُبَادِرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَتْلِ أَعْدَائِهِمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ : أَقْدِمْ حَيْزُومَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِيًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ) وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الْمَازِنِيُّ : إِنِّي لأَتْبَعُ رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ لأَضْرِبَهُ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسِيرًا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسَرَنِي ، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : (اُسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ) وَأُسِرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثَلاثَةٌ الْعَبَّاسُ وَعَقِيلٌ وَنَوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ (١) .

وعن سيما الملائكة يوم بدر يقول ابن سعد : جاءت ريح لم يروا مثلها شدة ، ثم ذهبت فجاءت ريح أخرى ، ثم ذهبت فجاءت ريح أخرى ، فكانت الأولى جبريل ﷺ في ألف من الملائكة مع رسول الله ﷺ والثانية ميكائيل ﷺ في ألف من الملائكة عن

(١) زاد المعاد ٨٧/٢ ، ٨٩ بتصرف .

ميمنة رسول الله ﷺ والثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ وكان سيماء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر من نور، والصوف في نواصي خيلهم . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (إن الملائكة قد سومت فسوموا) ، فأعلموا بالصوف في مغافرهم وقلانسهم ، وكانت الملائكة يوم بدر على خيل بلق (١) .

مقتل أمية بن خلف :

روى ابن إسحاق بسنده عَنْ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ : كَانَ أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ لِي صَدِيقًا بِمَكّةَ وَكَانَ اسْمِي عَبْدَ عَمْرٍو ، فَتَسَمّيْت ، حِينَ أَسْلَمْتُ عَبْدَ الرّحْمَنِ وَنَحْنُ بِمَكّةَ فَكَانَ يَلْقَانِي إذْ نَحْنُ بِمَكّةَ فَيَقُولُ يَا عَبْدَ عَمْرٍو ، أَرَغِبْتَ عَنْ اسْمٍ سَمّاكَهُ أَبَوَاك ؟ فَأَقُولُ: نَعَمْ فَيَقُولُ فَإِنّي لا أَعْرِفُ الرّحْمَنَ فَاجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَك شَيْئًا أَدْعُوك بِهِ أَمّا أَنْتَ فَلا تُجِيبُنِي بِاسْمِك الأَوّلِ وَأَمّا أَنَا فَلا أَدْعُوك بِمَا لا أَعْرِفُ . قَالَ : فَكَانَ إذَا دَعَانِي : يَا عَبْدَ عَمْرٍو ، لَمْ أُجِبْهُ . قَالَ فَقُلْت لَهُ يَا أَبَا عَلِيّ اجْعَلْ مَا شِئْت ، قَالَ فَأَنْتَ عَبْدُ الإِلَهِ قَالَ فَقُلْت : نَعَمْ قَالَ : فَكُنْت إذَا مَرَرْتُ بِهِ قَالَ يَا عَبْدَ الإِلَهِ فَأُجِيبُهُ فَأَتَحَدّثُ مَعَهُ . حَتّى إذَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ مَرَرْتُ بِهِ وَهُوَ وَاقِفٌ مَعَ ابْنِهِ عَلِيّ بْنُ أُمَيّةَ آخِذٌ بِيَدِهِ وَمَعِي أَدْرَاعٌ قَدْ اسْتَلَبْتُهَا ، فَأَنَا أَحْمِلُهَا . فَلَمّا رَآنِي قَالَ لِي : يَا عَبْدَ عَمْرٍو ، فَلَمْ أُجِبْهُ فَقَالَ يَا عَبْدَ الإِلَهِ؟ فَقُلْت : نَعَمْ قَالَ هَلْ لَك فِيّ فَأَنَا خَيْرٌ لَك مِنْ هَذِهِ الأَدْرَاعِ الّتِي مَعَك ؟ قَالَ قُلْت : نَعَمْ هَا اللّهِ ذَا . قَالَ فَطَرَحْتُ الأَدْرَاعَ مِنْ يَدِي ، وَأَخَذْت بِيَدِهِ وَيَدِ ابْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ قَطّ ، أَمَا لَكُمْ حَاجَةٌ فِي اللّبَنِ ؟ قَالَ : ثُمّ خَرَجْت أَمْشِي بِهِمَا .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : يُرِيدُ بِاللّبَنِ أَنّ مَنْ أَسَرَنِي افْتَدَيْتُ مِنْهُ بِإِبِلٍ كَثِيرَةِ اللّبَنِ .

قَالَ : قَالَ لِي أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ ، وَأَنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِهِ آخِذٌ بِأَيْدِيهِمَا : يَا عَبْدَ الإِلَهِ مَنْ الرّجُلُ مِنْكُمْ الْمُعَلّمُ بِرِيشَةِ نَعَامَةٍ فِي صَدْرِهِ ؟ قَالَ قُلْت : ذَاكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، قَالَ ذَاكَ الّذِي فَعَلَ بِنَا الأَفَاعِيلَ . قَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ : فَوَاَللّهِ إنّي لأَقُودُهُمَا إذْ رَآهُ بِلالٌ مَعِي ، وَكَانَ هُوَ الّذِي يُعَذّبُ بِلالاً بِمَكّةَ عَلَى تَرْكِ الإِسْلامِ فَيُخْرِجُهُ إلَى رَمْضَاءِ مَكّةَ إذَا حَمِيَتْ

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ١٦ .

فَيُضْجِعُهُ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمّ يَأْمُرُ بِالصّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ ثُمّ يَقُولُ لا تَزَالُ هَكَذَا أَوْ تُفَارِقَ دِينَ مُحَمّدٍ فَيَقُولُ بِلالٌ أَحَدٌ أَحَدٌ . قَالَ فَلَمّا رَآهُ قَالَ رَأْسُ الْكُفْرِ أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ ، لا نَجَوْتُ إنْ نَجَا . قَالَ قُلْت : أَيْ بِلالٌ أَسِيرَيّ . قَالَ لا نَجَوْت إنْ نَجَا . قَالَ قُلْت : أَتَسْمَعُ يَا ابْنَ السّوْدَاءِ قَالَ لا نَجَوْت إنْ نَجَا . قَالَ ثُمّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا أَنْصَارَ اللّهِ رَأْسُ الْكُفْرِ أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ ، لا نَجَوْتُ إنْ نَجَا . قَالَ فَأَحَاطُوا بِنَا حَتّى جَعَلُونَا فِي مِثْلِ الْمَسَكَةِ وَأَنَا أَذُبّ عَنْهُ . قَالَ فَأَخْلَفَ رَجُلٌ السّيْفَ فَضَرَبَ رِجْلَ ابْنِهِ فَوَقَعَ وَصَاحَ أُمَيّةُ صَيْحَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطّ . قَالَ فَقُلْت : انْجُ بِنَفْسِك ، وَلا نَجَاءَ بِك فَوَاَللّهِ مَا أُغْنِي عَنْك شَيْئًا . قَالَ فَهَبَرُوهُمَا بِأَسْيَافِهِمْ حَتّى فَرَغُوا مِنْهُمَا . قَالَ فَكَانَ عَبْدُ الرّحْمَنِ يَقُولُ يَرْحَمُ اللّهُ بِلالاً ، ذَهَبَتْ أَدْرَاعِي وَفَجَعَنِي بِأَسِيرَيّ (١) .

مقتل أبي جهل :

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَلَمّا فَرَغَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ عَدُوّهِ أَمَرَ بِأَبِي جَهْلٍ أَنْ يُلْتَمَسَ فِي الْقَتْلَى . وَكَانَ أَوّلَ مَنْ لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ كَمَا حَدّثَنِي ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ ، وَعَبْدِ اللّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَيْضًا قَدْ حَدّثَنِي ذَلِكَ قَالا : قَالَ مُعَاذُ ابْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ سَمِعْتُ الْقَوْمَ وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ – قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْحَرَجَةُ الشّجَرُ الْمُلْتَفّ . وَهُمْ يَقُولُونَ : أَبُو الْحَكَمِ لا يُخْلَصُ إلَيْهِ . قَالَ فَلَمّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي ، فَصَمَدْت نَحْوَهُ فَلَمّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ فَضَرَبْته ضَرْبَةً أَطَنّتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ فَوَاَللّهِ مَا شَبّهْتهَا حِينَ طَاحَتْ إلاّ بِالنّوَاةِ تَطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا قَالَ وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي ، فَطَرَحَ يَدِي ، فَتَعَلّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي ، وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ فَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامّةَ يَوْمِي ، وَإِنّي لأَسْحَبُهَا خَلْفِي ، فَلَمّا آذَتْنِي وَضَعْتُ عَلَيْهَا قَدَمِي ، ثُمّ تَمَطّيْتُ بِهَا عَلَيْهَا حَتّى طَرَحْتُهَا . ثُمّ مَرّ بِأَبِي جَهْلٍ وَهُوَ عَقِيرٌ مُعَوّذُ بْنُ عَفْرَاءَ ، فَضَرَبَهُ حَتّى أَثْبَتَهُ فَتَرَكَهُ وَبِهِ رَمَقٌ . وَقَاتَلَ مُعَوّذٌ حَتّى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤٩ .

قُتِلَ . فَمَرّ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بِأَبِي جَهْلٍ حِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يُلْتَمَسَ فِي الْقَتْلَى ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - (انْظُرُوا ، إنْ خَفِيَ عَلَيْكُمْ فِي الْقَتْلَى ، إلَى أَثَرِ جُرْحٍ فِي رُكْبَتِهِ فَإِنّي ازْدَحَمْتُ يَوْمًا أَنَا وَهُوَ عَلَى مَأْدُبَةٍ لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ وَنَحْنُ غُلَامَانِ وَكُنْتُ أَشَفّ مِنْهُ بِيَسِيرٍ فَدَفَعْتُهُ فَوَقَعَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَجُحِشَ فِي إحْدَاهُمَا جَحْشًا لَمْ يَزَلْ أَثَرُهُ بِهِ) . قَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : فَوَجَدْته بِآخِرِ رَمَقٍ فَعَرَفْتُهُ فَوَضَعْتُ رِجْلِي عَلَى عُنُقِهِ - قَالَ وَقَدْ كَانَ ضَبَثَ بِي مَرّةً بِمَكّةَ فَآذَانِي وَلَكَزَنِي ، ثُمّ قُلْت لَهُ هَلْ أَخْزَاك اللّهُ يَا عَدُوّ اللّهِ ؟ قَالَ وَبِمَاذَا أَخْزَانِي ، أَعْمَدُ (١) مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ أَخْبِرْنِي لِمَنْ الدّائِرَةُ الْيَوْمَ ؟ قَالَ قُلْت : لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَزَعَمَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ أَنّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ قَالَ لِي : لَقَدْ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًى صَعْبًا يَا رُوَيْعِي الْغَنَمِ قَالَ ثُمّ احْتَزَزْت رَأْسَهُ ثُمّ جِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا رَأْسُ عَدُوّ اللّهِ أَبِي جَهْلٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (آللّهِ الّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ) قَالَ : وَكَانَتْ يَمِينَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَالَ : قُلْت : نَعَمْ وَاَللّهِ الّذِي لا إلَهَ غَيْرُهُ . ثُمّ أَلْقَيْتُ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللّهَ (٢) .

بشرى النصر :

لاحت في الأفق بشرى النصر لدى المسلمين ، وذلك بعد قتل عتاهية الكفر وأئمته ، وعلى رأسهم أمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، حينئذ فرح المسلمون بنصر الله وبتوفيقه لهم .

كان لنبأ الانتصار تأثير عظيم في النفوس فخاف رسول الله ﷺ كلّ عدو بالمدينة وما

---

(١) أَعْمَد بِالْمُهْمَلَةِ أَفْعَل تَفْضِيل مِنْ عَمَدَ أَيْ هَلَكَ ، يُقَال عَمَدَ الْبَعِير يَعْمَد عَمَدًا بِالتَّحْرِيكِ إِذَا وَرِمَ سَنَامه مِنْ عَضّ الْقَتَب فَهُوَ عَمِيد ، وَيُكَنَّى بِذَلِكَ عَنْ الْهَلَاك ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ يَكُون سَنَامه وَارِمًا فَيُحْمَل عَلَيْهِ الشَّيْء الثَّقِيل فَيَكْسِرهُ فَيَمُوت فِيهِ شَحْمه ، وَقِيلَ مَعْنَى أَعْمَد أَعْجَب ، وَقِيلَ : بِمَعْنَى أَغْضَب ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ هَلْ زَادَ عَلَى سَيِّد قَتَلَهُ قَوْمه . فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٣٤٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٥١ .

حولها ، وأسلم كثير من اليهود منهم : عبد الله بن أبي ، لكنه لم يكن مخلصاً في إسلامه بل ظل منافقاً . ومع انتصار المسلمين في بدر لم تنقطع معارضة اليهود ودسائسهم فكان لا بد من القضاء عليهم واستئصال شأفتهم . وقد كان المنافقون يؤذونه ﷺ إذا غاب ويتملقون له إذا حضر ، ثم أرسل رسول الله ﷺ عبد بن رواحة بشيراً لأهل العالية ، وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين (١) .

قليب بدر :

بعد قتل المشركين وبعدما تفاجت أرواحهم الخبيثة أمر ﷺ بحفر قليب لهم ليوارى خبثهم ، فأخذوا يحفرون لهم قليباً يطرحون فيه جثثهم ، لتتحقق العبرة والعظة ، فيا من كنتم تتكبرون فوق الأرض أنتم اليوم تحتها ، ويا من ظلمتم وتجبرتم وقهرتم خلق الله جاءت لحظة الحساب وما أعظمها من لحظة على القلوب الوجلة الحزينة ، فما بالك بالقلوب الغليظة المتحجرة الظالمة التي لم تعرف الرحمة في أسمى معانيها .

ما بالك بأبي جهل في قتله سمية أم عمار بن ياسر بجربة في قبلها ، أي رحمة في رأس هذا الجاهل فرعون هذه الأمة .

ثم ما بالك بأمية بن خلف الذي عذب بلالاً فكان يضع الصخرة العظيمة على صدره ، فكان يستعذبها بلالاً رغم هذا ويقول : أحد أحد .

إن هؤلاء الجهلة بهذا الدين لا يدرون معنى الرحمة ، والعجيب أن أبا جهل كان يستفتح بالنصر لنفسه من عند الله في بدر ، فكان يقول : اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَآتَانَا بِمَا لا يُعْرَفُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ . فَكَانَ هُوَ الْمُسْتَفْتِحَ (٢) .

وضعهم المسلمون في قليب بدر وطابت أنفسهم بذلك ، وتنفسوا الصعداء بعد عنت ومشقة ، كلت منها الأجساد ، وضعفت منها العقول في مجادلات ومناظرات عقيمة مع

---

(١) محمد ﷺ . ص : ١٧٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤٧ .

هؤلاء الكفرة الذين رفضوا الدعوة جملة وتفصيلاً .

ثم يأتي المشهد العجيب والمنظر الغريب المفزع الذي تقشعر له الأبدان وتوجل له القلوب وهو تكليم النبي ﷺ لهؤلاء القتلى ليقررهم أفعالهم ويعددها عليهم ، ويعلم أصحابه أنه لابد من الحساب ، ولابد من الموت للقاء الملك الديان ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

فعَنْ أَبِي طَلْحَةَ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَةِ ثَلاثَ لَيَالٍ فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلاَّ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ (١) فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ : (**يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ وَيَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟**) قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لا أَرْوَاحَ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**)

قَالَ قَتَادَةُ : أَحْيَاهُمْ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا (٢) .

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ : (**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا**) ثُمَّ قَالَ : (**إِنَّهُمْ الآنَ يَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ**) فَذُكِرَ لِعَائِشَةَ فَقَالَتْ إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّهُمْ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ ثُمَّ قَرَأَتْ { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى }حتَّى قَرَأَتْ الآيَةَ (٣) .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاثًا ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ

---

(١) أيْ : طَرَفَ الْبِئْرِ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ ٥/ ٨ ، ٩ . ومسلم في الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا / بَاب : عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنْ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلَيْهِ وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنْهُ ٤/ ٢٢٠٤ح ٢٨٧٥ .

(٣) أ أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ ٥/٩ .

فَنَادَاهُمْ فَقَالَ : (**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**) فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ : (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا**) ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ (١) .

وَفِي بَعْضِهِ نَظَرٌ ، لأَنَّ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلِيبِ لأَنَّهُ كَانَ ضَخْمًا فَانْتَفَخَ فَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالتُّرَابِ مَا غَيَّبَهُ . وَقَدْ أَخْرَجَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ . لَكِنْ يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْقَلِيبِ فَنُودِيَ فِيمَنْ نُودِيَ ، لِكَوْنِهِ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ رُؤَسَائِهِمْ ، وَمِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ مِمَّنْ يَصِحُّ إِلْحَاقُهُ بِمَنْ سُمِّيَ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، عُبَيْدَةُ وَالْعَاصُ وَالِدُ أَبِي أُحَيْحَةَ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ . وَمِنْ بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ ابْنِ نَوْفَلٍ ، وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ . وَمِنْ سَائِرِ قُرَيْشٍ نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدٍ ، وَأَخُوهُ عَقِيلٌ ، وَالْعَاصِي بْنُ هِشَامٍ أَخُو أَبِي جَهْلٍ ، وَأَبُو قَيْسِ بْنُ الْوَلِيدِ أَخُو خَالِدٍ ، وَنَبِيهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ السَّهْمِيِّ ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ عَمُّ طَلْحَةَ أَحَدِ الْعَشَرَةِ ، وَمَسْعُودُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَخُو أُمِّ سَلَمَةَ ، وَقَيْسُ ابْنُ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَالأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ أَخُو أَبِي سَلَمَةَ ، وَأَبُو الْعَاصِ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ السَّهْمِيِّ ، وَأُمَيْمَةُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ أَبِي رِفَاعَةَ ، فَهَؤُلاءِ الْعِشْرُونَ تَنْضَمُّ إِلَى الأَرْبَعَةِ فَتَكْمُلُ الْعِدَّةُ . وَمِنْ جُمْلَةِ مُخَاطَبَتِهِمْ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ " حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ كُنْتُمْ ، كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ ثُمَّ قَالَ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ ٥/ ٨ ، ٩ . ومسلم في الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا / بَاب : عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلَيْهِ وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنْهُ ٤/ ٢٢٠٣ح ٢٨٧٤ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٣٥٢ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٥٣ ، ٣٥٤.

شهداء بدر :

استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار، فيهم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وعمير بن أبي وقاص وعاقل بن أبي البُكير، ومِهجع مولى عمر بن الخطاب ، وصفوان بن بيضاء ، وسعد ابن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر، وحارثة بن سراقة ، وعوف ومعوّذ ابنا عفراء ، وعُمير بن الحُمام، ورافع بن مُعلّى ، ويزيد بن الحارث بن فُسحُم (١).

القتلى والأسرى من المشركين :

قتل من المشركين يومئذ سبعون رجلاً ، وأسر منهم سبعون رجلاً. وكان في من قتل منهم : شيبة وعتبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، والوليد بن عتبة ، والعاص بن سعيد بن العاص ، وأبو جهل بن هشام ، وأبو البختري ، وحنظلة بن أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وطعيمة بن عدي ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، ونوفل بن خويلد ، وهو بن العدوية ، والنضر بن الحارث قتله صبراً بالأثيل، وعقبة بن أبي معيط قتله صبرا بالصفراء ، والعاص بن هشام بن المغيرة خال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمية بن خلف ، وعلي بن أمية بن خلف ، ومنبه ابن الحجاج ، ومعبد بن وهب.

وكان في الأسارى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب ، وأبو العاص بن الربيع ، وعدي بن الخيار، وأبو عزيز بن عمير، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وعبد الله بن أبي بن خلف ، وأبو عزة عمرو بن
عبد الله الجمحي الشاعر، ووهب بن عمير بن وهب الجمحي ، وأبو وداعة بن ضبيرة السهمي ، وسهيل بن عمرو العامري (٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ١٨ .

(٢) نفسه .

أسرى بدر والخلاف فيهم :

كان فداء الأسرى أربعة آلاف إلى ما دون ذلك . فكان يفادي بهم على قدر أموالهم . وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه . فكان زيد بن ثابت ممن علم وكان من بين الأسرى العباس عم النبي ﷺ وصنو أبيه ويكنى أبا الفضل بابنه الفضل . وكان أسن من رسول الله بسنتين . وقيل بثلاث سنين . وكان في الجاهلية رئيساً في قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية . خرج مع المشركين يوم بدر فأسر وشد وثاقه فسهر النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم . فقال له بعض أصحابه : ما يسهرك يا نبي الله ؟ فقال أسهر لأنين العباس فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال له رسول الله ﷺ : مالي لا أسمع أنين العباس . فقال الرجل أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله ﷺ : فافعل ذلك بالأسرى كلهم . فقال له رسول الله ﷺ : افد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية . فقال للنبي ﷺ : تركتني فقير قريش ما بقيت . فقال له رسول الله ﷺ : فأين المال الذي دفعته لأم الفضل ، وقلت لها إن أصبت فهذا لبني : الفضل وعبد الله وقثم ؟ فقال : والله إني أشهد أنك رسول الله إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله .

وفي رواية : قال للنبي ﷺ : لقد تركتني فقيراً ما بقيت . فقال له : كيف تكون فقير قريش وقد استودعت بنادق الذهب أم الفضل وقلت لها إن قتلت فقد تركته غنية ما بقيت . فقال أشهد أن الذي تقوله قد كان وما اطلع عليه إلا الله . ونطق بالشهادة بحضرة رسول الله ﷺ .

وقد قيل إن العباس كان قد أسلم . وكان يكتم إسلامه . فقد جاء في بعض الروايات أن العباس ﷺ قال : علام يؤخذ منا الفداء وكنا مسلمين ؟ وفي رواية وكنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني . فقال النبي ﷺ : اعلم بما تقول فإن يك حقاً فإن الله يجزيك . ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . وقد أنزل الله في العباس ﷺ : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل

لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[الأنفال : ٧٠] وعند نزول هذه الآية قال العباس للنبي ﷺ وددت أنك كنت أخذت مني أضعاف ما أخذت . وقد صدق الله وعده له فأعطاه الله مالاً عظيماً حتى كان عنده مائة عبد في يد كل عبد مال يتاجر فيه . وبلغ ما دفعته قريش فداء للأسرى أكثر من (٢٠ر٠٠٠) درهم

وكان الأسرى : النضر بن الحارث العبدري وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ . وكان يقول في القرآن أنه أساطير الأولين . ويقول لو شئنا لقلنا مثل هذا وغير ذلك من الأقاويل . فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضرب عنقه . فلما بلغ الخبر أخته قتيلة وقيل إنما هي بنته ورثته بأبيات ثم أسلمت .

وكان من الأسرى أيضاً عقبة بن أبي معيط بن ذكوان المكنى بأبي عمرو بن أمية بن عبد شمس . وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ومن المستهزئين به . جاء عن ابن عباس أن عقبة لما قدم للقتل نادى يا معشر قريش ما لي أقتل بينكم صبراً ؟ فقال له النبي ﷺ بكفرك واجترائك على الله ورسوله . وعقبة هذا هو الذي وضع سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد

فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط هما الأسيران اللذان أمر ﷺ بقتلهما أما سائر الأسرى فقد استشار رسول الله ﷺ في أمرهم ، فاستشار أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم فيما هو الأصح من الأمرين القتل أو أخذ الفداء .

قال أبو بكر يا رسول الله . أهلك وقومك وفي رواية هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونون لنا عضداً .

وقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ما أرى ما رأى أبو بكر . ولكني أرى أن تمكنني من (فلان) قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس أخيه فيضرب عنقه ، حتى يُعلم أنه

ليس في قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم . هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فأعرض عنه رسول الله ﷺ .

وقال سعد بن معاذ : الإثخان في القتل أحب إليّ من إبقاء الرجال .

أما علي ﷺ فلم يذكر عنه جواب مع أنه أحد الثلاثة المستشارين . قال العلامة الزرقاني : لأنه لما رأى تغير المصطفى ﷺ حين اختلف الشيخان لم يجب أو لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها .

وكان رأي عبد الله بن رواحة إحراقهم في واد كثير الحطب .

لكن رسول الله أخذ برأي أبي بكر ﷺ . وقال لا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق . وأنزل الله تعالى : {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[الأنفال : ٦٧ : ٦٩] فبكى النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ . وقال رسول الله ﷺ : إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب . ولم يقل : ابن رواحة لأنه أشار بإضرام النار وليس بشرع

وهذه الآية لرأي عمر ﷺ . وهذا من المواضع التي جاء القرآن فيها موافقاً لقول عمر ﷺ وهي كثيرة .

ولما استقر الأمر على الفداء فرق رسول الله ﷺ الأسرى في أصحابه . وكان أول أسير فدى أبو وداعة الحارث . فداه ابنه المطلب (وكان كيساً تاجراً) بأربعة آلاف درهم ثم أسلم وقد عده بعضهم من الصحابة . وعند ذلك بعثت قريش في فداء الأسارى . وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم ، وكان من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف . ومن لم يكن معه فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة فإذا تعلموا كان ذلك فداءه .

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع فإنه أسلم بعد ذلك وهو زوج زينب بنت النبي ﷺ ورضي عنها . وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها . ولم يكن في ذلك الوقت تزوُّج الكافر بالمسلمة محرماً وإنما حرم ذلك بعد لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج .

وقدمت زينب المدينة بعد شهر من بدر . وقد جاء بها زيد بن حارثة بأمر رسول الله ﷺ ثم أسلم زوجها وهاجر وردها إليه ﷺ بغير عقد بل بالنكاح الأول . وقيل عقد عليها عقداً آخر وولدت له (أمامة) التي كان يحملها ﷺ على ظهره وهو يصلي . ثم لما كبرت تزوجها عليّ ﷺ بعد خالتها فاطمة رضي الله عنها بوصية من فاطمة لعلي بذلك ومن رسول الله ﷺ على نفر من الأسرى بغير فداء منهم أبو عزة عمرو الجمحي الشاعر . وقد كان يؤذي النبي ﷺ والمسلمين بشعره . فقال : يا رسول الله : إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فأمنن عليّ ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأطلقه وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر عليه أحداً . ولما وصل إلى مكة قال : سحرت محمداً ورجع لما كان عليه من الإيذاء بشعره ، ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره ، فأسر ، فأمر النبي ﷺ بضرب عنقه . فقال : اعتقني وأطلقني فإني تائب . فقال ﷺ " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين " فضربت عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وأنزل الله فيه {وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ٧١] (١) .

رجوع النبي ﷺ إلى المدينة :

ارْتَحَلَ ﷺ مُؤَيّدًا مَنْصُورًا ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِنَصْرِ اللّهِ لَهُ وَمَعَهُ الأَسَارَى وَالْمَغَانِمُ فَلَمّا كَانَ بِالصّفْرَاءِ ، قَسَمَ الْغَنَائِمَ . وَدَخَلَ النّبِيّ ﷺ الْمَدِينَةَ مُؤَيّدًا مُظَفّرًا مَنْصُورًا قَدْ خَافَهُ كُلّ عَدُوّ لَهُ بِالْمَدِينَةِ وَحَوْلَهَا ، فَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَحِينَئِذٍ دَخَلَ عَبْدُ اللّهِ

(١) محمد ﷺ . ص : ١٧١ : ١٧٥ بتصرف .

ابْنُ أُبَيٍّ الْمُنَافِقُ وَأَصْحَابُهُ فِي الإِسْلامِ ظَاهِرًا ، وَفَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَأْنِ بَدْرٍ وَالأُسَارَى فِي شَوَّالٍ (١) .

غنائم بدر :

ارتحل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة وهو مؤيد منصور، قرير العين بنصر الله تعالى ، ومعه الأسارى من المشركين ، ومعه النفل الذي أصيب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية يقال له : سير - إلى سرحة به ، فقسم هناك النفل الذي أفاءه الله على المسلمين من المشركين على السواء ، وقيل : بل استعمل عليها خباب بن الأرت، وكان فيها مائة وخمسون من الإبل ومتاع وأنطاع وثياب وأدم كثير، حمله المشركون للتجارة ، فغنمه المسلمون ، وكانت الخيل التي غنمها عشرة أفراس ، وأصابوا سلاحاً كثيراً ، وجمل أبي جهل ، فصار للنبي ﷺ فلم يزل عنده يضرب في إبله ويغزو عليه ، حتى ساقه في هدي الحديبية.

وكان يعطي من قتل قتيلاً سلبه ، وأمر بما وجد في العسكر وما أخذوا بغير قتال فقسمه بينهم .

وكانت السهام على ثلاثمائة وسبعة عشر سهماً ، والرجال ثلاثمائة وثلاثة عشر، والخيل فرسان لهما أربعة أسهم .

وثمانية نفر لم يحضروا القتال ، ضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين ، وهم عثمان بن عفان - خلفه رسول الله ﷺ على ابنته رقية فماتت يوم قدوم زيد بن حارثة ، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد ، بعثهما رسول الله ﷺ يتحسسان خبر العير، ومن الأنصار أبو لبابة بن عبد المنذر، خلفه على المدينة، وعاصم بن عدي خلفه على أهل قباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف ، وخوات بن جبير كسر بالروحاء ، والحارث بن الصمة كسر بالروحاء أيضاً.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٠ بتصرف يسير .

وروي أنه ضرب لسعد بن عبادة وسعد بن مالك الساعدي ، ورجلين آخرين من الأنصار بسهامهم وأجورهم.

وضرب لأربعة عشر رجلاً قتلوا ببدر، وأحذى مماليك حضروا بدراً ولم يقسم لهم(١).

على الصعيد الآخر :

وصل نبأ الهزيمة إلى أهل مكة قبل أن يصل الجيش المنهزم ، ووصل نعى الصناديد ، وعلا العويل والنباح في آفاق مكة ، وضجت بالبكاء ولطم الخدود وشق الجيوب وحلق الشعر إلى آخر هذه الأفعال المعبرة عن الحزن العميق الذي ترك في النفس جرحاً عميقاً لن يمحى إلا بالثأر للكرامة ، والانتقام السريع العاجل الذي يعيد لقريش هيبتها وعزها ومجدها كما كانت أو أشد .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَ أَوّلُ مَنْ قَدِمَ مَكّةَ بِمُصَابِ قُرَيْشٍ : الْحَيْسُمَانَ بْنُ عَبْدِ اللّهِ الْخُزَاعِيّ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَك ؟ قَالَ قُتِلَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو الْحَكَمِ بْنُ هِشَامٍ وَأُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ ، وَزَمَعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ ، وَنُبَيّهٌ وَمُنَبّهٌ ابْنَا الْحَجّاجِ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيّ بْنُ هِشَامٍ فَلَمّا جَعَلَ يُعَدّدُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ ، قَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ ، وَهُوَ قَاعِدٌ فِي الْحِجْرِ : وَاَللّهِ إنْ يَعْقِلُ هَذَا فَاسْأَلُوهُ عَنّي ؛ فَقَالُوا : وَمَا فَعَلَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ ؟ قَالَ هَا هُوَ ذَاكَ جَالِسًا فِي الْحِجْرِ ، وَقَدْ وَاَللّهِ رَأَيْتُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ حِينَ قُتِلا (٢) .

وعَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : كُنْتُ غُلامًا لِلْعَبَّاسِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكُنْتُ قَدْ أَسْلَمْتُ ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ ، وَأَسْلَمَ الْعَبَّاسُ ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلامَهُ مَخَافَةَ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصَ بن هِشَامٍ ، وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ ، فَقَالَ لَهُ : اكْفِنِي هَذَا الْغَزْوَ ، وَأَتْرُكُ لَكَ مَا عَلَيْكَ ، فَفَعَلَ ، فَلَمَّا جَاءَ الْخَبَرُ ، وَكَبَتَ اللَّهُ أَبَا لَهَبٍ ، وَكُنْتُ رَجُلا ضَعِيفًا أَنْحِتُ هَذِهِ الأَقْدَاحَ فِي حُجْرَةٍ ، وَمَرَّ بِي ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَجَالِسٌ فِي الْحُجْرَةِ أَنْحِتُ أَقْدَاحِي وَعِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ ، إِذِ الْفَاسِقُ أَبُو لَهَبٍ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ أُرَاهُ ، قَالَ : حَتَّى جَلَسَ عِنْدَ طُنُبِ الْحُجْرَةِ ، فَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِي ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٦٢ بتصرف .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٥٩ .

فَقَالَ النَّاسُ : هَذَا أَبُو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ أَخِي ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى جَلَسَ عِنْدَهُ ، فَجَاءَ النَّاسُ ، فَقَامُوا عَلَيْهِمَا ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : لا شَيْءَ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ لَقِينَاهُمْ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا وَايْمُ اللَّهِ ، لَمَا لُمْتُ النَّاسَ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ ، فَقَالَ : رَأَيْتُ رِجَالا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ لا وَاللَّهِ مَا تَلِيقُ شَيْئًا وَلا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَرَفَعْتُ طُنُبَ الْحُجْرَةِ ، فَقُلْتُ : تِلْكَ وَاللَّهِ الْمَلائِكَةُ ، فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَلَطَمَ وَجْهِي ، وَثَاوَرْتُهُ فَاحْتَمَلَنِي ، فَضَرَبَ بِيَ الأَرْضَ حَتَّى نَزَلَ عَلَيَّ ، فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ فَاحْتَجَزَتْ، فَأَخَذَتْ عَمُودًا مِنْ عُمُدِ الْحُجْرَةِ فَضَرَبَتْهُ بِهِ ، فَفَلَقَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً ، وَقَالَتْ : أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ، أَسْتَضْعَفْتَهُ إِنْ رَأَيْتَ سَيِّدَهُ غَائِبًا عَنْهُ ؟ فَقَامَ ذَلِيلا ، فَوَاللَّهِ مَا عَاشَ إِلا سَبْعَ لَيَالٍ حَتَّى ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ ، فَقَتَلَتْهُ ، فَلَقَدْ تَرَكَهُ ابْنَاهُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً مَا يَدْفِنَاهُ حَتَّى أَنْتَنَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لابْنَيْهِ : أَلا تَسْتَحِيَانِ ، إِنَّ أَبَاكُمَا قَدْ أَنْتَنَ فِي بَيْتِهِ ؟ فَقَالا : إِنَّا نَخْشَى هَذِهِ الْقَرْحَةَ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يَتَّقُونَ الْعَدَسَةَ كَمَا يُتَّقَى الطَّاعُونُ ، فَقَالَ رَجُلٌ : انْطَلِقَا فَأَنَا مَعَكُمَا ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا غَسَّلُوهُ إِلا قَذْفًا بِالْمَاءِ عَلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ ، ثُمَّ احْتَمَلُوهُ فَقَذَفُوهُ فِي أَعْلَى مَكَّةَ إِلَى جِدَارٍ ، وَقَذَفُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ (١) .

ولما تحققت قريش خبر الهزيمة وما أصابهم من قتل وأسر ناحت على قتلاها شهراً وجز النساء شعورهن . ثم اتفقوا على عدم الاسترسال في الجزع لئلا يشمت بهم المسلمون وتواصوا على الأخذ بالثأر (٢) .

---

(١) أخرجه الحاكم والطبراني والبزار ، أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٦٣ ح ٥٤٠٣ وسكت عنه ، وكذلك الذهبي في التلخيص ، وفي ٣/ ٣٦٥ ح ٥٤٠٦ وسكت عنه أيضاً وقال الذهبي في التلخيص : حسين بن عبد الله بن عبيد الله واه ، والطبراني في الكبير ١/ ٣٠٨ ح ٩١٢ ، والبزار في البحر الزخار ٢٢٩/٩ ح ٣٢٨٨ جميعهم من طريق حسين بن عبد الله بن عبيد الله وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١١٩ح ١٠٠١٤ رواه الطبراني والبزار وفي إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات .

(٢) محمد ﷺ . ص : ١٧٦ .

أسباب النصر في بدر :

ليست موقعة بدر من الوقائع الكبيرة من حيث عدد جيوش المتحاربين واستعدادهم الحربي ، فإن عدد المسلمين كان نحو ٣١٣ يقابلهم نحو ألف من أهل مكة ، ولكنها وقعة مهمة لأنها كانت بمثابة الحجر الأساسي في انتصار الرسول في الوقائع المقبلة ، وهي بدء تحوّل خطير في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم .

في هذه الوقعة انهزم أهل مكة وظهر ضعفهم في القتال على كثرة عددهم وفرسانهم وقد أبدى بعض المؤرخين استغرابه لما أصاب أعداء المسلمين من الفشل مع أنهم كانوا أكثر منهم عدداً ، وكان معهم مائة فرس وسبعمائة بعير ومع ذلك لم يكتسحوهم أمامهم بفرسانهم وركبانهم ، بل ولوا هاربين . والظاهر أن المسلمين كانوا أحسن نظاماً فقد عدل صفوفهم النبي ﷺ وخطب فيهم مستنهضاً هممهم ، وكان يشرف على الوقعة من ذلك العريش العالي ، ويصدر الأوامر ، فكان قائداً عاماً ، ولم يصدر من أصحابه أية مخالفة لأوامره ، أما أبو سفيان فلم يكن قائداً ماهراً ، وقد ساعد بناء الحوض وتوفر المياه على النصر . والقرآن الكريم والأحاديث النبوية تنص صراحة على أن الله سبحانه وتعالى أمد نبيه بمدد باطني فحاربت الملائكة مع المسلمين ونصروهم على أعدائهم ، وقد رآهم بعض الصحابة وبعض أهل مكة في ميدان القتال وذكروهم بسيماهم . فقيل كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً وكان الزبير بن العوام متعمماً بعمامة صفراء فقال ﷺ نزلت الملائكة – أي بعضهم – بسيما أبي عبد الله ، يعني الزبير . وكانت خيل الملائكة بلقاً مسومة – مزينة – وعن علي ﷺ قال هبت ريح شديدة يوم بدر ما رأيت مثلها قط ثم جاءت أخرى كذلك ثم جاءت أخرى كذلك ، فنزل في الأولى جبريل في ألف من الملائكة أمام النبي ﷺ ونزل في الثانية ميكائيل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ونزل في الثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ . هذا وقد جيء بالعباس يوم بدر أسره أبو اليسر وكان مجموعاً وكان العباس جسيماً فقيل

لأبي اليسر كيف أسرته ؟ قال أعانني عليه رجل ما رأيته من قبل ذلك بهيئته كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم .

وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه قد رأيت جبريل وعلى ثناياه النقع . فقال رجل من بني غفار أقبلت أنا وابن عم لي فصعدنا جبلاً يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة فننتهب فدنت منا سحابة فسمعت فيها حمحمة الخيل وسمعت قائلاً يقول أقدم حيزوم . قال فأما ابن عمي فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك فتماسكت . وقال أبو داود المازني إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعرفت أنه قتله غيري . وقال سهل بن حنيف كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف ، فكيف بعد هذا كله نكذب إمداد الله رسوله بالملائكة في وقعة بدر !! . إن الله قد اختص نبيه بمعجزات وهذه إحداها ولا سبيل لإنكارها وإن أنكرها المستشرقون الذين كتبوا سيرة النبي ﷺ فقد وردت في القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة .

وروى الصحابة رضي الله عنهم الذين شهدوا بدراً أنهم رأوا الملائكة بسيماهم وهم يحاربون . قال حويطب بن عبد العزى شهدت بدراً مع المشركين فرأيت عبراً رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض ولم أذكر ذلك لأحد .

ومن أسباب انتصار المسلمين قوة العقيدة فإن لها تأثيراً عظيماً في الحروب فشتان بين من يحارب بعقيدة راسخة لينصر الله ورسوله ، فإن قتل فاز بنعمة الشهادة ، وتنعم في دار الخلد ، وبين من يحارب وهو لا يشعر بقوة العقيدة التي تدفع خصمه إلى القتال من غير مبالاة . فالمسلمون كانوا يتوقون إلى الموت في سبيل الله . فمن ذلك أن رسول الله ﷺ خرج من العريش يوم بدر وهو يقول {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} وحرض المسلمين وقال " والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة " فقال عمير بن الحمام الأنصاري وبيده تمرات يأكلهن بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل .

ويؤكد سير وليام موير Sir William Muir أن الخوف الذي كان مستولياً على أهل مكة من إراقة دماء أقاربهم مع ما يقابل ذلك من رغبة المسلمين في القتال كان هو العامل المهم في انتصار المسلمين في وقعة بدر (١) .

أثر النصر في بدر :

كان النصر في حرب بدر بعيد الأثر في حياة المنتصرين ومستقبلهم لأنه ثبت وجودهم وأكد قدرتهم وكفاءتهم ، وارتفعت به روحهم المعنوية ، وضمنوا لأنفسهم بسببه الحياة المقبولة رغم العداوات المحيطة بهم ، وجاءهم به الأمل الكبير في النصر على أعدائهم في النهاية ، وأدرك المتشككون من خصومهم أن المستقبل قد يكون في جانبهم ، ثم كسبوا مغانم مالية كانت عوناً لفقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وعاشوا معوزين بين إخوانهم الأنصار في الوطن الجديد .

وكان لانتصار المسلمين في الحرب الأولى أهمية قصوى في تاريخ دعوة الإسلام لأنه منحهم الأمل في المستقبل ، وأشعرهم بأنهم محاطون برعاية الله القوية ، وبأن هناك قوات مستورة تؤيدهم وتحارب معهم ، فازدادوا إيماناً بدعوتهم وحماساً لنصرتها.

وبعد هذا النصر أدرك أعداء المسلمين أن أمامهم في الجانب الآخر قوة مؤمنة تستطيع أن تقف ضدهم في الحرب الصريحة ، وتستطيع أن تهزمهم ، وأن تنتصر عليهم (٢).

شُده العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه صعق نفر منهم فهلك لتوه . وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل .

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها . استبعد مشركو

---

(١) محمد ﷺ . ص : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) عصر الرسالة . ص : ٣٣٠ .

المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاد ، فسقط في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذي مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطووا على أنفسهم يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم ، ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن في دينه ، فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفي به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .

ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر ، أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى (١) .

إلا أن هذا الحزن لم يذب بل أخذوا يتربصون بالمسلمين ، ويرقبون تحركاتهم ، علهم ما يجدون ما يشفى غلتهم ، ويريح نفوسهم بعد هذه الهزيمة المنكرة في بدر .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةً عَيْنًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو لِحْيَانَ ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ ، فَقَالُوا : تَمْرُ يَثْرِبَ ، فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى مَوْضِعٍ ، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَقَالُوا : لَهُمْ انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا . فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ : أَيُّهَا الْقَوْمُ أَمَّا أَنَا فَلا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ . ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا

---

(١) فقه السيرة للغزالي . ص : ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

نَبِيَّكَ ﷺ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةُ نَفَرٍ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ : خُبَيْبٌ ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ، وَرَجُلٌ آخَرُ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا ، قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ وَاللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي بِهَؤُلاءِ أُسْوَةً – يُرِيدُ الْقَتْلَى – فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ ، فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ ، فَانْطُلِقَ بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ خُبَيْبًا ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا ، فَأَعَارَتْهُ ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ ، قَالَتْ : فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ ، فَقَالَ : أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ . قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ : دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ . ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا وَلا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا *** عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ *** يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سِرْوَعَةَ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاةَ ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ .وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ ابْنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ فَبَعَثَ اللَّهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير / بَاب : هَلْ يَسْتَأْسِرُ الرَّجُلُ وَمَنْ لَمْ يَسْتَأْسِرْ وَمَنْ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ ٤/ ٢٨ ، ٢٩ ، وفي المغازي / بَاب : فَضْلُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا٥/١١ ، ١٢ ، وفي المغازي ، بَاب : غَزْوَةِ الرَّجِيعِ ٥/ ٤٠ ، ٤١ ، وفي التوحيد / بَاب : مَا يُذْكَرُ فِي الذَّاتِ وَالنُّعُوتِ وَأَسَامِي اللَّهِ ٨/ ١٧٠ ، ١٧١ .

وقد حدث ذلك في غزوة الرجيع ، وَالرَّجِيعِ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِ الْجِيمِ هُوَ فِي الْأَصْلِ اِسْم لِلرَّوْثِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لاسْتِحَالَتِهِ . وَالْمُرَادُ هُنَا اِسْم مَوْضِع مِنْ بِلَاد هُذَيْل كَانَتْ الْوَقْعَة بِقُرْبٍ مِنْهُ فَسُمِّيَتْ بِهِ (١) .

والملاحظ من هذه الغزوة وباقي الغزوات أنها انتقام لما حدث من هزيمة للمشركين في بدر ، وإن كانت هذه الغزوة بعد أحد كما ذكر في الصحيح ، إلا أن حقدهم لم يذب ، وفكرة الثأر ملتهبة في قلوبهم ، وذلك كما سيأتي إن شاء الله في غزوة أحد وغيرها .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٤٣٨ .

غزوة أحد

غزوة أحد :

وَأُحُدٌ بضم الهمزة والمهملة جبل معروف مشهور بالمدينة في شمالها بينه وبين المدينة ثلاثة أميال . وهو الذي قال فيه ﷺ : " جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " (١).

وكانت فِي شَوَّال سَنَةَ ثَلاث بِاتِّفَاقِ الْجُمْهُورِ ، وَشَذَّ مَنْ قَالَ سَنَة أَرْبَع . قَالَ ابْن إِسْحَاق : لإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَة خَلَتْ مِنْهُ وَقِيلَ : لِسَبْعِ لَيَالٍ وَقِيلَ : لِثَمَانٍ وَقِيلَ : لِتِسْعٍ وَقِيلَ : فِي نِصْفه ، وَقَالَ مَالِكٌ : كَانَتْ بَعْدَ بَدْر بِسَنَة ، وَفِيهِ تَجَوُّزٌ لأَنَّ بَدْرًا كَانَتْ فِي رَمَضَانَ بِاتِّفَاقٍ فَهِيَ بَعْدَهَا بِسَنَةٍ وَشَهْرٍ لَمْ يَكْمُلْ ، وَلِهَذَا قَالَ مَرَّة أُخْرَى : كَانَتْ بَعْدَ الْهِجْرَة بِأَحَدٍ وَثَلاثِينَ شَهْرًا (٢) .

سبب الغزوة :

وسبب هذه الغزوة كما قال ابن إسحاق : لَمَّا أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَصْحَابِ الْقَلِيبِ ، وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِعِيرِهِ مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ فَلَعَلَّنَا نُدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرَنَا بِمَنْ أَصَابَ مِنَّا ، فَفَعَلُوا . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَفِيهِمْ كَمَا ذَكَرَ لِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٤٠١ ، ومحمد ﷺ . ص : ١٨٩ ، والحديث أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجهاد والسير / بَاب : فَضْلِ الْخِدْمَةِ فِي الْغَزْوِ ٣/ ٢٢٣ ، ومسلم في الحج / بَاب : فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ ٢/٩٩٣ ح ١٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق ٧/ ٤٠١ .

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ }[الأنفال :٣٦] (١) .

وقال ابن سعد : لما رجع من حضر بدراً من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة ، فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا: نحن طيبو أنفس إن تجهزوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمد ، فقال أبو سفيان: وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فباعوها فصارت ذهباً فكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً (٢) .

اجتماع قريش لقتال المسلمين :

اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَأَصْحَابُ الْعِيرِ بِأَحَابِيشِهَا ، وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ قَبَائِلِ كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ . وَكَانَ أَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجُمَحِيّ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ وَحَاجَةٍ وَكَانَ فِي الْأُسَارَى فَقَالَ : إنّي فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ وَحَاجَةٍ قَدْ عَرَفْتَهَا فَامْنُنْ عَلَيّ ﷺ. فَمَنّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ : يَا أَبَا عَزّةَ إنّك امْرُؤٌ شَاعِرٌ ، فَأَعِنّا بِلِسَانِك ، فَاخْرُجْ مَعَنَا ، فَقَالَ : إنّ مُحَمّدًا قَدْ مَنّ عَلَيّ فَلَا أُرِيدُ أَنْ أُظَاهِرَ عَلَيْهِ قَالَ : بَلَى فَأَعِنّا بِنَفْسِك ، فَلَك اللّهُ عَلَيّ إنْ رَجَعْتَ أَنْ أُغْنِيَك ، وَإِنْ أُصِبْتَ أَنْ أَجْعَلَ بَنَاتِك مَعَ بَنَاتِي ، يُصِيبُهُنّ مَا أَصَابَهُنّ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ . فَخَرَجَ أَبُو عَزّةَ فِي تِهَامَةَ ، وَيَدْعُو بَنِي كِنَانَةَ وَيَقُولُ :

إيهًا بَنِي عَبْدِ مَنَاةَ الرّزّامِ ... أَنْتُمْ حُمَاةٌ وَأَبُوكُمْ حَامْ

لَا تَعِدُونِي نَصْرَكُمْ بَعْدَ الْعَامِ ... لَا تُسْلِمُونِي لَا يَحِلّ إسْلَامْ

وَخَرَجَ مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ إلَى بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧ .

يُحَرِّضُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

يَا مَالُ مَالُ الْحَسَبَ الْمُقَدَّمِ ... أَنْشُدُ ذَا الْقُرْبَى وَذَا التَّذَمُّمْ

مَنْ كَانَ ذَا رَحِمٍ وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ ... الْحِلْفَ وَسْطَ الْبَلَدِ الْمُحَرَّمْ

عِنْدَ حَطِيمِ الْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمْ

وَدَعَا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ غُلامًا لَهُ حَبَشِيًا يُقَالُ لَهُ : وَحْشِيٌّ ، يَقْذِفُ بِحَرْبَةٍ لَهُ قَذْفَ الْحَبَشَةِ ، قَلَّمَا يُخْطِئُ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : أُخْرُجْ مَعَ النَّاسِ فَإِنْ أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ عَمَّ مُحَمَّدٍ بِعَمِّي طُعَيْمَةَ بْنِ عَدِيٍّ ، فَأَنْتَ عَتِيقٌ (١) .

بعثوا رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فأوعبوا وتألب من كان معهم من العرب وحضروا (٢) .

فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِحَدِّهَا وَجَدِّهَا وَحَدِيدِهَا وَأَحَابِيشِهَا ، وَمَنْ تَابَعَهَا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، وَأَهْلِ تِهَامَةَ (٣) .

فأجمعوا على إخراج الظعن ، يعني النساء ، معهم ليذكرنهم قتلى بدر فيحفظنهم فيكون أحدّ لهم في القتال (٤) .

فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَهُوَ قَائِدُ النَّاسِ بِهِنْدٍ بِنْتِ عُتْبَةَ ، وَخَرَجَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ بِأُمِّ حَكِيمٍ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَخَرَجَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَخَرَجَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بِبَرْزَةَ بِنْتِ مَسْعُودِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيَّةِ وَهِيَ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ . وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِرَيْطَةَ بِنْتِ مُنَبِّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ وَهِيَ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَخَرَجَ طَلْحَةُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَأَبُو طَلْحَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بِسُلافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شَهِيدٍ الأَنْصَارِيَّةِ وَهِيَ أُمُّ بَنِي طَلْحَةَ مُسَافِعٌ وَالْجُلاسُ وَكِلابٌ قُتِلُوا يَوْمَئِذٍ هُمْ وَأَبُوهُمْ ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٤ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧ .

وَخَرَجَتْ خُنَاسُ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ الْمُضَرِّبِ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَالِكِ بْنِ حِسْلٍ مَعَ ابْنِهَا أَبِي عَزِيزِ بْنِ عُمَيْرٍ وَهِيَ أُمُّ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَخَرَجَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ عَلْقَمَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ . وَكَانَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ كُلَّمَا مَرَّتْ بِوَحْشِيٍّ أَوْ مَرَّ بِهَا ، قَالَتْ : وَيْهًا أَبَا دَسْمَةَ اشْفِ وَاسْتَشْفِ ، وَكَانَ وَحْشِيٌّ يُكَنَّى بِأَبِي دَسْمَةَ ، فَأَقْبَلُوا حَتَّى نَزَلُوا بِعَيْنَيْنِ بِجَبَلٍ بِبَطْنِ السَّبْخَةِ مِنْ قَنَاةٍ عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي ، مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ (١) .

وكتب العباس بن عبد المطلب بخبرهم كله إلى رسول الله ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ سعد بن الربيع بكتاب العباس ، وأرجف المنافقون واليهود بالمدينة ، وخرجت قريش من مكة ومعهم أبو عامر الفاسق ، وكان يسمى قبل ذلك الراهب ، في خمسين رجلاً من قومه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير ، والظعن خمس عشرة امرأة ، وشاع خبرهم ومسيرهم في الناس حتى نزلوا ذا الحليفة (٢) .

وأرادوه – أي العباس – على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ، ولم يساعدهم بشيء من المال . فجاء كتابه للنبي ﷺ وهو بقباء ، وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بني غفار ، استأجره وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك . فلما جاء الكتاب فك ختمه ورفعه لأبي بن كعب فقرأه عليه(٣).

استطلاع جيش المشركين :

بعث رسول الله ﷺ عينين له أنساً ومؤنساً ابني فضالة الظفريين ، ليلة الخميس لخمس ليال مضين من شوال ، فأتيا رسول الله ﷺ بخبرهم ، وأنهم قد خلوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعُريض حتى تركوه ليس به خضراء ، ثم بعث الحُباب بن المنذر بن الجموح إليهم أيضاً فدخل فيهم فحزرهم وجاءه بعلمهم ، وبات سعد بن معاذ

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٤ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧ .

(٣) محمد ﷺ . ص : ١٩٠ .

وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ، في عدة ليلة الجمعة ، عليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله ﷺ وحرست المدينة حتى أصبحوا (١) .

رؤيا النبي ﷺ في شأن الغزوة :

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ ، وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضًا بَقَرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمْ النَّفَرُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ بَعْدُ وَثَوَابُ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ**) (٢) .

الشرح والبيان :

ومعنى قَوْله ﷺ : (**وَرَأَيْت فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْت سَيْفًا ، فَانْقَطَعَ صَدْره ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيب مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْم أُحُد ، ثُمَّ هَزَزْته أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَن مَا كَانَ**) أَمَّا (هَزَزْت وَهَزَزْته) فَوَقَعَ فِي مُعْظَم النُّسَخ بِالزَّائَيْنِ فِيهِمَا ، وَفِي بَعْضهَا (هَزَّتْ وَهَزَّتْهُ) بِزَاي وَاحِدَة مُشَدَّدَة وَإِسْكَان التَّاء ، وَهِيَ لُغَة صَحِيحَة . قَالَ الْعُلَمَاء : وَتَفْسِيره ﷺ هَذِهِ الرُّؤْيَا بِمَا ذَكَرَهُ لِأَنَّ سَيْف الرَّجُل أَنْصَاره الَّذِينَ يَصُول بِهِمْ كَمَا يَصُول بِسَيْفِهِ . وَقَدْ يُفَسَّر السَّيْف فِي غَيْر هَذَا بِالْوَلَدِ ، وَالْوَالِد ، وَالْعَمّ ، أَوْ الْأَخ أَوْ الزَّوْجَة ، وَقَدْ يَدُلّ عَلَى الْوِلَايَة أَوْ الْوَدِيعَة ، وَعَلَى لِسَان الرَّجُل وَحُجَّته ، وَقَدْ يَدُلّ عَلَى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٧ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ ٤/ ١٨٢ ، ١٨٣ ، وفي التعبير / بَاب : إِذَا رَأَى بَقَرًا تُنْحَرُ ٨/ ٨١ ، ومسلم في الرؤيا / بَاب : رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ ٤/ ١٧٧٩ ح ٢٢٧٢ .

سُلْطَان جَائِر ، وَكُلّ ذَلِكَ بِحَسَب قَرَائِن تَنْضَمّ تَشْهَد لِأَحَدِ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي الرَّائِي أَوْ فِي الرُّؤْيَة .

وقَوْله ﷺ : (وَرَأَيْت فِيهَا أَيْضًا بَقَرًا ، وَاَللَّهُ خَيْرٌ ، فَإِذَا هُمْ النَّفَر مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَوْم أُحُد ، وَإِذَا الْخَيْر مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْر بَعْد ، وَثَوَاب الصِّدْق الَّذِي آتَانَا اللَّه يَوْم بَدْر) قَدْ جَاءَ فِي غَيْر مُسْلِم زِيَادَة فِي هَذَا الْحَدِيث (وَرَأَيْت بَقَرًا تُنْحَر) وَبِهَذِهِ الزِّيَادَة يَتِمّ تَأْوِيل الرُّؤْيَا بِمَا ذَكَرَ ، فَنَحْر الْبَقَر هُوَ قَتْل الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ الَّذِينَ قُتِلُوا بِأُحُد . قَالَ الْقَاضِي عِيَاض : ضَبَطْنَا هَذَا الْحَرْف عَنْ جَمِيع الرُّوَاة (وَاَللَّه خَيْر) بِرَفْعِ الْهَاء وَالرَّاء عَلَى الْمُبْتَدَأ وَالْخَبَر . وَ (بَعْد يَوْم بَدْر) بِضَمِّ دَال (بَعْد) ، وَنَصْب (يَوْم) قَالَ : وَرُوِيَ بِنَصْبِ الدَّال . قَالُوا : وَمَعْنَاهُ مَا جَاءَ اللَّه بِهِ بَعْد بَدْر الثَّانِيَة مِنْ تَثْبِيت قُلُوب الْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّ النَّاس جَمَعُوا لَهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ فَزَادَهُمْ ذَلِكَ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبنَا اللَّه وَنِعْمَ الْوَكِيل فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّه وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء ، وَتَفَرَّقَ الْعَدُوّ عَنْهُمْ هَيْبَة لَهُمْ . قَالَ الْقَاضِي : قَالَ أَكْثَر شُرَّاح الْحَدِيث : مَعْنَاهُ ثَوَاب اللَّه خَيْر أَيْ صُنْع اللَّه بِالْمَقْتُولِينَ خَيْر لَهُمْ مِنْ بَقَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا . قَالَ الْقَاضِي : وَالْأَوْلَى قَوْل مَنْ قَالَ: (وَاَللَّهُ خَيْرٌ) مِنْ جُمْلَة الرُّؤْيَا وَكَلِمَة أُلْقِيَتْ إِلَيْهِ وَسَمِعَهَا فِي الرُّؤْيَا عِنْد رُؤْيَا الْبَقَر بِدَلِيلِ تَأْوِيله لَهَا بِقَوْلِهِ ﷺ : " وَإِذَا الْخَيْر مَا جَاءَ اللَّه " وَاَللَّه أَعْلَم (١) .

التشاور في الخروج للقاء العدو :

اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ فِي الْمَدِينَةِ ؟ وكَانَ رَأْيُهُ أَلاَّ يَخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ وَأَنْ يَتَحَصَّنُوا بِهَا ، فَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمْ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَفْوَاهِ الأَزِقَّةِ وَالنِّسَاءُ مِنْ فَوْقِ الْبُيُوتِ ، وَوَافَقَهُ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ ، وكَانَ هُوَ الرَّأْيَ، فَبَادَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ فُضَلاء الصَّحَابَةِ مِمَّنْ فَاتَهُ الْخُرُوجُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ وَأَلَحّوا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، وَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بِالْمُقَامِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ، فَأَلَحَّ أُولَئِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَهَضَ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَبِسَ لامَتَهُ ،

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ٣٢ ، ٣٣ .

وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ انْثَنَى عَزْمُ أُولَئِكَ وَقَالُوا : أَكْرَهْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْخُرُوجِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَمْكُثَ فِي الْمَدِينَةِ فَافْعَلْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لامَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ) (١) .

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ . فِرْقَةٌ تَقُولُ : نُقَاتِلُهُمْ ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ : لا نُقَاتِلُهُمْ فَنَزَلَتْ { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا }(٢) وَقَالَ : (إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ) (٣) .

تجهز الرسول ﷺ وحضه على القتال وتنظيم الجيش :

صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بالشخوص ، ثم صلى بالناس العصر وقد حشدوا وحضر أهل العوالي ، ثم دخل رسول الله ﷺ بيته ومعه أبو بكر وعمر فعمماه ولبساه ، وصف الناس له ينتظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج والأمر ينزل عليه من السماء فردوا الأمر إليه . فخرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته وأظهر الدرع وحزم وسطها بمنطقة من أدم من حمائل السيف ، واعتم وتقلد السيف وألقى الترس في ظهره، فندموا جميعاً على ما صنعوا وقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، فقال رسول الله ﷺ : (لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩١ ، ٩٢ . والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٤١ ح ٢٥٨٨ من حديث ابن عباس ﷺ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه . ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٢) سورة النساء : آية (٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي / بَاب غَزْوَةِ أُحُدٍ ٥/ ٣١ ، وفي التفسير / بَاب: { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا } ٥/ ١٨١ .

أعدائه ، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم).
ثم دعا بثلاثة أرماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، ويقال إلى سعد بن عبادة ، ودفع لواءه لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويقال إلى مصعب بن عمير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، ثم ركب رسول الله ﷺ فرسه وتنكب القوس وأخذ قناةً بيده والمسلمون عليهم السلاح قد أظهروا الدروع فيهم مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وكل واحد منهما دارع والناس عن يمينه وشماله . فمضى حتى إذا كان بالشيخين ، وهما أطمان ، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل فقال : ما هذه ؟ قالوا : حلفاء بن أبي من يهود ، فقال رسول الله ﷺ : (لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك) . وعرض من عرض بالشيخين فرد من رد وأجاز من أجاز ، وغابت الشمس وأذن بلال المغرب فصلى النبي ﷺ بأصحابه وبات بالشيخين وكان نازلا في بني النجار ، واستعمل على الحرس تلك الليلة : محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطيفون بالعسكر. وكان المشركون قد رأوا رسول الله ﷺ حيث راح ونزل ، فاجتمعوا واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين ، وأدلج رسول الله ﷺ في السحر ودليله أبو حثمة الحارثي فانتهى إلى أحد إلى موضع القنطرة اليوم فحانت الصلاة ، وهو يرى المشركين ، فأمر بلالاً وأذن وأقام فصلى بأصحابه الصبح صفوفاً ، وانخزل ابن أبي من ذلك المكان في كتيبة كأنه هيق (١) يقدمهم وهو يقول : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، وانخزل معه ثلاثمائة ، فبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة ومعه فرسه وفرس لأبي بردة بن نيار ، وأقبل يصف أصحابه ويسوي الصفوف على رجليه ، وجعل ميمنة وميسرة وعليه درعان ومغفر وبيضة ، وجعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة ، وجعل عينين جبلاً بقناة عن يساره وجعل عليه خمسين من الرماة ، واستعمل عليهم عبد الله بن جبير

---

(١) الهَيْق : ذكر النعام يريد سرعة ذهابه . لسان العرب . مادة : هيق .

وأوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا (١) .

عَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنْ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ وَقَالَ : (**لا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلا تُعِينُونَا**) ، فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ : الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا ، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلاً، وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ : (**لا تُجِيبُوهُ**) فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ قَالَ : (**لا تُجِيبُوهُ**) فَقَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لأَجَابُوا ، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ . فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ . قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : اعْلُ هُبَلُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (**أَجِيبُوهُ**) قَالُوا : مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : (**قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**) قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (**أَجِيبُوهُ**) قَالُوا : مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : (**قُولُوا اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ**) قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا ، وَلَمْ تَسُؤْنِي (٢) .

الإعداد في جيش العدو :

أقبل المشركون وقد صفوا صفوفهم بالسبخة، وتعبئوا للحرب ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعملوا على الميمنة : خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة : عكرمة بن أبي جهل ، ولهم مجنبتان مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل : صفوان بن أمية ، ويقال : عمرو بن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٣٨ ، ٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / باب : غَزْوَةِ أُحُدٍ ٥/ ٢٩ ، ٣٠ .

العاص ، وعلى الرماة : عبد الله بن أبي ربيعة ، وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ابن قصي (١) .

وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم بذلك : يا بني عبد الدار: إنكم قد وليتم لواءنا ببدر فأصابنا ما قد رأيتم ، فإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفون لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وقالوا : أنحن نسلم إليكم لواءنا ؟ ستعلم إذا التقينا كيف نصنع وذلك الذي أراد أبو سفيان (٢) .

وسأل رسول الله ﷺ : من يحمل لواء المشركين ؟ قيل: عبد الدار ، قال: نحن أحق بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير؟ قال : هاأنذا ، قال: خذ اللواء ، فأخذه مصعب بن عمير فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ (٣) .

بدء القتال :

وكان أول من أنشب الحرب أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الفاسق ، طلع في خمسين من قومه ويقال : خمسة عشر ، الذين ذهبوا معه إلى مكة ، والأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى: يا معشر الأوس : أنا أبو عامر، فقالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، بذلك سماه رسول الله ﷺ وكان يسمى في الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة.

ولما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها ، فقالت هند فيما تقول :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩١ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٠ .

ويها بني عبد الدار *** ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتقول أيضاً:

نحن بنات طارق *** نمشي على النمارق

الدر في المخانق *** والمسك في المفارق

إن تقبلوا نعانق *** أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

وكان رسول الله ﷺ إذا سمع ، ذلك يقول : " **اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل** " (١) .

ودنا القوم بعضهم من بعض والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل فتولى هوازن ، فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء : من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب ﷺ فالتقيا بين الصفين فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع ، وهو كبش الكتيبة ، فسر رسول الله ﷺ بذلك وأظهر التكبير ، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضت صفوفهم ، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة أبو شيبة فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره ، ثم رجع وهو يقول : أنا بن ساقي الحجيج ، ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه إدلاع الكلب فقتله ، ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله، ثم حمله كلاب بن طلحة بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمله الجلاس ابن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل فقتله

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩١،١٩٢ . والحديث أخرجه أبو داود في الجهاد / بَاب : مَا يُدْعَى عِنْدَ اللِّقَاءِ ٢/ ٤٨ ح ٢٦٣٢ بلفظ مقارب من حديث أنس ، وسنده صحيح .

علي بن أبي طالب ، ثم حمله شريح بن قارظ فلسنا ندري من قتله ، ثم حمله صُــؤاب غلامهم وقال قائل : قتله سعد بن أبي وقاص ، وقال قائل : قتله علي بن أبي طالب ، وقال قائل: قتله قزمان ، وهو أثبت القول .

فلما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء ، ونســاؤهم يدعون بالويل ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجهضــوهم عن العسكر، ووقعوا ينتهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم (١) .

ترك الرماة لمواقعهم وبداية الهزيمة :

تكلم الرماة الذين على عينين واختلفوا بينهم ، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة مكانهم ، وقال: لا أجاوز أمر رسول الله ﷺ ووعــظ أصــحابه وذكرهم أمر رسول الله ﷺ فقالوا : لم يرد رسول الله ﷺ هذا ، قد انهزم المشركون فما مقامنا هاهنا ؟ فانطلقوا يتبعون العسكر ينتهبون معهم وخلوا الجبل ، ونظر خالد بــن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا علــى من بقي من الرماة فقتلوهم ، وقتل أميرهم عبد الله بن جبير، رحمه الله ، وانتقضــت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم وحالت الريح فصارت دبوراً، وكانت قبــل ذلــك صبا (٢) .

وكر الناس منهزمين يحطم بعضهم بعضا ، فصاروا ثلاثا : ثلثاً جريحــاً ، وثلثــاً منهزماً، وثلثاً مقتولاً ، وصرخ الشيطان – لعنه الله - : أي عباد الله ، إخوانكم . فرجعت أولاهم ، فاجتلدت هي وأخراهم ، وهم يظنون أنهم من العدو(٣) .

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ فَصَرَخَ إِبْلِيسُ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ : أَيْ عِبَادَ اللَّهِ أُخْرَاكُمْ ، فَرَجَعَتْ أُولاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأُخْرَاهُمْ فَبَصُــرَ

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٠ ، ٤١ بتصرف .
(٢) نفسه .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩٦ .

حُذَيْفَةُ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ فَقَالَ : أَيْ عِبَادَ اللَّهِ أَبِي أَبِي . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ . قَالَ عُرْوَةُ فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ بَقِيَّةُ خَيْرٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .

أي أن والد حذيفة بن اليمان كان ممن قتله المسلمون خطأ ، فدفع الرسول ﷺ ديته لحذيفة ، إلا أن حذيفة تصدق بها ، فنال بذلك قدراً عند النبي ﷺ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ، قَالَ : لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ ، رُفِعَ حُسَيْلُ بْنُ جَابِرٍ وَهُوَ الْيَمَانُ أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ الْيَمَانِ ، وَثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فِي الآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ . فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ وَهُمَا شَيْخَانِ كَبِيرَانِ : مَا أَبَا لَكَ ، مَا تَنْتَظِرُ ؟ فَوَاللَّهِ لا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمْرِهِ إِلاَّ ظِمْءُ حِمَارٍ إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ ، أَفَلا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا ، ثُمَّ نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنَا شَهَادَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَأَخَذَا أَسْيَافَهُمَا ثُمَّ خَرَجَا ، حَتَّى دَخَلا فِي النَّاسِ وَلَمْ يُعْلَمْ بِهِمَا ، فَأَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَأَمَّا حُسَيْلُ بْنُ جَابِرٍ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلُوهُ وَلا يَعْرِفُونَهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَبِي ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ إِنْ عَرَفْنَاهُ وَصَدَقُوا قَالَ حُذَيْفَةُ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدِيَهُ فَتَصَدَّقَ حُذَيْفَةُ بِدِيَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَزَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا (٢) .

وكان غرض إبليس بذلك أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً . وكان أول النهار للمسلمين على الكفار ، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق / بَاب : صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِه ٤/ ٩٥ ، وفي المناقب / بَاب: ذِكْرُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ الْعَبْسِيِّ ﷺ ٤/ ٢٣٢ ، وفي المغازي / بَاب : { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ } ٥/ ٣٤ ، وفي الأيمان والنذور / بَاب : إِذَا حَنِثَ نَاسِيًا فِي الأَيْمَانِ ٧/ ٢٢٦ ، وفي الديات / بَاب : إِذَا مَاتَ فِي الزِّحَامِ أَوْ قُتِلَ ٨/ ٤٠ ، ٤١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٨ ، ١٩ .

بإذنه حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) [آل عمران ١٥٢] .

فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين . وصرخ الشيطان عند جبل عينين وقد تصور في صورة جعال بن سراقة ﷺ : " إن محمداً قد قتل " ثلاث صرخات ، ولم يشك فيه أنه حق وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال ، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك : إن كان رسول الله ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم ، وعلى ما كان عليه نبيكم ، حتى تلقوا الله تعالى شهداء ؟! وقال جماعة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي لنا أماناً من أبي سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم ، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، واختلط المسلمون ، فصاروا يقتلون على غير شعار ، ويضرب بعضهم ، بعضاً ، من العجلة والدهش وما يدري (١) .

قال الحافظ ابن حجر : صَارُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ اِسْتَمَرُّوا فِي الْهَزِيمَةِ إِلَى قُرْبِ الْمَدِينَةِ فَمَا رَجَعُوا حَتَّى اِنْفَضَّ الْقِتَالُ وَهُمْ قَلِيلٌ ، وَهُمْ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) [آل عمران : ١٥٥] ، وَفِرْقَةٌ صَارُوا حَيَارَى لَمَّا سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُتِلَ فَصَارَ غَايَةُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَذُبَّ عَنْ نَفْسه أَوْ يَسْتَمِرّ عَلَى بَصِيرَته فِي الْقِتَالِ إِلَى أَنْ يُقْتَل ، وَهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَة . وَفِرْقَةٌ ثَبَتَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ تَرَاجَعَ إِلَيْهِ الْقِسْمُ الثَّانِي شَيْئًا فَشَيْئًا لَمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ حَيٌّ (٢) .

وتفرق المسلمون في كل وجه ، وانهزمت طائفة منهم حتى دخلت المدينة ، فلقيتهم أم أيمن فجعلت تحثو في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: " هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك ".

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩٦ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٤١٩ .

ولما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يبق منهم إلا نفر يسير لم يبق للمسلمين لواء قائم ولا فئة ، وإن كانت خيل المشركين لتجوسهم مقبلة مدبرة في الوادي ، يلتقون ولا يفترقون ، ما يرون أحداً من الناس يردهم ، حتى رجعوا إلى معسكرهم ، وأصعد بعض المسلمين في الجبل ، واستشهد منهم من أكرمه الله تعالى بالشهادة (١) .

إصابة النبي ﷺ :

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ : (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ } [آل عمران : ١٢٨](٢) .

وعَنْ أَبِي حَازِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ كَانَ يَسْكُبُ الْمَاءَ وَبِمَا دُووِيَ . قَالَ : كَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلام بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُهُ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لا يَزِيدُ الدَّمَ إِلاَّ كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَئِذٍ وَجُرِحَ وَجْهُهُ ، وَكُسِرَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ (٣) .

وعن أبى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِهِ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)(٤)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩٦ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري معلقاً في المغازي / بَاب : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } ٥/ ٣٥ ، ومسلم واللفظ له في الجهاد والسير / بَاب : غَزْوَةِ أُحُدٍ ٣/ ١٤١٧ ح ١٧٩١ .

(٣) أخرجاه في الموضعين السابقين .

(٤) أخرجاه في الموضعين السابقين .

سَبِيلِ اللَّهِ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ (١) .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ فَأَصَابَ فِيهِمْ الْعَدُوّ ، وَكَانَ يَوْمَ بَلاءٍ وَتَمْحِيصٍ أَكْرَمَ اللَّهُ فِيهِ مَنْ أَكْرَمَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّهَادَةِ حَتَّى خَلَصَ الْعَدُوّ إِلَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ . فَدُثّ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ لِشِقِّهِ فَأُصِيبَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَشُجّ فِي وَجْهِهِ وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ وَكَانَ الّذِي أَصَابَهُ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ (٢) .

بطولات الصحابة في الدفاع عن النبي ﷺ :

لما أصيب النبي ﷺ تصدى للدفاع عنه كثير من الصحابة ممن رآه في موقفه هذا ، وسطر التاريخ موقفهم بحروف من نور .

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلاً رَامِيًا ، شَدِيدَ النَّزْعِ ، كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنْ النَّبْلِ فَيَقُولُ : انْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ . قَالَ : وَيُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تُنْقِزَانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ وَلَقَدْ وَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدَيْ أَبِي طَلْحَةَ إِمَّا مَرَّتَيْنِ وَإِمَّا ثَلاثًا (٣) .

وعَنْ قَيْس بن أَبِي حَازِم قَالَ : رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلاَّءَ وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ(٤) .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنْ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ : (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ) أَوْ (هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ)

---

(١) أخرجاه في الموضعين السابقين .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٤ .

(٣) أخرجاه في الموضعين السابقين .

(٤) أخرجه البخاري في الموضع السابق .

فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ . ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا . فَقَالَ : (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ) أَوْ (هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ) فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا (١) .

شجاعة الرسول ﷺ وثباته :

ثبت رسول الله ﷺ ما يزول يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمي بالحجر، وثبت معه عصابة من أصحابه أربعة عشر رجلاً : سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق ﷺ وسبعة من الأنصار ، حتى تحاجزوا ونالوا من رسول الله ﷺ في وجهه ما نالوا ، أصيبت رباعيته وكلم في وجنتيه وجبهته وعلاه ابن قميئة بالسيف فضربه على شقه الأيمن ، واتقاه طلحة بن عبيد الله بيده فشلت إصبعه ، وادعى بن قميئة أنـــه قـــد قتله، وكان ذلك مما رعب المسلمين وكسرهم (٢) .

لما وجد الرسول ﷺ شبح الهزيمة قد حل بالمسلمين أخذ يستجمع قواهم ، ويصـــول ويجول في المشركين حتى قتل أبى بن خلف .

" أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عَرَفَهُ تَحْتَ الْمِغْفَرِ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَبْشِرُوا هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَشَارَ إِلَيْهِ : (أَنْ اُسْكُتْ) وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ وَنَهَضُوا مَعَهُ إِلَى الشِّعْبِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ ، وَفِيهِمْ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَالْحَارِثُ بْنُ الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيِّ وَغَيْرُهُمْ ، فَلَمَّا اسْتَنَدُوا إِلَى الْجَبَلِ أَدْرَكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُبَيّ بْنَ خَلَفٍ عَلَى جَوَادٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ : الْعَوْذ . زَعَمَ عَدُوّ اللَّهِ أَنَّـــهُ يَقْتُـــلُ عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ تَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَرْبَةَ مِنْ الْحَـــارِثِ بْـــنِ الصِّمَّةِ فَطَعَنَهُ بِهَا فَجَاءَتْ فِي تَرْقُوَتِهِ فَكَرَّ عَدُوّ اللَّهِ مُنْهَزِمًا فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ : وَاَللَّـــهِ مَا بِك مِنْ بَأْسٍ . فَقَالَ : وَاَللَّهِ لَوْ كَانَ مَا بِي بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ ، وَكَـــانَ يَعْلِفُ فَرَسَهُ بِمَكَّةَ وَيَقُولُ أَقْتُلُ عَلَيْهِ مُحَمَّدًا فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ

(١) أخرجاه في الموضعين السابقين .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٢ .

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى) فَلَمَّا طَعَنَهُ تَذَكَّرَ عَدُوّ اللَّهِ قَوْلَهُ : (أَنَا قَاتِلُهُ) فَأَيْقَنَ بِأَنَّهُ مَقْتُولٌ مِنْ ذَلِكَ الْجُرْحِ فَمَاتَ مِنْهُ فِي طَرِيقِهِ بِسَرِفٍ مَرْجِعَهُ إِلَى مَكَّةَ " (١) .

قتلى المسلمين بأحد :

وقتل يومئذ حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله ، قتله وحشي ، وعبد الله بن جحش. قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق ، ومصعب بن عمير ، قتله بن قميئة ، وشماس بن عثمان بن الشريد المخزومي ، قتله أبي بن خلف الجمحي . وعبد الله وعبدالرحمن ابنا الهبيب من بني سعد بن ليث ، ووهب بن قابوس المزني ، وابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس .

وقتل من الأنصار سبعون رجلاً ، فيهم عمرو بن معاذ ، أخو سعد بن معاذ ، واليمان أبو حذيفة ، قتله المسلمون خطأ ، وحنظلة بن أبي عامر الراهب ، وخيثمة أبو سعد بن خيثمة ، وخارجة بن زيد بن أبي زهير صهر أبي بكر. وسعد بن الربيع، ومالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، ومحذر بن ذياد وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح في ناس كثير من أشرافهم .

فلما انصرف المشركون عن أحد أقبل المسلمون على أمواتهم وأتى رسول الله ﷺ بحمزة بن عبد المطلب فلم يغسله ولم يغسل الشهداء وقال: لفوهم بدمائهم وجراحهم ، أنا الشهيد على هؤلاء، ضعوهم . فكان حمزة أول من كبر عليه رسول الله ﷺ أربعاً ثم جمع إليه الشهداء ، فكان كلما أتي بشهيد وضع إلى جنب حمزة فصلى عليه وعلى الشهيد ، حتى صلى عليه سبعين مرة ، وقد سمعنا من يقول : لم يصل رسول الله ﷺ على قتلى أحد . وقال رسول الله ﷺ : (احفروا وأعمقوا وأوسعوا وقدموا أكثرهم قرآنا) .

فكان ممن نعرف أنه دفن في قبر واحد عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن

---

(١) زاد المعاد ٢/٩٣ ، ٩٤ .

الجموح في قبر، وخارجة بن زيد وسعد بن الربيع في قبر، والنعمان بن مالك وعبدة بن الحسحاس في قبر واحد ، فكان الناس أو عامتهم قد حملوا قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم في نواحيها . فنادى منادي رسول الله ﷺ : (ردوا القتلى إلى مضاجعهم) . فأدرك المنادي رجلاً واحداً لم يكن دفن فرد ، وهو شماس بن عثمان المخزومي(١) .

مقتل مصعب بن عمير :

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَقَاتَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قُتِلَ ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ ابْنُ قَمِئَةَ اللَّيْثِيّ وَهُوَ يَظُنّ أَنّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ: قَتَلْتُ مُحَمّدًا . فَلَمّا قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اللّوَاءَ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَاتَلَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَرِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٢) .

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ : هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ ، وَمِنَّا مَنْ مَضَى أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا ، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ ابْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمْ يَتْرُكْ إِلاَّ نَمِرَةً كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : (غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ الإِذْخِرَ) أَوْ قَالَ : (أَلْقُوا عَلَى رِجْلِهِ مِنْ الإِذْخِرِ) وَمِنَّا مَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا (٣) ، (٤) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٤٢، ٤٣ بتصرف .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٠، ١١ .

(٣) قوله : (فَهُوَ يَهْدِبُهَا) بِفَتْحِ أَوَّله وَسُكُون ثَانِيه وَكَسْر الْمُهْمَلَة وَيَجُوز ضَمّهَا بَعْدهَا مُوَحَّدَة أَيْ يَقْطِفهَا . فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٢٨٣ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : غَزْوَةِ أُحُدٍ ٥/ ٣٠، ٣١ ، ومسلم في الجنائز / بَاب : فِي كَفَنِ الْمَيِّتِ ٢/ ٦٤٩ ح ٩٤٠ .

مقتل حمزة بن عبد المطلب :

روى البخاري بسنده عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ فَلَمَّا قَدِمْنَا حِمْصَ قَالَ لِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِيٍّ : هَلْ لَكَ فِي وَحْشِيٍّ نَسْأَلُهُ عَنْ قَتْلِ حَمْزَةَ قُلْتُ : نَعَمْ . وَكَانَ وَحْشِيٌّ يَسْكُنُ حِمْصَ ، فَسَأَلْنَا عَنْهُ فَقِيلَ لَنَا : هُوَ ذَاكَ فِي ظِلِّ قَصْرِهِ كَأَنَّهُ حَمِيتٌ . قَالَ : فَجِئْنَا حَتَّى وَقَفْنَا عَلَيْهِ بِيَسِيرٍ فَسَلَّمْنَا فَرَدَّ السَّلَامَ . قَالَ : وَعُبَيْدُ اللَّهِ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَتِهِ مَا يَرَى وَحْشِيٌّ إِلَّا عَيْنَيْهِ وَرِجْلَيْهِ . فَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : يَا وَحْشِيُّ أَتَعْرِفُنِي قَالَ : فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ عَدِيَّ ابْنَ الْخِيَارِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أُمُّ قِتَالٍ بِنْتُ أَبِي الْعِيصِ فَوَلَدَتْ لَهُ غُلَامًا بِمَكَّةَ ، فَكُنْتُ أَسْتَرْضِعُ لَهُ فَحَمَلْتُ ذَلِكَ الْغُلَامَ مَعَ أُمِّهِ فَنَاوَلْتُهَا إِيَّاهُ فَلَكَأَنِّي نَظَرْتُ إِلَى قَدَمَيْكَ قَالَ : فَكَشَفَ عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُخْبِرُنَا بِقَتْلِ حَمْزَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ بِبَدْرٍ . فَقَالَ لِي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ : إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ . قَالَ : فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ – وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ – خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ ، فَلَمَّا أَنْ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ : هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ ؟ قَالَ : فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . فَقَالَ : يَا سِبَاعُ يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ أَتُحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ ؟ قَالَ : ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ. قَالَ : وَكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي ، فَأَضَعُهَا فِي ثُنَّتِهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ، قَالَ : فَكَانَ ذَاكَ الْعَهْدَ بِهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ رَجَعْتُ مَعَهُمْ فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ حَتَّى فَشَا فِيهَا الإِسْلَامُ ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الطَّائِفِ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا فَقِيلَ لِي : إِنَّهُ لَا يَهِيجُ الرُّسُلَ . قَالَ : فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَآنِي قَالَ : (أَنْتَ وَحْشِيٌّ ؟) قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : (أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ ؟) قُلْتُ : قَدْ كَانَ مِنْ الأَمْرِ مَا بَلَغَكَ . قَالَ : (فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي ؟) قَالَ : فَخَرَجْتُ فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ قُلْتُ : لَأَخْرُجَنَّ إِلَى مُسَيْلِمَةَ لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ . قَالَ : فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، قَالَ : فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلْمَةِ جِدَارٍ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ ثَائِرُ الرَّأْسِ قَالَ

فَرَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ ، قَالَ : وَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى هَامَتِه .
قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْفَضْلِ فَأَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ فَقَالَتْ جَارِيَةٌ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ وَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَتَلَهُ الْعَبْدُ الأَسْوَدُ (١) .

الشرح والبيان :

معنى قَوْله : (هَلْ لَك فِي وَحْشِيٍّ) أَيْ ابْن حَرْب الْحَبَشِيّ مَوْلَى جُبَيْر بْن مُطْعِم . وَقَوْله : (فَسَأَلْنَا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَنَا) فِي رِوَايَة ابْن إِسْحَاق " فَقَالَ لَنَا رَجُل وَنَحْنُ نَسْأَل عَنْهُ : إِنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ الْخَمْر ، فَإِنْ تَجِدَاهُ صَاحِيًا تَجِدَاهُ عَرَبِيًّا يُحَدِّثُكُمَا بِمَا شِئْتُمَا ، وَإِنْ تَجِدَاهُ عَلَى غَيْر ذَلِكَ فَانْصَرِفَا عَنْهُ " وَفِي رِوَايَة الطَّيَالِسِيّ نَحْوُهُ وَقَالَ فِيهِ : " إِنْ أَدْرَكْتُمَاهُ شَارِبًا فَلَا تَسْأَلَاهُ " .
وَقَوْله : (كَأَنَّهُ حَمِيت) بِمُهْمَلَةٍ وَزْن رَغِيف ، أَيْ زِقّ كَبِير ، وَأَكْثَر مَا يُقَال ذَلِكَ إِذَا كَانَ مَمْلُوءًا ، وَفِي رِوَايَة لابْن عَائِذ " فَوَجَدْنَاهُ رَجُلاً سَمِينًا مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ " وَفِي رِوَايَة الطَّيَالِسِيّ " فَإِذَا بِهِ قَدْ أُلْقِيَ لَهُ شَيْءٌ عَلَى بَابه وَهُوَ جَالِس صَاحٍ " وَفِي رِوَايَة ابْن إِسْحَاق " عَلَى طِنْفِسَةٍ لَهُ " وَزَادَ " فَإِذَا شَيْخ كَبِيرٌ مِثْل الْبُغَاث " يَعْنِي بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَة وَالْمُعْجَمَة الْخَفِيفَة وَآخِرُهُ مُثَلَّثَةٌ وَهُوَ طَائِر ضَعِيفُ الْجُثَّة كَالرَّخَمَة وَنَحْوهَا مِمَّا لَا يَصِيدُ وَلَا يُصَادُ . وَقَوْله : (مُعْتَجِر) أَيْ لافٌ عِمَامَته عَلَى رَأْسه مِنْ غَيْر تَحْنِيك . وَقَوْله : (أُمّ قِتَال) بِكَسْرِ الْقَاف بَعْدهَا مُثَنَّاة خَفِيفَة ، وَفِي رِوَايَة بِمُوَحَّدَة ، وَالْأَوَّلُ أَصَحّ ، وَهِيَ عَمَّةُ عَتَّاب بْن أَسِيد أَيْ ابْن أَبِي الْعِيص بْن أُمَيَّةَ . وَقَوْله : (أَسْتَرْضِعُ لَهُ) أَيْ أَطْلُب لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ ، زَادَ فِي رِوَايَة ابْن إِسْحَاقَ " وَاَللَّه مَا رَأَيْتُك مُنْذُ نَاوَلْتُك أُمّك السَّعْدِيَّة الَّتِي أَرْضَعَتْك بِذِي طَوًى ، فَإِنِّي نَاوَلْتُكهَا وَهِيَ عَلَى بَعِيرهَا فَأَخَذَتْك ، فَلَمَعَتْ لِي قَدَمك حِينَ رَفَعْتُك ، فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ وَقَفْت عَلَيَّ فَعَرَفْتهَا " وَهَذَا يُوَضِّحُ قَوْله

(١) أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : قَتْلِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ ٥/ ٣٦ ، ٣٧

فِي رِوَايَةِ الْبَابِ " فَكَأَنِّي نَظَرْت إِلَى قَدَمَيْك " يَعْنِي أَنَّهُ شَبَّهَ قَدَمَيْهِ بِقَدَمِ الْغُلَامِ الَّذِي حَمَلَهُ فَكَانَ هُوَ هُوَ ، وَبَيْن الرُّؤْيَتَيْنِ قَرِيبٌ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى ذَكَاءٍ مُفْرِطٍ ، وَمَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ بِالْقِيَافَةِ . وقوله : (عَامَ عَيْنَيْنِ) أَيْ سَنَةَ أُحُدٍ وقوله : " عَيْنَيْنِ جَبَل بِحِيَالِ أُحُدٍ " أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ أُحُدٍ ، يُقَال فُلَان حِيَال كَذَا بِالْمُهْمَلَةِ الْمَكْسُورَةِ بَعْد تَحْتَانِيَّةٍ خَفِيفَةٍ أَيْ مُقَابِلَهُ ، وَهُوَ تَفْسِير مِنْ بَعْض رُوَاته . وَالسَّبَب فِي نِسْبَة وَحْشِيٍّ الْعَامَ إِلَيْهِ دُونَ أُحُدٍ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا نَزَلُوا عِنْدَهُ . قَالَ ابْن إِسْحَاق : نَزَلُوا بِعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِبَطْنِ السَّبْخَةِ مِنْ قَنَاةٍ عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ . وقوله : (خَرَجْت مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ) فِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيِّ " فَانْطَلَقْت يَوْمَ أُحُد مَعِي حَرْبَتِي ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ الْحَبَشَةِ أَلْعَبُ لَعِبَهُمْ ، قَالَ : وَخَرَجْت مَا أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ وَلَا أُقَاتِلَ إِلَّا حَمْزَةَ ، وَعِنْدَ ابْن إِسْحَاقَ : وَكَانَ وَحْشِيٌّ يَقْذِفُ بِالْحَرْبَةِ قَذْفَ الْحَبَشَة قَلَّمَا يُخْطِئُ . وقوله : (خَرَجَ سِبَاعٌ) بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةٌ خَفِيفَةٌ وَهُوَ ابْن عَبْدِ الْعُزَّى الْخُزَاعِيُّ ثُمَّ الْغُبْشَانِيُّ بِضَمِّ الْمُعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ ثُمَّ مُعْجَمَة ، ذَكَرَ ابْن إِسْحَاق أَنَّ كُنْيَته أَبُو نِيَار بِكَسْرِ النُّون وَتَخْفِيف التَّحْتَانِيَّة . وقوله : (فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَة) فِي رِوَايَة الطَّيَالِسِيِّ " فَإِذَا حَمْزَة كَأَنَّهُ جَمَل أَوْرَقُ مَا يَرْفَعُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا قَمَعَهُ بِالسَّيْفِ ، فَهِبْته . وَبَادَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ وَلَد سِبَاع " كَذَا قَالَ ، وَالَّذِي فِي الصَّحِيح هُوَ الصَّوَاب ، وَعِنْدَ ابْن إِسْحَاق " فَجَعَلَ يَهُدُّ النَّاسَ بِسَيْفِهِ " وَعِنْد ابْن عَائِذ " فَرَأَيْت رَجُلًا إِذَا حَمَلَ لَا يَرْجِع حَتَّى يَهْزِمنَا ، فَقُلْت : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : حَمْزَة . قُلْت : هَذَا حَاجَتِي " . وقوله : (يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارَ) بِفَتْحِ الْهَمْزَة وَسُكُون النُّون هِيَ أُمُّهُ ، كَانَتْ مَوْلَاة لِشَرِيق بْن عَمْرو الثَّقَفِيِّ وَالِد الْأَخْنَس .

وقوله : (مُقَطِّعَة الْبُظُور) بِالظَّاءِ الْمُعْجَمَة جَمْع بَظْر وَهِيَ اللَّحْمَة الَّتِي تُقْطَع مِنْ فَرْج الْمَرْأَة عِنْدَ الْخِتَان ، قَالَ ابْن إِسْحَاق : كَانَتْ أُمُّه خَتَّانَة بِمَكَّة تَخْتِنُ النِّسَاءَ ا ه . وَالْعَرَب تُطْلِقُ هَذَا اللَّفْظ فِي مَعْرِض الذَّمِّ ، وَإِلَّا قَالُوا خَاتِنَة وَذَكَرَ عُمَر بْن شَبَّة فِي " كِتَاب مَكَّة " عَنْ عَبْد الْعَزِيز بْن الْمُطَّلِب أَنَّهَا أُمّ سِبَاع وَعَبْد الْعُزَّى الْخُزَاعِيُّ ، وَكَانَتْ أَمَة وَهِيَ وَالِدَة خَبَّاب بْن الْأَرَتّ الصَّحَابِيّ الْمَشْهُور .

وقَوله : (أَتُحَادُّ) بمُهْمَلَتَيْنِ وتَشْدِيد الدَّال أيْ أَتُعَانِد ، وَأَصْل الْمُحَادَدَةُ أَنْ يَكُون ذَا فِي حَدٍّ وَذَا فِي حَدٍّ ، ثُمَّ اُسْتُعْمِلَ فِي الْمُحَارَبَة وَالْمُعَادَاة . وقَوله : " كَأَمْسِ الذَّاهِبِ " هِيَ كِنَايَة عَنْ قَتْله أيْ صَيَّرَهُ عَدَمًا ، وَفِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق " فَكَأَنَّمَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ " وَهَذَا يُقَال عِنْد الْمُبَالَغَة فِي الإِصَابَة . وقوله : (وكَمَنْت) بِفَتْحِ الْمِيم أيْ اِخْتَفَيْت . وَفِي رِوَايَة اِبْن عَائِذ " عِنْدَ شَجَرَة " وَعِنْدَ اِبْن أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مُرْسَل عُمَيْر بْن إِسْحَاق أَنَّ حَمْزَة عَثَرَ فَانْكَشَفَتْ الدِّرْعُ عَنْ بَطْنه فَأَبْصَرَهُ الْعَبْدُ الْحَبَشِيُّ فَرَمَاهُ بِالْحَرْبَة . وقوله : (فِي ثُنَّته) بِضَمِّ الْمُثَلَّثَة وَتَشْدِيد النُّون هِيَ الْعَانَةُ ، وَقِيلَ مَا بَيْنَ السُّرَّة وَالْعَانَة ، وَلِلطَّيَالِسِيِّ " فَجَعَلْت أَلُوذُ مِنْ حَمْزَة بِشَجَرَة وَمَعِي حَرْبَتِي حَتَّى إِذَا اسْتَمْكَنْت مِنْهُ هَزَزْت الْحَرْبَةَ حَتَّى رَضِيت مِنْهَا ، ثُمَّ أَرْسَلْتهَا فَوَقَعَتْ بَيْنَ ثَنْدُوتَيْهِ ، وَذَهَبَ يَقُومُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ " ا ه . وَالثَّنْدُوَةُ بِفَتْحِ الْمُثَلَّثَة وَسُكُون النُّون وَضَمِّ الْمُهْمَلَة بَعْدهَا وَاو خَفِيفَة هِيَ مِنْ الرَّجُلِ مَوْضِع الثَّدْي مِنْ الْمَرْأَة . وَالَّذِي فِي الصَّحِيح أَنَّ الْحَرْبَةَ أَصَابَتْ ثُنَّتَهُ أَصَحّ وقَوله : (فَلَمَّا رَجَعَ النَّاس) أيْ إِلَى مَكَّة ، زَادَ الطَّيَالِسِيُّ " فَلَمَّا جِئْت عَتَقْتُ " وَلاِبْنِ إِسْحَاق " فَلَمَّا قَدِمْت مَكَّةَ عَتَقْت ، وَإِنَّمَا قَتَلْته لأُعْتَقَ " . وقَوله : (حَتَّى فَشَا فِيهَا الإِسْلام) فِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق " فَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَكَّةَ هَرَبْت إِلَى الطَّائِف " . وقَوله : (فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ) فِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق " فَلَمَّا خَرَجَ وَفْدُ الطَّائِف لِيُسْلِمُوا تَغَمَّتْ عَلَيَّ الْمَذَاهِبُ فَقُلْت أَلْحَقُ بِالْيَمَنِ أَوْ الشَّام أَوْ غَيْرِهَا . وقوله : (فَقِيلَ لِي إِنَّهُ لا يَهِيج الرُّسُلَ) أيْ لا يَنَالُهُمْ مِنْهُ إِزْعَاجٌ ، وَفِي رِوَايَة الطَّيَالِسِيِّ " فَأَرَدْت الْهَرَبَ إِلَى الشَّام ، فَقَالَ لِي رَجُلٌ : وَيْحَك ، وَاَللَّه مَا يَأْتِي مُحَمَّدًا أَحَدٌ بِشَهَادَة الْحَقّ إِلاَّ خَلَّى عَنْهُ ، قَالَ فَانْطَلَقْت فَمَا شَعَرَ بِي إِلاَّ وَأَنَا قَائِمٌ عَلَى رَأْسه أَشْهَدُ بِشَهَادَة الْحَقّ " وَعِنْدَ اِبْن إِسْحَاق " فَلَمْ يَرُعْهُ إِلاَّ بِي قَائِمًا عَلَى رَأْسه " . وقَوله : (قَالَ : أَنْتَ قَتَلْت حَمْزَةَ ؟ قُلْت: قَدْ كَانَ مِنْ الْأَمْر مَا قَدْ بَلَغَك) فِي رِوَايَة الطَّيَالِسِيِّ " فَقَالَ : وَيْحَك ، حَدِّثْنِي عَنْ قَتْل حَمْزَةَ . قَالَ : فَأَنْشَأْت أُحَدِّثُهُ كَمَا حَدَّثْتُكُمَا " وَعِنْدَ يُونُسَ بْن بُكَيْر فِي الْمَغَازِي عِنْدَ اِبْن إِسْحَاق قَالَ " فَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ هَذَا وَحْشِيٌّ ، فَقَالَ : دَعُوهُ فَلإِسْلامُ رَجُلٍ وَاحِد أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَتْلِ أَلْف كَافِر " . وقَوله : (قَالَ فَخَرَجْت) زَادَ الطَّيَالِسِيِّ " فَكُنْت أَتَّقِي

أَنْ يَرَانِي " . وَلابْنِ عَائِذٍ " فَمَا رَآنِي حَتَّى مَاتَ " . وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ " فَقَالَ : يَا وَحْشِيُّ، أُخْرُجْ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّه كَمَا كُنْت تَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّه " . وقوله : (فَقُلْت : لأَخْرُجَنَّ إِلَى مُسَيْلِمَةَ) فِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيِّ " فَلَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُسَيْلِمَةَ مَا كَانَ انْبَعَثَ مَعَ الْبَعْثِ فَأَخَذْت حَرْبَتِي". وقوله : (فَأُكَافِئُ بِهِ حَمْزَةَ) بِالْهَمْزِ أَيْ أُسَاوِيَهُ بِهِ ، وَقَدْ فَسَّرَهُ بَعْد بِقَوْلِهِ "فَقَتَلْت خَيْرَ النَّاسِ وَشَرَّ النَّاس " قَوْله " فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ " أَيْ مِنْ مُحَارَبَته ، وَقَتْلِ جَمْعٍ مِنْ الصَّحَابَةِ فِي الْوَاقِعَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ لِلْمُسْلِمِينَ بِقَتْلِ مُسَيْلِمَةَ . وقوله : (فِي ثَلْمَةِ جِدَار) أَيْ خَلَلِ جِدَارٍ . وقوله : (جَمَل أَوْرَق) أَيْ لَوْنه مِثْل الرَّمَاد ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ غُبَار الْحَرْبِ . وَقَوْله " ثَائِر الرَّأْسِ " أَيْ شَعْرُهُ مُنْتَفِشٌ .

وقوله : (وَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ) هُوَ عَبْد اللَّه بْن زَيْد بْن عَاصِم الْمَازِنِيّ كَمَا جَزَمَ بِهِ الْوَاقِدِيُّ وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ وَالْحَاكِم ، وَقِيلَ هُوَ عَدِيُّ بْنُ سَهْلٍ جَزَمَ بِهِ سَيْف فِي " كِتَاب الرِّدَّة " وَقِيلَ أَبُو دُجَانَةَ ، وَقِيلَ زَيْد بْن الْخَطَّاب والأَوَّل أَشْهَر ، وَلَعَلَّ عَبْدَاللَّهِ بْن زَيْد هُوَ الَّذِي أَصَابَتْهُ ضَرْبَتُهُ ، وَأَمَّا الآخَرَانِ فَحَمَلا عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَة .

وقوله : (فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى هَامَته) فِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيِّ " فَرَبُّك أَعْلَمُ أَيُّنَا قَتَلَهُ ، فَإِنْ أَكُ قَتَلْته فَقَدْ قَتَلْت خَيْرَ النَّاسِ وَشَرَّ النَّاسِ " . وَفِي حَدِيث وَحْشِيٍّ مِنْ الْفَوَائِد غَيْر مَا تَقَدَّمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الذَّكَاء الْمُفْرِط ، وَمَنَاقِب كَثِيرَة لِحَمْزَةَ ، وَفِيهِ أَنَّ الْمَرْءَ يَكْرَهُ أَنْ يَرَى مَنْ أَوْصَلَ إِلَى قَرِيبِهِ أَوْ صَدِيقِهِ أَذًى ، وَلا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ وُقُوعُ الْهِجْرَةِ الْمَنْهِيَّةِ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ ، وَالْحَذَرُ فِي الْحَرْبِ ، وَأَنْ لا يَحْتَقِرَ الْمَرْءُ مِنْهَا أَحَدًا ، فَإِنَّ حَمْزَةَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ رَأَى وَحْشِيًّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَكِنَّهُ لَمْ يَحْتَرِزْ مِنْهُ احْتِقَارًا مِنْهُ إِلَى أَنْ أُتِيَ مِنْ قِبَلِهِ .

وَذَكَرَ ابْن إِسْحَاق قَالَ : " حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن الزُّبَيْر قَالَ خَرَجَ رَسُول اللَّه ﷺ يَلْتَمِس حَمْزَةَ ، فَوَجَدَهُ بِبَطْنِ الْوَادِي قَدْ مُثِّلَ بِهِ ، فَقَالَ : لَوْلا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ – يَعْنِي بِنْتَ عَبْد الْمُطَّلِب – وَتَكُونُ سُنَّةً بَعْدِي لَتَرَكْته حَتَّى يُحْشَرَ مِنْ بُطُونِ السِّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ " زَادَ ابْن هِشَام قَالَ : " وَقَالَ لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا . وَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ : إِنَّ

حَمْزَةَ مَكْتُوبٌ فِي السَّمَاءِ أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ " وَرَوَى الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ ضَعْفٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى حَمْزَةَ قَدْ مُثِّلَ بِهِ قَالَ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، لَقَدْ كُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ ، فَعُولاً لِلْخَيْرِ ، وَلَوْلا حُزْنُ مَنْ بَعْدَكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدَعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ أَجْوَافٍ شَتَّى . ثُمَّ حَلَفَ وَهُوَ بِمَكَانِهِ لأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيَةَ " (١) .

وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ فِي زِيَادَاتِ الْمُسْنَدِ وَالطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : " مَثَّلَ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ الأَنْصَارُ : لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ لَنَزِيدَنَّ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ نَادَى رَجُلٌ : لا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ".

وَعِنْدَ ابْنِ مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوُ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِاخْتِصَارٍ ، وَقَالَ فِي آخِرِهِ " فَقَالَ : بَلْ نَصْبِرُ يَا رَبِّ " وَهَذِهِ طُرُقٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا (٢) .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَوَقَعَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ، كَمَا حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ ، وَالنِّسْوَةُ اللاتِي مَعَهَا ، يُمَثِّلْنَ بِالْقَتْلَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَجْدَعْنَ الآذَانَ وَالأُنُفَ حَتَّى اتَّخَذَتْ هِنْدُ مِنْ آذَانِ الرِّجَالِ وَأُنُفِهِمْ خَدَمًا وَقَلائِدَ وَأَعْطَتْ خَدَمَهَا وَقَلائِدَهَا وَقِرَطَتَهَا وَحْشِيًا ، غُلامَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، وَبَقَرَتْ عَنْ كَبِدِ حَمْزَةَ ، فَلاكَتْهَا ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسِيغَهَا ، فَلَفَظَتْهَا ، ثُمَّ عَلَتْ عَلَى صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ فَصَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا فَقَالَتْ :

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ ... وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ
مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرِ ... وَلا أَخِي وَعَمِّهِ وَبَكْرِي
شَفَيْتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي ... شَفَيْتَ وَحْشِيّ غَلِيلَ صَدْرِي
فَشُكْرُ وَحْشِيّ عَلَيَّ عُمْرِي ... حَتَّى تَرِمَّ أَعْظُمِي فِي قَبْرِي (٣) .

---

(١) سورة النحل : آية (١٢٦) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٤٢٦ : ٤٣٠ بتصرف .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢١ .

رحيل المشركين بعد أحد :

ولَمّا انقضتَ الْحَرْبُ انكَفَأ الْمُشْرِكُونَ ، فظَنّ الْمُسلِمُونَ أنّهُمْ قصَدُوا الْمَدِينَةَ لإحْرَازِ الذّرَارِيّ وَالأمْوَالِ ، فشَقّ ذَلكَ عَلَيْهِمْ فقَالَ النّبيّ ﷺ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ : (اُخْرُجْ فِي آثَارِ الْقَوْمِ فَانظُرْ مَاذَا يَصنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ ، فَإِنْ هُمْ جَنّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ فَإِنّهُمْ يُرِيدُونَ مَكّةَ ، وَإِنْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَسَاقُوا الإِبِلَ فَإِنّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ ، فَوَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أَرَادُوهَا لأَسِيرَنّ إِلَيْهِمْ ثُمّ لأُنَاجِزَنّهُمْ فِيهَا) قَالَ عَلِيّ : فَخَرَجْتُ فِي آثَارِهِمْ أَنظُرُ مَاذَا يَصنَعُونَ فَجَنّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ وَوَجّهُوا إِلَى مَكّةَ وَلَمّا عَزَمُوا عَلَى الرّجُوعِ إِلَى مَكّةَ أَشْرَفَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَبُو سُفْيَانَ ثُمّ نَادَاهُمْ مَوْعِدُكُمْ الْمَوْسِمُ بِبَدْرٍ فَقَالَ النّبيّ ﷺ " قُولُوا : (نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا) . قَالَ أَبُو سُفْيَانَ " فَذَلِكُمْ الْمَوْعِدُ " ثُمّ انصَرَفَ تَصنَعُوا شَيْئًا أَصَبْتُمْ شَوْكَتَهُمْ وَحَدّهُمْ ثُمّ تَرَكْتُمُوهُمْ وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ رُءُوسٌ يَجْمَعُونَ لَكُمْ فَارْجِعُوا حَتّى نَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَنَادَى فِي النّاسِ وَنَدَبَهُمْ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى لِقَاءِ عَدُوّهِمْ وَقَالَ: (لا يَخْرُجْ مَعَنَا إلاّ مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ) فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ : أَرْكَبُ مَعَك ؟ قَالَ : (لا) فَاسْتَجَابَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ الْقَرْحِ الشّدِيدِ وَالْخَوْفِ وَقَالُوا : سَمْعًا وَطَاعَةً . وَاسْتَأْذَنَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّي أُحِبّ أَلا تَشْهَدَ مَشْهَدًا إلا كُنْتُ مَعَك وَإِنّمَا خَلّفَنِي أَبِي عَلَى بَنَاتِهِ . فَأْذَنْ لِي أَسِيرُ مَعَك فَأَذِنَ لَهُ فَسَارَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ حَتّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الأَسَدِ " وَأَقْبَلَ مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيّ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ فَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِأَبِي سُفْيَانَ فَيُخَذّلَهُ ، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه فَقَالَ مَا وَرَاءَك يَا مَعْبَدُ ؟ فَقَالَ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ تَحَرّقُوا عَلَيْكُمْ ، وَخَرَجُوا فِي جَمْعٍ لَمْ يَخْرُجُوا فِي مِثْلِهِ . وَقَدْ نَدِمَ مَنْ كَانَ تَخَلّفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِمْ فَقَالَ مَا تَقُولُ ؟ فَقَالَ مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتّى يَطْلُعَ أَوّلُ الْجَيْشِ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الأَكَمَةِ . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَاَللّهِ لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَهُمْ . قَالَ فَلا تَفْعَلْ فَإِنّي لَك نَاصِحٌ ، فَرَجَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى مَكّةَ ، وَلَقِيَ أَبُو سُفْيَانَ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ يُرِيدُ الْمَدِينَةَ فَقَالَ هَلْ لَك أَنْ تُبَلّغَ مُحَمّدًا رِسَالَةً وَأُوقِرَ لَك رَاحِلَتَك زَبِيبًا إِذَا أَتَيْتَ إِلَى مَكّةَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ أَبْلِغْ مُحَمّدًا أَنّا قَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرّةَ لِنَسْتَأْصِلَهُ وَنَسْتَأْصِلَ أَصْحَابَهُ فَلَمّا بَلَغَهُمْ

قوله قالوا : {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[آل عمران ١٧٤] (١)

الدروس في غزوة أحد :

قال ابن القيم : قَدْ أَشَارَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – إِلَى أُمَّهَاتِهَا وَأُصُولِهَا فِي سُورَةِ آل عِمْرَانَ حَيْثُ افْتَتَحَ الْقِصَّةَ بِقَوْلِهِ { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [آل عمران ١٢١] إِلَى تَمَامِ سِتِّينَ آيَةً .

فَمِنْهَا : تَعْرِيفُهُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ الْمَعْصِيَةِ وَالْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِشُؤْمِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } [آل عمران ١٥٢] . فَلَمَّا ذَاقُوا عَاقِبَةَ مَعْصِيَتِهِمْ لِلرَّسُولِ وَتَنَازُعِهِمْ وَفَشَلِهِمْ كَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَشَدَّ حَذَرًا وَيَقَظَةً وَتَحَرُّزًا مِنْ أَسْبَابِ الْخِذْلَانِ .

وَمِنْهَا : أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ وَسُنَّتَهُ فِي رُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ جَرَتْ بِأَنْ يُدَالُوا مَرَّةً وَيُدَالَ عَلَيْهِمْ أُخْرَى ، لَكِنْ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ ، فَإِنَّهُمْ لَوِ انْتَصَرُوا دَائِمًا دَخَلَ مَعَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَغَيْرُهُمْ، وَلَمْ يَتَمَيَّزِ الصَّادِقُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَوِ انْتُصِرَ عَلَيْهِمْ دَائِمًا لَمْ يحصل المقصود من البعثة والرسالة ، فاقتضت حكمة الله أن جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ ، لِيَتَمَيَّزَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ لِلْحَقِّ ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى الظُّهُورِ وَالْغَلَبَةِ خَاصَّةً .

وَمِنْهَا : أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ هِرَقْلُ لِأَبِي سُفْيَانَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ؟ قَالَ سِجَالٌ يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى ، قَالَ

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٠٨ .

كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ .

وَمِنْهَا : أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ الْكَاذِبِ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا أَظْهَرَهُمْ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَطَارَ لَهُمْ الصِّيتُ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي الإِسْلامِ ظَاهِرًا مَنْ لَيْسَ مَعَهُمْ فِيهِ بَاطِنًا ، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ سَبَّبَ لِعِبَادِهِ مِحْنَةً مَيَّزَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ ، فَأَطْلَعَ الْمُنَافِقُونَ رُءُوسَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَتَكَلَّمُوا بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ ، وَظَهَرَتْ مُخَبَّآتُهُمْ ، وَعَادَ تَلْوِيحُهُمْ تَصْرِيحًا ، وَانْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ انْقِسَامًا ظَاهِرًا ، وَعَرَفَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ لَهُمْ عَدُوًّا فِي نَفْسِ دُورِهِمْ وَهُمْ مَعَهُمْ لا يُفَارِقُونَهُمْ فَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ وَتَحَرَّزُوا مِنْهُمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ } [آل عمران ١٧٩] . أَيْ : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْتِبَاسِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُنَافِقِينَ حَتَّى يَمِيزَ أَهْلَ الإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ كَمَا مَيَّزَهُمْ بِالْمِحْنَةِ يَوْمَ أُحُدٍ { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } الَّذِي يَمِيزُ بِهِ بَيْنَ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ مُتَمَيِّزُونَ فِي غَيْبِهِ وَعِلْمِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ أَنْ يَمِيزَهُمْ تَمْيِيزًا مَشْهُودًا فَيَقَعُ مَعْلُومُهُ الَّذِي هُوَ غَيْبٌ شَهَادَةً . وَقَوْلُهُ { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ } اسْتِدْرَاكٌ لِمَا نَفَاهُ مِنْ اطِّلاعِ خَلْقِهِ عَلَى الْغَيْبِ سِوَى الرُّسُلِ ، فَإِنَّهُ يُطْلِعُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْبِهِ ، كَمَا قَالَ { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } [الجن : ٢٧] فَحَظُّكُمْ أَنْتُمْ وَسَعَادَتُكُمْ فِي الإِيمَانِ بِالْغَيْبِ الَّذِي يُطْلِعُ عَلَيْهِ رسله فإن آمنتم به وأيقنتم فلكم أعظم الأجر والكرامة .

وَمِنْهَا : اسْتِخْرَاجُ عُبُودِيَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَفِيمَا يُحِبُّونَ وَمَا يَكْرَهُونَ ، وَفِي حَالِ ظَفَرِهِمْ وَظَفَرِ أَعْدَائِهِمْ بِهِمْ ، فَإِذَا ثَبَتُوا عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ فِيمَا

يُحبّونَ وَمَا يَكْرَهُونَ فَهُمْ عَبِيدُهُ حَقًا ، وَلَيْسُوا كَمَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّرّاءِ وَالنّعْمَةِ وَالْعَافِيَةِ .

وَمِنْهَا : أَنّهُ سُبْحَانَهُ لَوْ نَصَرَهُمْ دَائِمًا وَأَظْفَرَهُمْ بِعَدُوّهِمْ فِي كُلّ مَوْطِنٍ وَجَعَلَ لَهُمْ التّمْكِينَ وَالْقَهْرَ لأَعْدَائِهِمْ أَبَدًا لَطَغَتْ نُفُوسُهُمْ وَشَمَخَتْ وَارْتَفَعَتْ ، فَلَوْ بَسَطَ لَهُمْ النّصْرَ وَالظّفَرَ لَكَانُوا فِي الْحَالِ الّتِي يَكُونُونَ فِيهَا لَوْ بَسَطَ لَهُمْ الرّزْقَ ، فَلا يُصْلِحُ عِبَادَهُ إلا السّرّاءُ وَالضّرّاءُ وَالشّدّةُ وَالرّخَاءُ وَالْقَبْضُ وَالْبَسْطُ ، فَهُوَ الْمُدَبّرُ لأَمْرِ عِبَادِهِ كَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ إنّهُ بِهِمْ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

وَمِنْهَا : أَنّهُ إذَا امْتَحَنَهُمْ بِالْغَلَبَةِ وَالْكَسْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ ذَلّوا وَانْكَسَرُوا وَخَضَعُوا ، فَاسْتَوْجَبُوا مِنْهُ الْعِزّ وَالنّصْرَ ، فَإِنّ خِلْعَةَ النّصْرِ إنّمَا تَكُونُ مَعَ وِلايَةِ الذّلّ وَالانْكِسَارِ قَالَ تَعَالَى : {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران ١٢٣] وَقَالَ {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة ٢٥] فَهُوَ - سُبْحَانَهُ - إذَا أَرَادَ أَنْ يُعِزّ عَبْدَهُ وَيَجْبُرَهُ وَيَنْصُرَهُ كَسَرَهُ أَوّلاً وَيَكُونُ جَبْرُهُ لَهُ وَنَصْرُهُ عَلَى مِقْدَارِ ذُلّهِ وَانْكِسَارِهِ .

وَمِنْهَا : أَنّهُ سُبْحَانَهُ هَيّأَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَنَازِلَ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ لَمْ تَبْلُغْهَا أَعْمَالُهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا بَالِغِيهَا إلا بِالْبَلاءِ وَالْمِحْنَةِ ، فَقَيّضَ لَهُمْ الأَسْبَابَ الّتِي تُوصِلُهُمْ إلَيْهَا مِنْ ابْتِلائِهِ وَامْتِحَانِهِ ، كَمَا وَفّقَهُمْ لِلأَعْمَالِ الصّالِحَةِ الّتِي هِيَ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِ وُصُولِهِمْ إلَيْهَا .

وَمِنْهَا : أَنّ النّفُوسَ تَكْتَسِبُ مِنْ الْعَافِيَةِ الدّائِمَةِ وَالنّصْرِ وَالْغِنَى طُغْيَانًا وَرُكُونًا إلَى الْعَاجِلَةِ ، وَذَلِكَ مَرَضٌ يَعُوقُهَا عَنْ جِدّهَا فِي سَيْرِهَا إلَى اللّهِ وَالدّارِ الآخِرَةِ ، فَإِذَا أَرَادَ بِهَا رَبّهَا وَمَالِكُهَا وَرَاحِمُهَا كَرَامَتَهُ قَيّضَ لَهَا مِنْ الابْتِلاءِ وَالامْتِحَانِ مَا يَكُونُ دَوَاءً لِذَلِكَ الْمَرَضِ الْعَائِقِ عَنْ السّيْرِ الْحَثِيثِ إلَيْهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْبَلاءُ وَالْمِحْنَةُ بِمَنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ، وَلَو تَرَكَهُ لَغَلَبَتْهُ الأَدْوَاءُ حَتّى يَكُونَ فِيهَا هَلاكُهُ .

وَمِنْهَا : أَنّ الشّهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ أَوْلِيَائِهِ ، وَالشّهَدَاءُ هُمْ خَوَاصّهُ وَالْمُقَرّبُونَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَيْسَ بَعْدَ دَرَجَةِ الصّدّيقِيّةِ إلا الشّهَادَةُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبّ أَنْ يَتّخِذَ مِنْ عِبَادِهِ شُهَدَاءَ تُرَاقُ دِمَاؤُهُمْ فِي مَحَبّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ ، وَيُؤْثِرُونَ رِضَاهُ وَمَحَابّهُ عَلَى نُفُوسِهِمْ ، وَلا سَبِيلَ إلَى نَيْلِ هَذِهِ الدّرَجَةِ إلا بِتَقْدِيرِ الأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إلَيْهَا مِنْ تَسْلِيطِ الْعَدُوّ .

وَمِنْهَا : أَنّ اللّهَ سُبْحَانَهُ إذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ أَعْدَاءَهُ وَيَمْحَقَهُمْ قَيّضَ لَهُمْ الأَسْبَابَ الّتِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهَا هَلاكَهُمْ وَمَحْقَهُمْ ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا بَعْدَ كُفْرِهِمْ بَغْيُهُمْ وَطُغْيَانُهُمْ وَمُبَالَغَتُهُمْ فِي أَذَى أَوْلِيَائِهِ وَمُحَارَبَتِهِمْ وَقِتَالِهِمْ وَالتّسَلّطِ عَلَيْهِمْ ، فَيَتَمَحّصُ بِذَلِكَ أَوْلِيَاؤُهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَعُيُوبِهِمْ ، وَيَزْدَادُ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ مِنْ أَسْبَابِ مَحْقِهِمْ وَهَلاكِهِمْ ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } [آل عمران ١٣٩ ١٤٠] فَجَمَعَ لَهُمْ فِي هَذَا الْخِطَابِ بَيْنَ تَشْجِيعِهِمْ وَتَقْوِيَةِ نُفُوسِهِمْ وَإِحْيَاءِ عَزَائِمِهِمْ وَهِمَمِهِمْ ، وَبَيْنَ حُسْنِ التّسْلِيَةِ وَذِكْرِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الّتِي اقْتَضَتْ إدَالَةَ الْكُفّارِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } [آل عمران ١٤٠] فَقَدْ اسْتَوَيْتُمْ فِي الْقَرْحِ وَالأَلَمِ وَتَبَايَنْتُمْ فِي الرّجَاءِ وَالثّوَابِ كَمَا قَالَ { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } [النساء ١٠٤] فَمَا بَالُكُمْ تَهِنُونَ وَتَضْعُفُونَ عِنْدَ الْقَرْحِ وَالأَلَمِ ، فَقَدْ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الشّيْطَانِ ، وَأَنْتُمْ أُصِبْتُمْ فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي .

[illegible] أَنّهُ يُدَاوِلُ أَيّامَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدّنْيَا بَيْنَ النّاسِ وَأَنّهَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يقسمها دولا بين أوليائه وأعدائه ، بخلاف الآخرة فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى وَهِيَ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَيَعْلَمُهُمْ عِلْمَ رُؤْيَةٍ وَمُشَاهَدَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَعْلُومِينَ فِي غَيْبِهِ ، وَذَلِكَ الْعِلْمُ الْغَيْبِيّ لا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَلا عِقَابٌ ، وَإِنَّمَا يَتَرَتَّبُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عَلَى الْمَعْلُومِ إِذَا صَارَ مُشَاهَدًا وَاقِعًا فِي الْحِسِّ .
ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى وَهِيَ اتِّخَاذُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الشُّهَدَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ وَأَفْضَلَهَا وَقَدْ اتَّخَذَهُمْ لِنَفْسِهِ فَلا بُدَّ أَنْ يُنِيلَهُمْ دَرَجَةَ الشَّهَادَةِ .
وَقَوْلُهُ { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران ١٤٠] تَنْبِيهٌ لَطِيفُ الْمَوْقِعِ جِدًّا عَلَى كَرَاهَتِهِ وَبُغْضِهِ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ انْخَذَلُوا عَنْ نَبِيِّهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَلَمْ يَشْهَدُوهُ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ ، لأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمْ فَأَرْكَسَهُمْ وَرَدَّهُمْ لِيَحْرِمَهُمْ مَا خَصَّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمَا أَعْطَاهُ مَنْ اُسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ ، فَثَبَّطَ هَؤُلاءِ الظَّالِمِينَ عَنْ الأَسْبَابِ الَّتِي وَفَّقَ لَهَا أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى فِيمَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَهُوَ تَمْحِيصُ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُوَ تَنْقِيَتُهُمْ وَتَخْلِيصُهُمْ مِنْ الذُّنُوبِ وَمِنْ آفَاتِ النُّفُوسِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ خَلَّصَهُمْ وَمَحَّصَهُمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ فَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ فَحَصَلَ لَهُمْ تَمْحِيصَانِ : تَمْحِيصٌ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، وَتَمْحِيصٌ مِمَّنْ كَانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَهُوَ عَدُوُّهُمْ .

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى وَهِيَ مَحْقُ الْكَافِرِينَ بِطُغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ ، ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ حُسْبَانَهُمْ وَظَنَّهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِدُونِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ ، وَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ بِحَيْثُ يُنْكِرُ عَلَى مَنْ ظَنَّهُ وَحَسِبَهُ . فَقَالَ { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } [آل عمران ١٤٢] أَيْ وَلَمَّا يَقَعْ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَيَعْلَمُهُ فَإِنَّهُ لَوْ وَقَعَ لَعَلِمَهُ فَجَازَاكُمْ عَلَيْهِ بِالْجَنَّةِ فَيَكُونُ الْجَزَاءُ عَلَى الْوَاقِعِ الْمَعْلُومِ ، لا عَلَى مُجَرَّدِ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى مُجَرَّدِ عِلْمِهِ فِيهِ دُونَ أَنْ يَقَعَ مَعْلُومُهُ ، ثُمَّ وَبَّخَهُمْ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ مِنْ أَمْرٍ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ وَيَوَدُّونَ لِقَاءَهُ فَقَالَ {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [آل عمران ١٤٣] . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ [illegible]

بمَا فعَلَ بشُهَدَاءِ بَدْرٍ مِنْ الْكَرَامَةِ رَغِبُوا فِي الشَّهَادَةِ ، فَتَمَنَّوْا قِتَالاً يَسْتَشْهِدُونَ فِيهِ فَيَلْحَقُونَ إِخْوَانَهُمْ ، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ وَسَبَّبَهُ لَهُمْ فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ انْهَزَمُوا إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ }.

وَمِنْهَا : أَنَّ وَقْعَةَ أُحُدٍ كَانَتْ مُقَدِّمَةً وَإِرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَثَبَّتَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ عَلَى انْقِلابِهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِنْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ قُتِلَ ، بَلْ الْوَاجِبُ لَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى دِينِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَيَمُوتُوا عَلَيْهِ أَوْ يُقْتَلُوا ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ رَبَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ ، فَلَوْ مَاتَ مُحَمَّدٌ أَوْ قُتِلَ لا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَمَا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُخَلَّدَ لا هُوَ وَلا هُمْ ، بَلْ لِيَمُوتُوا عَلَى الإِسْلامِ وَالتَّوْحِيدِ ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لا بُدَّ مِنْهُ سَوَاءٌ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ بَقِيَ ، وَلِهَذَا وَبَّخَهُمْ عَلَى رُجُوعِ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ لَمَّا صَرَخَ الشَّيْطَانُ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَقَالَ { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } [آل عمران ١٤٤] وَالشَّاكِرُونَ هُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ النِّعْمَةِ فَثَبَتُوا عَلَيْهَا حَتَّى مَاتُوا أَوْ قُتِلُوا ، فَظَهَرَ أَثَرُ هَذَا الْعِتَابِ وَحُكْمُ هَذَا الْخِطَابِ يَوْمَ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَثَبَتَ الشَّاكِرُونَ عَلَى دِينِهِمْ ، فَنَصَرَهُمْ اللَّهُ وَأَعَزَّهُمْ وَظَفَّرَهُمْ بِأَعْدَائِهِمْ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلاً لا بُدَّ أَنْ تَسْتَوْفِيَهُ ثُمَّ تَلْحَقَ بِهِ ، فَيَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمْ حَوْضَ الْمَنَايَا مَوْرِدًا وَاحِدًا ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ أَسْبَابُهُ ، وَيَصْدُرُونَ عَنْ مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ مَصَادِرَ شَتَّى ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ جَمَاعَةً كَثِيرَةً مِنْ أَنْبِيَائِهِ قُتِلُوا وَقُتِلَ مَعَهُمْ أَتْبَاعٌ لَهُمْ كَثِيرُونَ ، فَمَا وَهَنَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَمَا وَهَنُوا عِنْدَ الْقَتْلِ وَلا ضَعُفُوا وَلا اسْتَكَانُوا ، بَلْ تَلَقَّوْا الشَّهَادَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْعَزِيمَةِ وَالإِقْدَامِ ، فَلَمْ يَسْتَشْهِدُوا مُدْبِرِينَ مُسْتَكِينِينَ أَذِلَّةً ، بَلْ اُسْتُشْهِدُوا أَعِزَّةً

كِرَامًا مُقْبِلِينَ غَيْرَ مُدْبِرِينَ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الآيَةَ تَتَنَاوَلُ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا . ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَمَّا اسْتَنْصَرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ وَأُمَمُهُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ اعْتِرَافِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ رَبَّهُمْ أَنْ يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ وَأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فَقَالَ { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران ١٤٧] لَمَّا عَلِمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا يُدَالُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَسْتَزِلُّهُمْ وَيَهْزِمُهُمْ بِهَا ، وَأَنَّهَا نَوْعَانِ : تَقْصِيرٌ فِي حَقٍّ ، أَوْ تَجَاوُزٌ لِحَدٍّ ، وَأَنَّ النُّصْرَةَ مَنُوطَةٌ بِالطَّاعَةِ ، قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا هُمْ عَلَى تَثْبِيتِ أَقْدَامِ أَنْفُسِهِمْ وَنَصْرِهَا عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بِيَدِهِ دُونَهُمْ ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا وَلَمْ يَنْتَصِرُوا فَوَفَّوْا الْمَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا : مَقَامَ الْمُقْتَضِي وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالالْتِجَاءُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وَمَقَامَ إِزَالَةِ الْمَانِعِ مِنَ النُّصْرَةِ وَهُوَ الذُّنُوبُ وَالإِسْرَافُ ، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ طَاعَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ أَطَاعُوهُمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيضٌ بِالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَطَاعُوا الْمُشْرِكِينَ لَمَّا انْتَصَرُوا وَظَفِرُوا يَوْمَ أُحُدٍ . ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، فَمَنْ وَالاهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ .

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الرُّعْبَ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْهُجُومِ عَلَيْهِمْ وَالإِقْدَامِ عَلَى حَرْبِهِمْ ، وَأَنَّهُ يُؤَيِّدُ حِزْبَهُ بِجُنْدٍ مِنَ الرُّعْبِ يَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى أعدائهم ، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب ، فالمشرك بالله أَشَدُّ شَيْءٍ خَوْفًا وَرُعْبًا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِالشِّرْكِ لَهُمُ الأَمْنُ وَالْهُدَى وَالْفَلاحُ ، وَالْمُشْرِكُ لَهُ الْخَوْفُ وَالضَّلالُ وَالشَّقَاءُ .

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ صَدَقَهُمْ وَعْدَهُ فِي نُصْرَتِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْوَعْدِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الطَّاعَةِ وَلُزُومِ أَمْرِ الرَّسُولِ لاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُمْ ، وَلَكِنْ انْخَلَعُوا عَنْ

الطّاعَة وفَارَقُوا مَرْكَزَهُمْ ، فَانْخَلَعُوا عَنْ عِصْمَة الطّاعَة ، فَفَارَقَتْهُمْ النّصْرَةُ فَصَرَفَهُمْ عَنْ عَدُوّهِمْ عُقُوبَةً وَابْتِلاءً ، وَتَعْرِيفًا لَهُمْ بِسُوءِ عَوَاقِبِ الْمَعْصِيَةِ ، وَحُسْنِ عَاقِبَةِ الطّاعَةِ . ثُمّ أَخْبَرَ أَنّهُ عَفَا عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلّهِ وَأَنّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . قِيلَ لِلْحَسَنِ كَيْفَ يَعْفُو عَنْهُمْ وَقَدْ سَلّطَ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ حَتّى قَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوا وَمَثّلُوا بِهِمْ وَنَالُوا مِنْهُمْ مَا نَالُوهُ ؟ فَقَالَ : لَوْلا عَفْوُهُ عَنْهُمْ لاسْتَأْصَلَهُمْ ، وَلَكِنْ بِعَفْوِهِ عَنْهُمْ دَفَعَ عَنْهُمْ عَدُوّهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُجْمِعِينَ عَلَى اسْتِئْصَالِهِم .

ثُمّ ذَكّرَهُمْ بِحَالِهِمْ وَقْتَ الْفِرَارِ مُصْعِدِينَ ، أَيْ جَادّينَ فِي الْهَرَبِ وَالذّهَابِ فِي الأَرْضِ ، أَوْ صَاعِدِينَ فِي الْجَبَلِ لا يَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نَبِيّهِمْ وَلا أَصْحَابِهِمْ ، وَالرّسُولُ يَدْعُوهُمْ فِي أُخْرَاهُمْ : إِلَيّ عِبَادَ اللّهِ ، أَنَا رَسُولُ اللّهِ ، فَأَثَابَهُمْ بِهَذَا الْهَرَبِ وَالْفِرَارِ غَمّا بَعْدَ غَمّ ، غَمّ الْهَزِيمَةِ وَالْكَسْرَةِ ، وَغَمّ صَرْخَةِ الشّيْطَانِ فِيهِمْ بِأَنّ مُحَمّدًا قَدْ قُتِلَ . وَقِيلَ : جَازَاكُمْ غَمّا بِمَا غَمَمْتُمْ رَسُولَهُ بِفِرَارِكُمْ عَنْهُ ، وَأَسْلَمْتُمُوهُ إِلَى عَدُوّهِ ، فَالْغَمّ الّذِي حَصَلَ لَكُمْ جَزَاءً عَلَى الْغَمّ الّذِي أَوْقَعْتُمُوهُ بِنَبِيّهِ ، وَالْقَوْلُ الأَوّلُ أَظْهَرُ لِوُجُوهٍ .

أَحَدُهَا : أَنّ قَوْلَهُ : { لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ } تَنْبِيهٌ عَلَى حِكْمَةِ هَذَا الْغَمّ بَعْدَ الْغَمّ ، وَهُوَ أَنْ يُنْسِيَهُمْ الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ الظفر ، وعلى ما أَصَابَهُمْ مِنْ الْهَزِيمَةِ وَالْجِرَاحِ ، فَنَسُوا بِذَلِكَ السّبَبَ وَهَذَا إِنّمَا يَحْصُلُ بِالْغَمّ الّذِي يَعْقُبُهُ غَمّ آخَرُ .

الثّانِي : أَنّهُ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ فَإِنّهُ حَصَلَ لَهُمْ غَمّ فَوَاتِ الْغَنِيمَةِ ، ثُمّ أَعْقَبَهُ غَمّ الْهَزِيمَةِ ، ثُمّ غَمّ الْجِرَاحِ الّتِي أَصَابَتْهُمْ ، ثُمّ غَمّ الْقَتْلِ ، ثُمّ غَمّ سَمَاعِهِمْ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ ، ثُمّ غَمّ ظُهُورِ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ غَمّيْنِ اثْنَيْنِ خَاصّةً ، بَلْ غَمّا مُتَتَابِعًا لِتَمَامِ الابْتِلاءِ وَالامْتِحَانِ .

الثّالِثُ أَنّ قَوْلَهُ " بِغَمّ " مِنْ تَمَامِ الثّوَابِ لا أَنّهُ سَبَبُ جَزَاءِ الثّوَابِ وَالْمَعْنَى : أَثَابَكُمْ غَمّا مُتّصِلاً بِغَمّ جَزَاءً عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ الْهُرُوبِ وَإِسْلامِهِمْ نَبِيّهُمْ ﷺ وَأَصْحَابَهُ ، وَتَرْكِ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لَهُ فِي لُزُومِ مَرْكَزِهِمْ ، وَتَنَازُعِهِمْ فِي

الأَمْرِ وَفَشَلِهِمْ ، وَكُلّ وَاحدٍ منْ هَذِهِ الأُمُورِ يُوجِبُ غَمًّا يَخُصّهُ ، فَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِمُ الْغُمُومُ، كَمَا تَرَادَفَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُهَا وَمُوجِبَاتُهَا ، وَلَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُمْ بِعَفْوِهِ لَكَانَ أَمْرًا آخَرَ. وَمِنْ لُطْفِهِ بِهِمْ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنّ هَذِهِ الأُمُورَ الّتِي صَدَرَتْ مِنْهُمْ ، كَانَتْ مِنْ مُوجِبَاتِ الطّبَاعِ ، وَهِيَ مِنْ بَقَايَا النّفُوسِ الّتِي تَمْنَعُ مِنْ النّصْرَةِ الْمُسْتَقِرّةِ ، فَقَيّضَ لَهُمْ بِلُطْفِهِ أَسْبَابًا أَخْرَجَهَا مِنْ الْقُوّةِ إلَى الْفِعْلِ ، فَتَرَتّبَ عَلَيْهَا آثَارُهَا الْمَكْرُوهَةُ ، فَعَلِمُوا حِينَئِذٍ أَنّ التّوْبَةَ مِنْهَا وَالاحْتِرَازَ مِنْ أَمْثَالِهَا وَدَفْعَهَا بِأَضْدَادِهَا أَمْرٌ مُتَعَيّنٌ ، لا يَتِمّ لَهُمْ الْفَلاحُ وَالنّصْرَةُ الدّائِمَةُ الْمُسْتَقِرّةُ إلا بِهِ ، فَكَانُوا أَشَدّ حَذَرًا بَعْدَهَا وَمَعْرِفَةً بِالأَبْوَابِ الّتِي دَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا .

ثُمّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ حِكْمَةٍ أُخْرَى فِي هَذَا التّقْدِيرِ ، هِيَ ابْتِلاءُ مَا فِي صُدُورِهِمْ ، وَهُوَ اخْتِبَارُ مَا فِيهَا مِنْ الإِيمَانِ وَالنّفَاقِ ، فَالْمُؤْمِنُ لا يَزْدَادُ بِذَلِكَ إلا إيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، وَالْمُنَافِقُ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ لا بُدّ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي قَلْبِهِ عَلَى جَوَارِحِهِ وَلِسَانِهِ .

ثُمّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخْرَى : وَهُوَ تَمْحِيصُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ تَخْلِيصُهُ وَتَنْقِيَتُهُ وَتَهْذِيبُهُ ، فَإِنّ الْقُلُوبَ يُخَالِطُهَا بِغَلَبَاتِ الطّبَائِعِ وَمَيْلِ النّفُوسِ وَحُكْمِ الْعَادَةِ وَتَزْيِينِ الشّيْطَانِ وَاسْتِيلاءِ الْغَفْلَةِ مَا يُضَادّ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنْ الإِيمَانِ وَالإِسْلامِ وَالْبِرّ وَالتّقْوَى ، فَلَوْ تُرِكَتْ فِي عَافِيَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرّةٍ لَمْ تَتَخَلّصْ مِنْ هَذِهِ الْمُخَالَطَةِ وَلَمْ تَتَمَحّصْ مِنْهُ ، فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ الْعَزِيزِ أَنْ قَيّضَ لَهَا مِنْ الْمِحَنِ وَالْبَلايَا مَا يَكُونُ كَالدّوَاءِ الْكَرِيهِ لِمَنْ عَرَضَ لَهُ دَاءٌ إنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ طَبِيبُهُ بِإِزَالَتِهِ وَتَنْقِيَتِهِ مِنْ جَسَدِهِ ، وَإِلا خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهُ الْفَسَادُ وَالْهَلاكُ ، فَكَانَتْ نِعْمَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْكَسْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ ، وَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ تُعَادِلُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِنَصْرِهِمْ ، وَتَأْيِيدِهِمْ وَظَفَرِهِمْ بِعَدُوّهِمْ ، فَلَهُ عَلَيْهِمْ النّعْمَةُ التّامّةُ فِي هَذَا وَهَذَا .

ثُمّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَوَلّي مَنْ تَوَلّى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الصّادِقِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنّهُ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، فَاسْتَزَلّهُمْ الشّيْطَانُ بِتِلْكَ الأَعْمَالِ حَتّى تَوَلّوْا فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ جُنْدًا عَلَيْهِمْ ، ازْدَادَ بِهَا عَدُوّهُمْ قُوّةً ، فَإِنّ الأَعْمَالَ جُنْدٌ لِلْعَبْدِ ، وَجُنْدٌ عَلَيْهِ ، وَلا بُدّ لِلْعَبْدِ فِي كُلّ وَقْتٍ مِن سَرِيّةٍ مِنْ نَفْسِهِ تَهْزِمُهُ أَوْ تَنْصُرُهُ ، فَهُوَ يَمُدّ عَدُوّهُ بِأَعْمَالِهِ مِنْ

حَيْثُ يَظُنّ أَنَّهُ يُقَاتِلُهُ بِهَا ، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِ سَرِيَّةً تَغْزُوهُ مَعَ عَدُوِّهِ مِنْ حَيْثُ يَظُنّ أَنَّهُ يَغْزُو عَدُوَّهُ ، فَأَعْمَالُ الْعَبْدِ تَسُوقُهُ قَسْرًا إِلَى مُقْتَضَاهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْعَبْدُ لا يَشْعُرُ أَوْ يَشْعُرُ وَيَتَعَامَى فَفِرَارُ الإِنْسَانِ مِنْ عَدُوِّهِ وَهُوَ يُطِيقُهُ ، إِنَّمَا هُوَ بِجُنْدٍ مِنْ عَمَلِهِ بَعَثَهُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَاسْتَزَلَّهُ بِهِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ ، لأَنَّ هَذَا الْفِرَارَ لَمْ يَكُنْ عَنْ نِفَاقٍ وَلا شَكٍّ وَإِنَّمَا كَانَ عَارِضًا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ، فَعَادَتْ شَجَاعَةُ الإِيمَانِ وَثَبَاتُهُ إِلَى مَرْكَزِهَا وَنِصَابِهَا ، ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا أُتُوا فِيهِ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ وَبِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ ، فَقَالَ { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران ١٦٥] وَذَكَرَ هَذَا بِعَيْنِهِ فِيمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ فَقَالَ { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى : ٣٠] وَقَالَ { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء ٧٩] فَالْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ هَا هُنَا : النِّعْمَةُ وَالْمُصِيبَةُ ، فَالنِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ مَنَّ بِهَا عَلَيْكَ ، وَالْمُصِيبَةُ إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ ، فَالأَوَّلُ فَضْلُهُ ، وَالثَّانِي عَدْلُهُ ، وَالْعَبْدُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ ، جَارٍ عَلَيْهِ فَضْلُهُ ، مَاضٍ فِيهِ حُكْمُهُ ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَاؤُهُ . وَخَتَمَ الآيَةَ الأُولَى بِقَوْلِهِ : { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } بَعْدَ قَوْلِهِ : { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } إِعْلامًا لَهُمْ بِعُمُومِ قُدْرَتِهِ مَعَ عَدْلِهِ ، وَأَنَّهُ عَادِلٌ قَادِرٌ ، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ وَالسَّبَبِ ، فَذَكَرَ السَّبَبَ وَأَضَافَهُ إِلَى نُفُوسِهِمْ ، وَذَكَرَ عُمُومَ الْقُدْرَةِ وَأَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ ، فَالأَوَّلُ يَنْفِي الْجَبْرَ وَالثَّانِي يَنْفِي الْقَوْلَ بِإِبْطَالِ الْقَدَرِ فَهُوَ يُشَاكِلُ قَوْلَهُ : { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير ٣٠]

وَفِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ هَا هُنَا نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ بِيَدِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَصَرَفَهُ عَنْكُمْ ، فَلا تَطْلُبُوا كَشْفَ أَمْثَالِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلا تَتَّكِلُوا عَلَى سِوَاهُ،

وكَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى وَأَوْضَحَهُ كُلَّ الإيضاحِ بِقَوْلِهِ { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ } وَهُوَ الإِذْنُ الْكَوْنِيّ الْقَدَرِيّ لا الشَّرْعِيّ الدِّينِيّ كَقَوْلِهِ فِي السِّحْرِ { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البَقَرَةُ ١٠٢] ثُمّ أَخْبَرَ عَنْ حِكْمَةِ هَذَا التَّقْدِيرِ وَهِيَ أَنْ يَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ عِلْمَ عِيَانٍ وَرُؤْيَةٍ يَتَمَيّزُ فِيهِ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ الآخَرِ تَمْيِيزًا ظَاهِرًا ، وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ هَذَا التَّقْدِيرِ تكلم المنافقين بما في نفوسهم ، فسمعه المؤمنون وسمعوا رَدّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَجَوَابَهُ لَهُمْ ، وَعَرَفُوا مُؤَدّى النِّفَاقِ وَمَا يَئُولُ إلَيْهِ ، وَكَيْفَ يُحْرَمُ صَاحِبُهُ سَعَادَةَ الدّنْيَا وَالآخِرَةِ فَيَعُودُ عَلَيْهِ بِفَسَادِ الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ حِكْمَةٍ فِي ضِمْنِ هَذِهِ الْقِصّةِ بَالِغَةٍ وَنِعْمَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَابِغَةٍ ، وكَمْ فِيهَا مِنْ تَحْذِيرٍ وَتَخْوِيفٍ وَإِرْشَادٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَعْرِيفٍ بِأَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالشّرّ وَمَا لَهُمَا وَعَاقِبَتُهُمَا (١) .

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٩ : ١٠٧ بتصرف .

غزوة الخندق

غزوة الخندق :

نسبت هذه الغزوة إلى الخندق الذي حفره المسلمون بجوار المدينة ، وكانت هـذه الفكرة من سلمان الفارسي ، لأن أهل فارس كانوا يفعلونها إذا خافوا عدواً .

وتسمى غزوة الأحزاب ، وهي الغزوة التي ابتلى الله فيها عباده المؤمنين ، وبعـث الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما كان يبطنه أهـل النفـاق ، وفضـحهم وفزعهم ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى نصره ونصر عبده ، وهزم الأحـزاب وحـده ، وأعز جنده ، ورد الكفرة بغيظهم ، ووقى المؤمنين شر كيدهم ، وحرم عليهم شـرعاً وقدرا أن يغزوا المؤمنين بعدها ، بل جعلهم المغلوبين ، وجعل حزبه هم الغالبين (١) . وَكَانَتْ فِي سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ فِي شَوَّالٍ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ إِذْ لَا خِلَافَ أَنَّ أُحُـدًا كَانَتْ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَوَاعَدَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ وَهُوَ سَـنَةُ أَرْبَعٍ ثُمَّ أَخْلَفُوهُ لِأَجْلِ جَدْبِ تِلْكَ السَّنَةِ فَرَجَعُوا فَلَمَّا كَانَتْ سَنَةُ خَمْسٍ جَاءُوا لِحَرْبِهِ هَذَا قَوْلُ أَهْلِ السِّيَرِ وَالْمَغَازِي (٢) .

سببها :

أن النبي ﷺ لما أجلى بني النضير، وساروا إلى خيبر ، وبها من يهود قـوم أهـل عدد وجلد ، وليس لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير قال ابن إسـحاق : إِنَّـهُ كَانَ مِنْ حَدِيثِ الْخَنْدَقِ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ ، مِنْهُمْ سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْـقِ النَّضْـرِيُّ ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ النَّضْرِيُّ ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيُّ ، وَأَبُو عَمَّارٍ الْوَائِلِيُّ ، فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ وَهُمُ الَّذِينَ حَزَّبُـوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا : إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ، فَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ : يَـا مَعْشَرَ يَهُودَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ أَفَدِينُنَا

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٦٣ .

(٢) زاد المعاد ٢/ ١١٧ .

خيرٌ أمْ دينهُ ؟ قالُوا : بلْ دينكُمْ خيْرٌ منْ دينه وأنْتمْ أولَى بالْحقّ منْهُ فهُمْ الّذين أنْزلَ اللّهُ تعَالَى فيهمْ { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا } إلى قوْله تعَالَى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } أيْ النّبُوّةَ { فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا }[النساء ٥١ : ٥٥] .

فلَمّا قالُوا ذلكَ لقُرَيْش سَرّهُمْ ونَشطُوا لمَا دَعوْهُمْ إليْه منْ حرْب رسُول اللّه ﷺ فاجْتمَعُوا لذَلكَ واتّعَدُوا لهُ . ثُمّ خرَجَ أُولَئكَ النّفَرُ منْ يهُودَ حَتّى جاءُوا غطفَانَ ، منْ قيْس عيْلانَ ، فدَعوْهُمْ إلى حرْب رسُول اللّه ﷺ وأخْبرُوهُمْ أنّهُمْ سيَكُونُونَ معَهُمْ علَيْه وأنّ قُريْشًا قدْ تابَعُوهُمْ علَى ذلكَ فاجْتمَعُوا معَهُمْ فيه .

فخرَجَتْ قُريْشٌ ، وقَائدُهَا أبُو سُفْيانَ بْنُ حرْب ، وخَرجَتْ غطفَانُ ، وقَائدُهَا عُيَيْنَةُبْنُ حصْن بْن حُذَيْفَةَ بْن بدْر ، في بَني فزَارَةَ والْحَارثُ بْنُ عوْف بْن أبي حَارثَةَ الْمُرّيّ، في بَني مُرّةَ ومسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ بْن نُوَيْرَةَ بْن طَريف بْن سُحْمَةَ بْن عبْد اللّه بْن هلال بْن خُلاوَةَ بْن أشْجَعَ بْن رَيْث بْن غطَفَانَ ، فيمَنْ تَابعَهُ منْ قوْمه منْ أشْجَعَ (١) .

عدة المشركين :

تجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء في دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس ، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٨٨ ، ٨٩ .

حرب بن أمية ووافتهم بنو سليم بمر الظهران ، وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية ، وهو أبو أبي الأعور السلمي الذي كان مع معاوية بصفين ، وخرجت معهم بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي ، وخرجت فزارة فأوعبت ، وهم ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف، وخرج معهم غيرهم ، وقد روى الزهري أن الحارث بن عوف رجع ببني مرة فلم يشهد الخندق منهم أحد، وكذلك روت بنو مرة ، والأول أثبت أنهم قد شهدوا الخندق مع الحارث ابن عوف ، وهجاه حسان بن ثابت فكان جميع القوم الذين وافوا الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف ، وهم الأحزاب ، وكانوا ثلاثة عساكر وعناجُ الأمر إلى أبي سفيان بن حرب(١).

حفر الخندق :

فَلَمّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ الأَمْرِ ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ وَعَمِلَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ فَدَأَبَ فِيهِ وَدَأَبُوا . وَأَبْطَأَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَجَعَلُوا يُوَرّونَ بِالضّعِيفِ مِنْ الْعَمَلِ وَيَتَسَلّلُونَ إلَى أَهْلِيهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَلا إذْنٍ . وَجَعَلَ الرّجُلُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا نَابَتْهُ النّائِبَةُ مِنْ الْحَاجَةِ الّتِي لا بُدّ لَهُ مِنْهَا ، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللّحُوقِ بِحَاجَتِهِ فَيَأْذَنُ لَهُ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ إلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ .

فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِي أُولَئِكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦٦/٢ .

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُاللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور٦٢] فنزلت هذه الآيَةُ فيمَنْ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِسْبَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْعَمَلِ وَيَذْهَبُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[النور٦٣] (١).

ولقد تفانى الصحابة رضوان الله عليهم في حفر الخندق حتى أرضوا الله ، وأرضوا رسوله ﷺ .

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ : (اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ   فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ)
فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا   عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا (٢) .

وعنه ﷺ قَالَ : جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا   عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٨٩ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجهاد / بَاب : التَّحْرِيضِ عَلَى الْقِتَالِ ٣/ ٢١٢ ، وفى بَاب : حَفْرِ الْخَنْدَقِ ٣/٢١٢ ، وفي بَاب : الْبَيْعَةِ فِي الْحَرْبِ أَنْ لا يَفِرُّوا ٤/ ٨ ، ٩ ، وفي المناقب / بَاب : دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أَصْلِحْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ ٤/ ٢٢٥ ، وفي المغازي / بَاب : غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَهِيَ الأَحْزَابُ ٥/ ٤٥ ، وفي الأحكام / بَاب : كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ ٨/ ١٢٢، ومسلم في الجهاد والسير / بَاب : غَزْوَةِ الأَحْزَابِ وَهِيَ الْخَنْدَقُ ٣/ ١٤٣١ ح ١٨٠٥ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ يُجِيبُهُمْ وَيَقُولُ :

(اللَّهُمَّ إِنَّه لا خَيْرَ إِلا خَيْرُ الآخِرَهْ فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ) (١) .

وعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا (٢) .

مكان الخندق وعدد المسلمين :

وَكَانَ حَفْرُ الْخَنْدَقِ أَمَامَ سَلْعٍ وَسَلْعٌ : جَبَلٌ خَلْفَ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ (٣) .

وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ثم خندق على المدينة ، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم عدوهم عليهم وعمل رسول الله ﷺ معهم بيده لينشط المسلمين ، ووكل بكل جانب منه قوماً فكان المهاجرون يحفرون من ناحية راتج إلى ذباب ، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى بني عبيد ، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان فهي كالحصن ، وخندقت بنو عبد الأشهل عليها مما يلي راتج إلى خلفها حتى جاء الخندق من وراء المسجد ، وخندقت بنو دينار من عند جربا إلى موضع دار ابن أبي ، الجنوب اليوم ، وفرغوا من حفره في ستة أيام ، ورفع المسلمون النساء والصبيان في الآطام (٤) .

---

(١) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٢) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٣) زاد المعاد ٢/ ١١٧ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٦٦ ، ٦٧ .

شدة جهدهم في حفر الخندق :

عن جابر بن عبد الله ﷺ قَالَ : إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا : هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ . فَقَالَ : (أَنَا نَازِلٌ) ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ . فَقُلْتُ لامْرَأَتِي رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ . فَعِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ ، فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ . فَقُلْتُ : طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ . قَالَ : (كَمْ هُوَ ؟) فَذَكَرْتُ لَهُ . قَالَ : (كَثِيرٌ طَيِّبٌ) قَالَ : (قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ وَلا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ) فَقَالَ : (قُومُوا) فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ : وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ ، قَالَتْ : هَلْ سَأَلَكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَقَالَ : (ادْخُلُوا وَلا تَضَاغَطُوا) فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا ، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ : (كُلِي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ) (١) .

دعاؤه ﷺ على المشركين يوم الخندق :

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ : (مَلأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ) (٢) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا) فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ

---

(١) أخرجه البخاري في المواضع السابقة .

(٢) أخرجاه في المواضع السابقة .

فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ (١) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : (لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلا شَيْءَ بَعْدَهُ) (٢) .

وعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى ﷺ قَالَ : دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الأَحْزَابِ فَقَالَ : (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ) (٣) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ الْغَزْوِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ يَبْدَأُ فَيُكَبِّرُ ثَلاثَ مِرَارٍ ثُمَّ يَقُولُ : (لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ) (٤) .

خيانة اليهود ونقضهم للعهد :

انطَلَقَ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَدَنَا مِنْ حِصْنِهِمْ ، فَأَبَى كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهُ حَتَّى فَتَحَ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ : لَقَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَأَسَدٍ عَلَى قَادَتِهَا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ . قَالَ كَعْبٌ جِئْتَنِي وَاَللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاؤُهُ فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ . فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَخَلَ مَعَ المشركين في مُحَارَبَتِهِ ، فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ وَشَرَطَ كَعْبٌ عَلَى حُيَيّ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَظْفَرُوا بِمُحَمَّدٍ أَنْ يَجِيءَ حَتَّى يَدْخُلَ مَعَهُ فِي حِصْنِهِ فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ وَوَفَّى لَهُ بِهِ . وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَبَرُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَنَقْضُهُمْ لِلْعَهْدِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ السَّعْدَيْنِ وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ لِيَعْرِفُوا : هَلْ هُمْ عَلَى عَهْدِهِمْ أَوْ قَدْ نَقَضُوهُ ؟ فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا يَكُونُ

---

(١) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٢) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٣) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٤) أخرجه البخاري في المواضع السابقة .

وَجَاهَرُوهُمْ بِالسَّبِّ وَالْعَدَاوَةِ وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ وَلَحَنُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَحْنًا يُخْبِرُونَهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَغَدَرُوا ، فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ) وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ ، وَاسْتَأْذَنَ بَعْضُ بَنِي حَارِثَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالُوا : { إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } [الأحزاب ١٣] وَهَمَّ بَنُو سَلَمَةَ بِالْفَشَلِ ثُمَّ ثَبَّتَ اللَّهُ الطَّائِفَتَيْنِ (١) .

حصار المشركين :

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْخَنْدَقِ ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ ، بَيْنَ الْجُرُفِ وَزَغَابَةَ فِي عَشَرَةِ آلافٍ مِنْ أَحَابِيشِهِمْ وَمَنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، حَتَّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقَمَى ، إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ . وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ ، فِي ثَلاثَةِ آلافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ(٢)

وَأَقَامَ الْمُشْرِكُونَ مُحَاصِرِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَهْرًا وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لأَجْلِ مَا حَالَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَنْدَقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إلا أَنَّ فَوَارِسَ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ أَقْبَلُوا نَحْوَ الْخَنْدَقِ فَلَمَّا وَقَفُوا عَلَيْهِ قَالُوا : إِنَّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْرِفُهَا ثُمَّ تَيَمَّمُوا مَكَانًا ضَيِّقًا مِنْ الْخَنْدَقِ فَاقْتَحَمُوهُ وَجَالَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ فِي السَّبْخَةِ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ وَدَعَوْا إِلَى الْبِرَازِ فَانْتَدَبَ لِعَمْرٍو عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَبَارَزَهُ فَقَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَكَانَ مِنْ شُجْعَانِ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْطَالِهِمْ وَانْهَزَمَ الْبَاقُونَ إِلَى أَصْحَابِهِمْ وَكَانَ شِعَارُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ " حم ، لا يُنْصَرُونَ " (٣).

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩١ .

(٣) زاد المعاد ٢/ ١١٨ .

على هامش المعركة :

صار المشركون إلى مكان ضيق أغفله المسلمون ، فعبر عكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ود، فجعل عمرو بن عبد ود يدعو إلى البراز ويقول :

ولقد بححت من النداء ... لجمعهم هل من مبارز ؟

وهو ابن تسعين سنة ، فقال علي بن أبي طالب : أنا أبارزه يا رسول الله . فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه وعممه وقال : (اللهم أعنه عليه) ثم برز له ودنا من صاحبه وثارت بينهما غبرة وضربه علي فقتله وكبر، فعلمنا أنه قد قتله وولى أصحابه هاربين وظفرت بهم خيولهم .

وحمل الزبير بن العوام على نوفل بن عبد الله بالسيف فضربه فشقه باثنين ، ثم اتعدوا أن يغدوا من الغد ، فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم ونحوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد ، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هُوِيّ من الليل ما يقدرون أن يزولوا من موضعهم ، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا عشاءً حتى كشفهم الله فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم (١) .

نصر الله للمؤمنين :

ثُمّ إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ - وَلَهُ الْحَمْدُ - صَنَعَ أَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ خَذَلَ بِهِ الْعَدُوّ وَهَزَمَ جُمُوعَهُمْ وَفَلّ حَدّهُمْ ، فَكَانَ مِمّا هَيّأَ مِنْ ذَلِكَ أَنّ رَجُلاً مِنْ غَطَفَانَ يُقَالُ لَهُ : نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرٍ ﷺ جَاءَ إلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي قَدْ أَسْلَمْت فَمُرْنِي بِمَا شِئْتُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (إنّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذّلْ عَنّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ) فَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ ذَلِكَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَ عَشِيرًا لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيّةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٨ .

لا يَعلَمُونَ بإسلامه فقالَ : يَا بَني قُرَيْظَةَ إنكُمْ قَدْ حَارَبْتُمْ مُحَمَّدًا وَإنَّ قُرَيْشًا إنْ أصَابُوا فُرْصَةً انتَهَزُوهَا وَإلا انشَمَرُوا إلَى بِلادِهِمْ رَاجِعِينَ وَتَرَكُوكُمْ وَمُحَمَّدًا فَانتَقَمَ مِنكُمْ . قَالُوا : فَمَا العَمَلُ يَا نُعَيْمُ ؟ قَالَ : لا تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يُعطُوكُمْ رَهَائِنَ .

قَالُوا : لَقَدْ أشَرْتَ بالرَّأيِ ، ثُمَّ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ إلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ تَعلَمُونَ وُدِّي لَكُمْ وَنُصحِي لَكُمْ . قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ إنَّ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ نَقْضِ عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَأصحَابِهِ ، وَإنَّهُمْ قَدْ رَاسَلُوهُ أنَّهُمْ يَأخُذُونَ مِنكُمْ رَهَائِنَ يَدفَعُونَهَا إلَيهِ ثُمَّ يُمَالِئُونَهُ عَلَيكُمْ ، فَإنْ سَألُوكُمْ رَهَائِنَ فَلا تُعطُوهُمْ ثُمَّ ذَهَبَ إلَى غَطَفَانَ .

فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلكَ فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ بَعَثُوا إلَى اليَهُودِ : إنَّا لَسْنَا بِأرْضِ مُقَامٍ وَقَدْ هَلَكَ الكُرَاعُ وَالخُفُّ فَانهَضُوا بِنَا حَتَّى نُنَاجِزَ محمداً فَأرْسَلَ إلَيهِمُ اليَهُودُ :

إنَّ اليَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أصَابَ مَنْ قَبْلَنَا حِينَ أحْدَثُوا فيه ، وَمَعَ هَذَا فَإنَّا لا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تَبْعَثُوا إلَيْنَا رَهَائِنَ ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِذَلِكَ قَالَتْ قُرَيْشٌ : صَدَقَكُمْ وَاللَّه نُعَيْمٌ .

فَبَعَثُوا إلَى يَهُودَ : إنَّا وَاللَّه لا نُرْسِلُ إلَيْكُمْ أحَدًا فَاخْرُجُوا مَعَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا ، فَقَالَتْ قُرَيْظَةُ : صَدَقَكُمْ وَاللَّه نُعَيْمٌ .

فَتَخَاذَلَ الفَرِيقَانِ ، وَأرْسَلَ اللَّهُ عَلَى المُشْرِكِينَ جُنْدًا مِنَ الرِّيحِ فَجَعَلَتْ تُقَوِّضُ خِيَامَهُمْ ، وَلا تَدَعُ لَهُمْ قِدْرًا إلا كَفَأتْهَا وَلا طُنُبًا إلا قَلَعَتْهُ وَلا يَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ ، وَجُنْدُ اللَّهِ مِنَ المَلائكَةِ يُزَلْزِلُونَهُمْ وَيُلْقُونَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالخَوْفَ ، وَأرْسَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَأتِيهِ بِخَبَرِهِمْ فَوَجَدَهُمْ عَلَى هَذِهِ الحَالِ وَقَدْ تَهَيَّئُوا للرَّحِيلِ ، فَرَجَعَ إلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَأخْبَرَهُ بِرَحِيلِ القَوْمِ ، فَأصْبَحَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَدُوَّهُ بِغَيْظِهِ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَاهُ اللَّهُ قِتَالَهُمْ ، فَصَدَقَ وَعْدَهُ وَأعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ (١) .

وعَنْ إبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أبِيهِ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ : لَوْ أدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّه

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٨ .

ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ ، وَأَبْلَيْتُ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ : أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ . لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ : (أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ : (أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ : (قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ) فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ . قَالَ : (اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : (وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا ، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ : (قُمْ يَا نَوْمَانُ) (١) .

الشرح والبيان :

ومعنى قَوْله : (وَأَخَذَتْنَا رِيح شَدِيدَة وَقُرّ) هُوَ بِضَمِّ الْقَاف ، وَهُوَ : الْبَرْد .وقَوْله : (قُرِرْت) هُوَ بِضَمِّ الْقَاف وَكَسْر الرَّاء ، أَيْ : بَرَدْت . وقَوْله ﷺ: (اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْم وَلا تَذْعَرهُمْ عَلَيَّ) هُوَ بِفَتْحِ التَّاء وَبِالذَّالِ الْمُعْجَمَة مَعْنَاهُ : لا تُفْزِعهُمْ عَلَيَّ وَلا تُحَرِّكهُمْ عَلَيَّ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : لا تُنَفِّرهُمْ وَهُوَ قَرِيب مِنْ الْمَعْنَى الأَوَّل ، وَالْمُرَاد : لا تُحَرِّكهُمْ عَلَيْك فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوك كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لأَنَّك رَسُولِي وَصَاحِبِي .

وَقَوْله : (فَلَمَّا وَلَّيْت مِنْ عِنْده جَعَلْت كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّام حَتَّى أَتَيْتهمْ) يَعْنِي : أَنَّهُ لَمْ يَجِد الْبَرْد الَّذِي يَجِدهُ النَّاس . وَلا مِنْ تِلْكَ الرِّيح الشَّدِيدَة شَيْئًا ، بَلْ عَافَاهُ اللَّه مِنْهُ بِبَرَكَةِ إِجَابَته لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَذَهَابه فِيمَا وَجَّهَهُ لَهُ ، وَدُعَائِهِ ﷺ لَهُ ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ اللُّطْف بِهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير / باب : غزوة الأحزاب ٣/ ١٤١٤ ح ١٧٨٨ .

وَمُعَافَاته مِنْ الْبَرْد حَتَّى عَادَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ ، فَلَمَّا رَجَعَ وَوَصَلَ عَادَ إِلَيْهِ الْبَرْد الَّذِي يَجِدهُ النَّاس ، وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَات رَسُول اللَّه ﷺ ، وَلَفْظَة الْحَمَّام عَرَبِيَّة ، وَهُوَ مُذَكَّر مُشْتَقّ مِنْ الْحَمِيم ، وَهُوَ : الْمَاء الْحَارّ .

وقوله : فَرَأَيْت أَبَا سُفْيَان يَصْلِي ظَهْره) هُوَ بِفَتْحِ الْيَاء وَإِسْكَان الصَّاد أَيْ : يُدْفِئهُ وَيُدْنِيه مِنْهَا ، وَهُوَ الصَّلا بِفَتْحِ الصَّاد وَالْقَصْر ، وَالصِّلاء بِكَسْرِهَا وَالْمَدّ .

وقوله : (كَبِد الْقَوْس) هُوَ : مِقْبَضهَا ، وَكَبِد كُلّ شَيْء وَسَطه . وقوله : (فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْت فَلَمَّا أَصْبَحْت قَالَ : قُمْ يَا نَوْمَان) هُوَ بِفَتْحِ النُّون وَإِسْكَان الْوَاو وَهُوَ كَثِير النَّوْم ، وَأَكْثَر مَا يُسْتَعْمَل فِي النِّدَاء كَمَا اِسْتَعْمَلَهُ هُنَا ، وقوله : (أَصْبَحْت) أَيْ : طَلَعَ الْفَجْر . وَفِي هَذَا الْحَدِيث : أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ وَأَمِير الْجَيْش بَعْث الْجَوَاسِيس وَالطَّلَائِع لِكَشْفِ خَبَر الْعَدُوّ . وَاَللَّه أَعْلَم (١) .

وذكر الله سبحانه امتنانه على المؤمنين بخذلان الفئة الكافرة ، ودحر عدوانهم ، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا - إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا - هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا - وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا - وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا - وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا - وَلَقَدْ كَانُوا

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ١٤٥ ، ١٤٦ بتصرف .

عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا - قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا - قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا - قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا - أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا - يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا - لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا - وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا - مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا - لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا - وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) (١) .

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٩ : ٢٥) .

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال: ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم ، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا ، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه ، ومَنْ هَمّ بشيء وصَدق هَمَّه بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله.

وقوله: { وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده (١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/ ٦٢٤ .

وقفة مع يهود المدينة :

- بني قينقاع :
- بني النضير :
- بني قريظة :

وقفة مع يهود المدينة :

كَانَ الْكُفَّار بَعْد الْهِجْرَة مَعَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى ثَلاثَة أَقْسَام : قِسْم وَادَعَهُمْ عَلَى أَنْ لا يُحَارِبُوهُ وَلا يُمَالِئُوا عَلَيْهِ عَدُوّهُ ، وَهُمْ طَوَائِف الْيَهُود الثَّلاثَة قُرَيْظَة وَالنَّضِير وَقَيْنُقَاع . وَقِسْم حَارَبُوهُ وَنَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَة كَقُرَيْشٍ . وَقِسْم تَارَكُوهُ وَانْتَظَرُوا مَا يَئُول إِلَيْهِ أَمْره كَطَوَائِف مِنْ الْعَرَب ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبّ ظُهُوره فِي الْبَاطِن كَخُزَاعَة ، وَبِالْعَكْسِ كَبَنِي بَكْر ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَعَهُ ظَاهِرًا وَمَعَ عَدُوّهُ بَاطِنًا وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ، فَكَانَ أَوَّل مَنْ نَقَضَ الْعَهْد مِنْ الْيَهُود بَنُو قَيْنُقَاع فَحَارَبَهُمْ فِي شَوَّال بَعْد وَقْعَة بَدْر فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمه ، وَأَرَادَ قَتْلَهُمْ فَاسْتَوْهَبَهُمْ مِنْهُ عَبْد اللَّه بْن أُبَيّ وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ فَوَهَبَهُمْ لَهُ ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ الْمَدِينَة إِلَى أَذْرِعَات . ثُمَّ نَقَضَ الْعَهْد بَنُو النَّضِير ، وَكَانَ رَئِيسهمْ حُيَيُّ بْن أَخْطَب . ثُمَّ نَقَضَتْ قُرَيْظَة (١) .

بني قينقاع :

قينقاع اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، أضيف إليهم سوق كانت بها ، ويقال سوق بني قينقاع . وهم من موالي الخزرج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله ابن أبيّ ابن سلول ، وكان عددهم قليلاً ، وصناعتهم الصياغة ، وهم أغنى سكان المدينة ، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عداوة قديمة في الجاهلية سببها اشتراكهم مع الخزرج في يوم بعاث .

كانت غزوة بني قينقاع في شوال من السنة الثانية من الهجرة (٢) .

حَارَبَتْهُ بَنُو قَيْنُقَاعَ بَعْدَ بَدْرٍ ، وَشَرِقُوا بِوَقْعَةِ بَدْرٍ ، وأظهروا البغي والحسد ، فَسَارَتْ إِلَيْهِمْ جُنُودُ اللَّهِ يَقْدُمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ عَلَى رَأْسِ عِشْرِينَ شَهْرًا مِنْ مُهَاجَرِهِ ، وَكَانَ حُلَفَاءُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيّ بْنِ سَلُولَ رَئِيسِ الْمُنَافِقِينَ .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/ ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٢) محمد ﷺ . ص : ١٨١ ، ١٨٢ .

وكَانُوا أَشْجَعَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَحَامِلُ لِوَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، وَحَاصَرَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ لَيْلَةً إِلَى هلال ذِي الْقَعْدَةِ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَتَحَصَّنُوا فِي حُصُونِهِمْ ، فَحَاصَرَهُمْ أَشَدَّ الْحِصَارِ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الَّذِي إِذَا أَرَادَ خِذْلانَ قَوْمٍ وَهَزِيمَتَهُمْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ وَقَذَفَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِقَابِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَكُتِّفُوا ، وَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فَوَهَبَهُمْ لَهُ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلا يُجَاوِرُوهُ بِهَا ، فَخَرَجُوا إِلَى أَذْرُعَاتٍ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَقَلَّ أَنْ لَبِثُوا فِيهَا حَتَّى هَلَكَ أَكْثَرُهُمْ وَكَانُوا صَاغَةً وَتُجَّارًا ، وَكَانُوا نَحْوَ السِّتَّمِائَةِ مُقَاتِلٍ ، وَكَانَتْ دَارُهُمْ فِي طَرَفِ الْمَدِينَةِ ، وَقَبَضَ مِنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَ قِسِيٍّ وَدِرْعَيْنِ وَثَلاثَةَ أَسْيَافٍ وَثَلاثَةَ رِمَاحٍ وَخَمَّسَ غَنَائِمَهُمْ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى جَمْعَ الْغَنَائِمِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ (١) .

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : حَارَبَتْ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ فَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ (٢) .

بني النضير :

النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وكانوا هم وقريظة نازلين بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم ، قال غير واحد من أهل السير : لما قدم اليهود المدينة نزلوا السافلة فاستوخموها فأتوا العالية فنزل بنو النضير بطُحان ، ونزل بنو قريظة

---

(١) زاد المعاد ٢/٧١ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي / باب : حَدِيثِ بَنِي النَّضِيرِ ٥/٢٣ ، ومسلم في الجهاد والسير / باب : إِجْلاءِ الْيَهُودِ مِنَ الْحِجَازِ ٣/ ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ح ١٧٦٦ .

مهزوراً ، وهما واديان يهبطان من حرة هناك ، تنصب منها مياه عذبة ، فاتخذ بنو النضير الحدائق والآطام وأقاموا بها ، وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة ، وكانوا يمتلكون نخيلاً بجوار المدينة .

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة (١) .

قَالَ الْبُخَارِيّ : وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ قَالَهُ عُرْوَةُ (٢) وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَلَّمَهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الْكِلابِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيّ ، فَقَالُوا : نَفْعَلُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ اجْلِسْ هَا هُنَا نَقْضِي حَاجَتَك ، وَخَلا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَسَوَّلَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ الشَّقَاء الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ ، فَتَآمَرُوا بِقَتْلِهِ ﷺ وَقَالُوا : أَيُّكُمْ يَأْخُذُ هَذِهِ الرَّحَا وَيَصْعَدُ فَيُلْقِيهَا عَلَى رَأْسِهِ يَشْدَخُهُ بِهَا ؟ فَقَالَ أَشْقَاهُمْ عَمْرُو بْنُ جِحَاش: أَنَا ، فَقَالَ لَهُمْ سَلامُ بْنُ مِشْكَم : لا تَفْعَلُوا فَوَاللَّهِ لَيُخْبَرَنَّ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّهُ لَنَقْضُ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، وَجَاءَ الْوَحْيُ عَلَى الْفَوْرِ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا هَمُّوا بِهِ فَنَهَضَ مُسْرِعًا ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَحِقَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا : نَهَضْتَ وَلَمْ نَشْعُرْ بِكَ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَمَّتْ يَهُودُ بِهِ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ ، وَلا تُسَاكِنُونِي بِهَا ، وَقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْرًا ، فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ فَأَقَامُوا أَيَّامًا يَتَجَهَّزُونَ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ : أَنْ لا تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ فَإِنَّ مَعِي أَلْفَيْنِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ فَيَمُوتُونَ دُونَكُمْ ، وَتَنْصُرُكُمْ قُرَيْظَةُ وَحُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَطَمِعَ رَئِيسُهُمْ حَيّ بْنُ أَخْطَبَ فِيمَا قَالَ لَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِنَّا لا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَنَهَضُوا إِلَيْهِ ، وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَحْمِلُ اللِّوَاءَ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَامُوا عَلَى حُصُونِهِمْ يَرْمُونَ بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ ، وَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ وَخَانَهُمْ ابْنُ أُبَيّ وَحُلَفَاؤُهُمْ

---

(١) مجمد ﷺ . ص : ٢١٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥/٢٣ .

مِنْ غَطَفَانَ ، وَلِهَذَا شَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِصَّتَهُمْ وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ } [الحشر ١٦] ، فَإِنَّ سُورَةَ الْحَشْرِ هِيَ سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ ، وَفِيهَا مَبْدَأُ قِصَّتِهِمْ وَنِهَايَتُهَا ، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَطَعَ نَخْلَهُمْ وَحَرَّقَ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا : نَحْنُ نَخْرُجُ عَنْ الْمَدِينَةِ ، فَأَنْزَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا بِنُفُوسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ ، وَأَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إِلا السِّلاحَ ، وَقَبَضَ النَّبِيُّ ﷺ الأَمْوَالَ وَالْحَلْقَةَ وَهِيَ السِّلاحُ ، وَكَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِنَوَائِبِهِ ، وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ،

وَلَمْ يُخَمِّسْهَا لأَنَّ اللَّهَ أَفَاءَهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ، وَخَمَّسَ قُرَيْظَةَ . قَالَ مَالِكٌ : خَمَّسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْظَةَ ، وَلَمْ يُخَمِّسْ بَنِي النَّضِيرِ . لأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلا رِكَابِهِمْ عَلَى بَنِي النَّضِيرِ كَمَا أَوْجَفُوا عَلَى قُرَيْظَةَ وَأَجْلاهُمْ إِلَى خَيْبَرَ ، وَفِيهِمْ حَيِيّ بْنُ أَخْطَبَ كَبِيرُهُمْ ، وَقَبَضَ السِّلاحَ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَوَجَدَ مِنْ السِّلاحِ خَمْسِينَ دِرْعًا ، وَخَمْسِينَ بَيْضَةً ، وَثَلاثَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا ، وَقَالَ : هَؤُلاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ وَكَانَتْ قِصَّتُهُمْ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ أَرْبَعٍ مِنْ الْهِجْرَةِ (١) .

بني قريظة :

بنو قريظة قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس . وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ(٢) .

وَقُرَيْظَةَ كَانَتْ أَشَدَّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَغْلَظَهُمْ كُفْرًا ، وَلِذَلِكَ جَرَى عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَجْرِ عَلَى إِخْوَانِهِمْ . وَكَانَ سَبَبُ غَزْوِهِمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَالْقَوْمُ مَعَهُ صُلْحٌ ، جَاءَ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فِي دِيَارِهِمْ فَقَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِعِزِّ الدَّهْرِ جِئْتُكُمْ بِقُرَيْشٍ عَلَى سَادَتِهَا ، وَغَطَفَانُ عَلَى قَادَتِهَا ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ

(١) زاد المعاد ٢/ ٧١، ٧٢ .

(٢) محمد ﷺ . ص : ٢٣٥ .

الشَّوْكَةِ وَالسِّلاحِ فَهَلُمَّ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا وَنَفْرُغَ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ رَئِيسُهُمْ : بَلْ جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ جِئْتَنِي بِسَحَابٍ قَدْ أَرَاقَ مَاءَهُ فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ ، فَلَمْ يَزَلْ حُيَيٌّ يُخَادِعُهُ وَيَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ حَتَّى أَجَابَهُ بشرط أن يدخل معه في حصنه يصيبه ما أَصَابَهُمْ ، فَفَعَلَ ، وَنَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَظْهَرُوا سَبَّهُ ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرُ ، فَأَرْسَلَ يَسْتَعْلِمُ الأَمْرَ فَوَجَدَهُمْ قَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ فَكَبَّرَ ، وَقَالَ : (أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِين) فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَمْ يَكُنْ إِلا أَنْ وَضَعَ سِلاحَهُ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : أَوَضَعْتَ السِّلاحَ ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا ؟ فَانْهَضْ بِمَنْ مَعَكَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنِّي سَائِرٌ أَمَامَك أُزَلْزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ ، وَأَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ ، فَسَارَ جِبْرِيلُ فِي مَوْكِبِهِ مِنْ الْمَلائِكَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَثَرِهِ فِي مَوْكِبِهِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ يَوْمَئِذٍ : (لا يُصَلِّيَن أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ) فَبَادَرُوا إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهَضُوا مِنْ فَوْرِهِمْ ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لا نُصَلِّيهَا إِلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَا أُمِرْنَا ، فَصَلَّوْهَا بَعْدَ عِشَاءِ الآخِرَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَرَادَ سُرْعَةَ الْخُرُوجِ فَصَلَّوْهَا فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدَةً مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ .

وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّايَةَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ وَنَازَلَ حُصُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَحَصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ الْحِصَارُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ رَئِيسُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ ثَلاثَ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ يُسْلِمُوا وَيَدْخُلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ فِي دِينِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوا ذَرَارِيَّهُمْ وَيَخْرُجُوا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ مُصْلَتَةً يُنَاجِزُونَهُ حَتَّى يَظْفَرُوا بِهِ أَوْ يُقْتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ويكبسوهم يوم السبت لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه فَأَبَوْا عَلَيْهِ أَنْ يُجِيبُوهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ أَنْ أَرْسِلْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ نَسْتَشِيرُهُ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامُوا فِي وَجْهِهِ يَبْكُونَ وَقَالُوا : يَا أَبَا لُبَابَةَ كَيْفَ تَرَى لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ يَقُولُ : إِنَّهُ الذَّبْحُ ، ثُمَّ عَلِمَ مِنْ فَوْرِهِ أَنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ ،

فَرَبَطَ نَفْسَهُ بِسَارِيَةِ الْمَسْجِدِ وَحَلَفَ أَلا يَحِلَّهُ إلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، وَأَنَّــهُ لا يَــدْخُلُ أَرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا ، فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ قَالَ : (دَعُوهُ حَتَّى يَتُــوبَ اللَّــهُ عَلَيْهِ) ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَحَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَتْ إِلَيْهِ الأَوْسُ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ فَعَلْتَ فِي بَنِي قَيْنُقَاعَ مَا قَدْ عَلِمْــتَ وَهُمْ حُلَفَاءُ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ ، وَهَؤُلاءِ مَوَالِينَا ، فَأَحْسِنْ فِيهِمْ فَقَالَ أَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُم قَالُوا : بَلَى . قَال : فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذ . قَــالُوا : قَــدْ رَضِــينَا ، فَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذ ، وكَانَ فِي الْمَدِينَةِ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ لِجُرْحٍ كَانَ بِهِ ، فَأُرْكِــبَ حِمَارًا وَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ لَهُ وَهُمْ كَنَفَتَاهُ : يَا سَــعْدُ أَجْمِــلْ إِلَــى مَوَالِيك ، فَأَحْسِنْ فِيهِمْ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حَكَّمَك فِيهِمْ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ ، وَهُوَ سَــاكِتٌ لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَال : لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَلا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِــمٍ ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ رَجَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَنَعَى إِلَيْهِمْ الْقَوْمَ ، فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلصَّحَابَةِ : (قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ) فَلَمَّا أَنْزَلُوهُ قَالُوا : يَا سَــعْدُ إِنَّ هَــؤُلاءِ الْقَوْمَ قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِك ، قَالَ وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ ؟ . قَالُوا : نَعَمْ . قَــالَ : وَعَلَــى الْمُسْلِمِينَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : عَلَى مَنْ هَا هُنَا وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ وَأَشَارَ إِلَــى نَاحِيَــةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِجْلالاً لَهُ وَتَعْظِيمًا ؟ قَالَ : (نَعَمْ وَعَلَيَّ) . قَالَ : فَإِنِّي أَحْكُمُ فِــيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ ، وَتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ ، وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَقَــدْ حَكَمْــتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ) وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ نَفَرٌ قَبْلَ النُّزُولِ ، وَهَرَبَ عَمْرُو بْنُ سَعْدٍ ، فَانْطَلَقَ فَلَمْ يُعْلَمْ أَيْنَ ذَهَبَ ، وَكَانَ قَدْ أَبَى الدُّخُولَ مَعَهُمْ فِــي نَقْــضِ الْعَهْدِ ، فَلَمَّا حُكِمَ فِيهِمْ بِذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى مِــنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ أُلْحِقَ بِالذُّرِّيَّةِ ، فَحُفِرَ لَهُمْ خَنَادِقُ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ ، وَضُــرِبَتْ أَعْنَــاقُهُمْ وَكَانُوا مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنَ النِّسَاءِ أَحَدٌ سِوَى امْــرَأَةٍ وَاحِــدَةٍ كَانَتْ طَرَحَتْ عَلَى رَأْسِ سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ رَحًى ، فَقَتَلَتْهُ وَجُعِلَ يُــذْهَبُ بِهِــمْ إِلَــى الْخَنَادِقِ أَرْسَالاً أَرْسَالاً ، فَقَالُوا لِرَئِيسِهِمْ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ : يَا كَعْبُ مَا تَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَــا ؟ فَقَالَ أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لا تَعْقِلُونَ ؟ أَمَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لا يَنْزِعُ وَالذَّاهِبُ مِنْكُمْ لا يَرْجِعُ هُوَ

وَاللَّهِ الْقَتْلُ . قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي أَمْرِهِمْ : إِنَّهُمْ أَحَدُ جَنَاحَيَّ وَهُمْ ثَلاثُمِائَةِ دَارِعٍ ، وَسِتُّمِائَةِ حَاسِرٍ ، فَقَالَ : قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَلا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ ، وَلَمَّا جِيءَ بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ إِلَى بَيْنِ يَدَيْهِ وَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهِ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي مُعَادَاتِك ، وَلَكِنْ مَنْ يُغَالِبْ اللَّهَ يُغْلَبْ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا بَأْسَ قَدَرُ اللَّهِ وَمَلْحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ حُبِسَ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ . وَاسْتَوْهَبَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ الزَّبِيْرَ بْنَ بَاطَا وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَوَهَبَهُمْ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ : قَدْ وَهَبَك لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَهَبَ لِي مَالَك وَأَهْلَك ، فَهُمْ لَك . فَقَالَ سَأَلْتُكَ بِيَدَيَّ عِنْدَك يَا ثَابِتُ إِلا أَلْحَقْتَنِي بِالأَحِبَّةِ فَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَلْحَقَهُ بِالأَحِبَّةِ مِنْ الْيَهُودِ، فَهَذَا كُلُّهُ فِي يَهُودِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ عَقِبَ كُلِّ غَزْوَةٍ مِنْ الْغَزَوَاتِ الْكِبَارِ . فَغَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَقِبَ بَدْرٍ ، وَغَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ عَقِبَ غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَغَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ عَقِبَ الْخَنْدَقِ (١) .

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٧٢ : ٧٤ بتصرف .

غزوة خيبر

غزوة خيبر :

وهي بِمُعْجَمَةٍ وَتَحْتَانِيَّةٍ وَمُوَحَّدَةٍ بِوَزْنِ جَعْفَر ، وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ذَات حُصُون وَمَزَارِع عَلَى ثَمَانِيَة بُرُد مِنْ الْمَدِينَة إِلَى جِهَة الشَّام ، وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ الْبَكْرِيّ أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِاسْمِ رَجُل مِنْ الْعَمَالِيق نَزَلَهَا وَهُوَ خَيْبَرُ بْنُ قَانِيَةَ بْن مَهْلايِل (١) .

وسكان خيبر يهود . وهي ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، وكان سكانها غير مجتمعين في صعيد واحد ، بل كانوا متفرقين في الوديان المجاورة ويقطنون بيوتا حصينة وسط النخيل وحقول القمح . وكانت خيبر مركزا لدسائس اليهود الذين هاجروا إليها .

وحصون خيبر الأساسية ثلاثة ، وكل منها مؤلف من عدة حصون وهي كالآتى :

(١) حصون النطاة وهي أربعة : (الناعم . الصعب . الكتيبة . بقلة) .

(٢) حصون الشق ، اثنان : (حصن أُبيّ . وحصن البري) .

(٣) حصون الكتيبة وهي ثلاثة : (حصن القموص . الوطيح . سُلالم) (٢) .

قال ابن إسحاق : ثُمّ أَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ حِينَ رَجَعَ مِنْ الْحُدَيْبِيَةِ ، ذَا الْحَجّةِ وَبَعْضَ الْمُحَرّمِ وَوَلِيَ تِلْكَ الْحَجّةَ الْمُشْرِكُونَ ثُمّ خَرَجَ فِي بَقِيّةِ الْمُحَرّمِ إلَى خَيْبَرَ وذلك فِي الْمُحَرّمِ سَنَةَ سَبْعٍ (٣) .

واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفاري وأخرج معه أم سلمة زوجته(٤) .

ويحكى سلمة بنُ الأكوع قصة خيبر وغيرها بعدما رجعوا من الحديبية فقال : قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً ، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لا تُرْوِيهَا ، قَالَ فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَا الرَّكِيَّةِ ، فَإِمَّا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا ، قَالَ : فَجَاشَتْ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ ، قَالَ :

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٥٣٠ ، والروض الأنف ٤/٦٤ .

(٢) محمد ﷺ . ص : ٢٧٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٣ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٠٦ .

فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسَطٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ : (بَايِعْ يَا سَلَمَةُ) قَالَ قُلْتُ : قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ . قَالَ : (وَأَيْضًا) قَالَ : وَرَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَزِلاً - يَعْنِي لَيْسَ مَعَهُ سِلاحٌ - قَالَ : فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً ثُمَّ بَايَعَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ قَالَ : (أَلا تُبَايِعُنِي يَا سَلَمَةُ ؟) قَالَ قُلْتُ : قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ . قَالَ : (وَأَيْضًا) قَالَ : فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ . ثُمَّ قَالَ لِي : (يَا سَلَمَةُ أَيْنَ حَجَفَتُكَ - أَوْ - دَرَقَتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ) قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلاً فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا . قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : (إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الأَوَّلُ : اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي) ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ وَاصْطَلَحْنَا ، قَالَ : وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَسْقِي فَرَسَهُ وَأَحُسُّهُ وَأَخْدِمُهُ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، قَالَ : فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا ، قَالَ : فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَبْغَضْتُهُمْ فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى وَعَلَّقُوا سِلاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ . قَالَ : فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ فَأَخَذْتُ سِلاحَهُمْ فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي ، قَالَ : ثُمَّ قُلْتُ وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ ، قَالَ : ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلاتِ يُقَالُ لَهُ : مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ) فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْزَلَ اللَّهُ: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } الآيَةَ كُلَّهَا [الفتح ٢٤] . قَالَ : ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، فَاسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ رَقِيَ هَذَا الْجَبَلَ اللَّيْلَةَ ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ سَلَمَةُ : فَرَقِيتُ

تلك اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِهِ مَعَ رَبَاحٍ غُلامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسِ طَلْحَةَ أُنَدِّيهِ مَعَ الظَّهْرِ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعَ ، وَقَتَلَ رَاعِيَهُ ، قَالَ فَقُلْتُ : يَا رَبَاحُ خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ ، قَالَ : ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكَمَةٍ فَاسْتَقْبَلْتُ الْمَدِينَةَ فَنَادَيْتُ ثَلاثًا : يَا صَبَاحَاهْ . ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ وَأَرْتَجِزُ أَقُولُ :

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

فَأَلْحَقُ رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَصُكُّ سَهْمًا فِي رَحْلِهِ حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ ، قَالَ قُلْتُ:

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ بِهِ ، حَتَّى إِذَا تَضَايَقَ الْجَبَلُ فَدَخَلُوا فِي تَضَايُقِهِ ، عَلَوْتُ الْجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بِالْحِجَارَةِ ، قَالَ : فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلاَّ خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي ، وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ بُرْدَةً ، وَثَلاثِينَ رُمْحًا يَسْتَخِفُّونَ ، وَلا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِنْ ثَنِيَّةٍ فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ : فُلانُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ ، فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ – يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ– وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ ، قَالَ الْفَزَارِيُّ : مَا هَذَا الَّذِي أَرَى ؟ قَالُوا : لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرْحَ ، وَاللَّهِ مَا فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا ، قَالَ : فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ ، قَالَ : فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ ، قَالَ : فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنَ الْكَلامِ قَالَ قُلْتُ : هَلْ تَعْرِفُونِي ؟ قَالُوا : لا ، وَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ قُلْتُ : أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لا أَطْلُبُ رَجُلاً مِنْكُمْ إِلا أَدْرَكْتُهُ وَلا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكَنِي . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَنَا أَظُنُّ . قَالَ : فَرَجَعُوا ، فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ

فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ ، قَالَ : فَإِذَا أَوَّلُهُمْ : الأَخْرَمُ الأَسَدِيُّ ، عَلَى إِثْرِهِ: أَبُو قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ ، وَعَلَى إِثْرِهِ : الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ ، قَالَ : فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الأَخْرَمِ قَالَ : فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ . قُلْتُ : يَا أَخْرَمُ احْذَرْهُمْ لا يَقْتَطِعُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ . قَالَ : يَا سَلَمَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ، فَلا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ . قَالَ : فَخَلَّيْتُهُ ، فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ . قَالَ : فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ ، وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ ، وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيَّ حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلا غُبَارِهِمْ شَيْئًا حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ : ذو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ وَهُمْ عِطَاشٌ ، قَالَ : فَنَظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ فَخَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ – يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عَنْهُ – فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً ، قَالَ : وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ فِي ثَنِيَّةٍ قَالَ : فَأَعْدُو فَأَلْحَقُ رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَصُكُّهُ بِسَهْمٍ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ ، قَالَ قُلْتُ :

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

قَالَ : يَا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ أَكْوَعُهُ بُكْرَةَ ، قَالَ قُلْتُ : نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ أَكْوَعُكَ بُكْرَةَ ، قَالَ: وَأَرْدَوْا فَرَسَيْنِ عَلَى ثَنِيَّةٍ ، قَالَ : فَجِئْتُ بِهِمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ فِيهَا مَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ ، وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ ، فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي حَلأْتُهُمْ عَنْهُ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ ، وَإِذَا بِلالٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنَ الإِبِلِ الَّذِي اسْتَنْقَذْتُ مِنَ الْقَوْمِ ، وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا ، قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ خَلِّنِي فَأَنْتَخِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ فَلا يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلا قَتَلْتُهُ ، قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ ، فَقَالَ: (يَا سَلَمَةُ أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلاً ؟) قُلْتُ : نَعَمْ وَالَّذِي أَكْرَمَكَ ، فَقَالَ : (إِنَّهُمُ الآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ) قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ فَقَالَ : نَحَرَ لَهُمْ فُلانٌ جَزُورًا ، فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا فَقَالُوا : أَتَاكُمُ الْقَوْمُ فَخَرَجُوا هَارِبِينَ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ

اللَّه ﷺ : (كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ) قَالَ : ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمَيْنِ سَهْمَ الْفَارِسِ ، وَسَهْمَ الرَّاجِلِ ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا ، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ قَالَ : وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ لا يُسْبَقُ شَدًّا ، قَالَ : فَجَعَلَ يَقُولُ أَلا مُسَابِقٌ إِلَى الْمَدِينَةِ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ قَالَ : فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلامَهُ قُلْتُ : أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا وَلا تَهَابُ شَرِيفًا ؟ قَالَ : لا إِلا أَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي وَأُمِّي ذَرْنِي فَلأُسَابِقَ الرَّجُلَ . قَالَ : (إِنْ شِئْتَ) قَالَ قُلْتُ : اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ قَالَ : فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي ، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ ، قَالَ : فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، قَالَ قُلْتُ : قَدْ سُبِقْتَ وَاللَّهِ ، قَالَ : أَنَا أَظُنُّ . قَالَ : فَسَبَقْتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا لَبِثْنَا إِلا ثَلاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بِالْقَوْمِ :

تَاللَّهِ لَوْلا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا ... فَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ هَذَا ؟) قَالَ : أَنَا عَامِرٌ ، قَالَ : (غَفَرَ لَكَ رَبُّكَ) قَالَ : وَمَا اسْتَغْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لإِنْسَانٍ يَخُصُّهُ إِلا اسْتُشْهِدَ ، قَالَ : فَنَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْلا مَا مَتَّعْتَنَا بِعَامِرٍ ، قَالَ : فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ ، قَالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ : مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ وَيَقُولُ :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

قَالَ : وَبَرَزَ لَهُ عَمِّي عَامِرٌ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرٌ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغَامِرٌ

قَالَ : فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِي تُرْسِ عَامِرٍ ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ . قَالَ سَلَمَةُ : فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ : بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ ، قَتَلَ نَفْسَهُ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟) قَالَ قُلْتُ : نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ . قَالَ : (كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ) ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى عَلِيٍّ وَهُوَ أَرْمَدُ فَقَالَ : (لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - أَوْ- يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) قَالَ : فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ وَهُوَ أَرْمَدُ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَسَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ ، وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ وَخَرَجَ مَرْحَبٌ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَقَالَ عَلِيٌّ :

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ
أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قَالَ : فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ (١) .

مسير النبي ﷺ إلى خيبر :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ سَلَكَ عَلَى عَصَرٍ ، فَبَنَى لَهُ فِيهَا مَسْجِدٌ ، ثُمَّ عَلَى الصَّهْبَاءِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِجَيْشِهِ حَتَّى نَزَلَ بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ : الرَّجِيعُ ، فَنَزَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَطَفَانَ ، لِيَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يُمِدُّوا أَهْلَ خَيْبَرَ ، وَكَانُوا لَهُمْ مُظَاهِرِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : غَزْوَةِ خَيْبَرَ ٥/ ٧٢ ، وفي الأدب / بَاب مَا يَجُوزُ مِنْ الشِّعْرِ وَالرَّجَزِ وَالْحُدَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنْهُ ٧/١٠٧ ، ١٠٨ ، ومسلم واللفظ له في الجهاد والسير / بَاب غَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ وَغَيْرِهَا ٣/ ١٤٣٢ : ١٤٤١ ح ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ ، وفي بَاب غَزْوَةِ خَيْبَرَ ٣/ ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ح ١٨٠٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٤ ، ١٥٥ .

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ : يَا عَامِرُ أَلا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ ، وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا فَنَـزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا ... وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَـا ... إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟) قَالُوا : عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ . قَالَ : (يَرْحَمُهُ اللَّهُ) قَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، لَـوْلا أَمْتَعْتَنَـا بِـهِ ، فَأَتَيْنَـا خَيْبَـرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (مَـا هَـذِهِ النِّيرَانُ ؟ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ) قَالُوا : عَلَى لَحْمٍ . قَالَ : (عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟) قَالُوا : لَحْمِ حُمُرِ الإِنْسِيَّةِ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا) فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ نُهَرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا ؟ قَالَ : (أَوْ ذَاكَ) فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَـامِرٍ قَصِـيرًا فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعُ ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ فَمَاتَ مِنْهُ، قَالَ : فَلَمَّا قَفَلُوا قَالَ سَلَمَةُ : رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي قَالَ : (مَـا لَـكَ ؟) قُلْتُ لَهُ : فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (كَذَبَ مَنْ قَالَهُ إِنَّ لَهُ لأَجْرَيْنِ) وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ (إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ)(١).

فتح حصون خيبر :

وَتَدَنَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الأَمْوَالَ يَأْخُذُهَا مَالاً مَالاً ، وَيَفْتَتِحُهَا حِصْنًا حِصْنًا ، فَكَانَ أَوَّلُ حُصُونِهِمْ أُفْتُتِحَ حِصْنُ نَاعِمٍ ، وَعِنْدَهُ قُتِلَ مَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ مِنْـهُ رَحَـا

(١) أخرجاه في المواضع السابقة .

فَقَتَلَتْهُ ،ثُمّ الْقَمُوصُ ، حِصْنُ بَنِي أَبِي الْحُقَيْقِ وَأَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ سَبَايَا ، مِنْهُنّ صَفِيّةُ بِنْتُ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ ، وَكَانَتْ عِنْدَ كِنَانَةَ بْنِ الرّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَبِنْتَيْ عَمّ لَهَا ، فَاصْطَفَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ صَفِيّةَ لِنَفْسِهِ . وَكَانَ دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيّ قَدْ سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ صَفِيّةَ فَلَمّا أَصْفَاهَا لِنَفْسِهِ أَعْطَاهُ ابْنَتَيْ عَمّهَا ، وَفَشَتْ السّبَايَا مِنْ خَيْبَرَ فِي الْمُسْلِمِينَ (١) .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : صَبَّحْنَا خَيْبَرَ بُكْرَةً فَخَرَجَ أَهْلُهَا بِالْمَسَاحِي فَلَمَّا بَصُرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ! وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ ! وَالْخَمِيسُ (٢) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ { فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ }) فَأَصَبْنَا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَنَادَى مُنَادِي النَّبِيِّ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ) (٣)

وعنه ﷺ قَالَ : صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ { فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ }) فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ فِي السِّكَكِ فَقَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُقَاتِلَةَ ، وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ ، وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ فَصَارَتْ إِلَى دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا (٤) .

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا ، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلا فَاذَّةً إِلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ ، فَقِيلَ مَا أَجْزَأَ مِنَّا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٥ .

(٢) وَقَوْلُ الْيَهُود : مُحَمّدٌ وَالْخَمِيسُ سُمّيَ الْجَيْشُ الْعَظِيمُ خَمِيسًا ، لِأَنّ لَهُ سَاقَةً وَمُقَدّمَةً وَجَنَاحَيْنِ وَقَلْبًا ، لا مِنْ أَجْلِ تَخْمِيسِ الْغَنِيمَةِ فَإِنّ الْخُمُسَ مِنْ سُنّةِ الإِسْلامِ وَقَدْ كَانَ الْجَيْشُ يُسَمّى خَمِيسًا فِي الْجَاهِلِيّةِ . الروض الأنف ٤/ ٦٨ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي/ باب : غَزْوَةِ خَيْبَرَ ٥/ ٧٣ ، ومسلم في الجهاد والسير / باب : غَزْوَة خَيْبَرَ ٣/ ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ح ١٣٦٥ .

(٤) أخرجاه في المواضع السابقة .

الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلانٌ !! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ قَالَ : فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ ، قَالَ : فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ : (وَمَا ذَاكَ ؟) قَالَ : الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ . فَقُلْتُ : أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (عِنْدَ ذَلِكَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)(١) .

ونقل ابن القيم عن مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ قال : دَخَلَ الْيَهُودُ حِصْنًا لَهُمْ مَنِيعًا يُقَالُ لَهُ : الْقَمُوصُ فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَكَانَتْ أَرْضًا وَخِمَةً شَدِيدَةَ الْحَرِّ ، فَجَهِدَ الْمُسْلِمُونَ جَهْدًا شَدِيدًا ، فَذَبَحُوا الْحُمُرَ فَنَهَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْلِهَا ، وَجَاءَ عَبْدٌ أَسْوَدُ حَبَشِيٌّ مِنْ أَهْلِ خيبر كان فِي غَنَمٍ لِسَيِّدِهِ فَلَمَّا رَأَى أَهْلَ خَيْبَرَ قَدْ أَخَذُوا السِّلاحَ سَأَلَهُمْ مَا تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نُقَاتِلُ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ فَأَقْبَلَ بِغَنَمِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَاذَا تَقُولُ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ؟ قَالَ : (أَدْعُو إِلَى الإِسْلامِ وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَأَنْ لا تَعْبُدَ إِلا اللَّهَ) . قَالَ الْعَبْدُ : فَمَا لِي إِنْ شَهِدْتُ وَآمَنْتُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ : (لَكَ الْجَنَّةُ إِنْ مِتَّ عَلَى ذَلِكَ) فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْغَنَمَ عِنْدِي أَمَانَةٌ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَخْرِجْهَا مِنْ عِنْدِكَ وَارْمِهَا بِالْحَصْبَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ أَمَانَتَكَ) فَفَعَلَ فَرَجَعَتْ الْغَنَمُ إِلَى سَيِّدِهَا فَعَلِمَ الْيَهُودِيُّ أَنَّ غُلامَهُ قَدْ أَسْلَمَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَوَعَظَهُمْ وَحَضَّهُمْ

---

(١) أخرجاه في المواضع السابقة .

عَلَى الْجِهَادِ ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ قُتِلَ فِيمَنْ قُتِلَ الْعَبْدُ الأَسْوَدُ ، فَاحْتَمَلَهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ ، فَأُدْخِلَ فِي الْفُسْطَاطِ فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اطَّلَعَ فِي الْفُسْطَاطِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ : (لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ هَذَا الْعَبْدَ وَسَاقَهُ إِلَى خَيْرٍ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ اثْنَتَيْنِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ وَلَمْ يُصَلِّ لِلَّهِ سَجْدَةً قَطُّ) .

قَالَ الْوَاقِدِيّ : وَتَحَوَّلَتْ الْيَهُودُ إِلَى قَلْعَةِ الزُّبَيْرِ : حِصْنٍ مَنِيعٍ فِي رَأْسِ قُلَّةٍ فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ : عزال فَقَالَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّك لَوْ أَقَمْتَ شَهْرًا مَا بَالَوْا إِنَّ لَهُمْ شَرَابًا وَعُيُونًا تَحْتَ الأَرْضِ يَخْرُجُونَ بِاللَّيْلِ فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قَلْعَتِهِمْ فَيَمْتَنِعُونَ مِنْك ، فَإِنْ قَطَعْت مَشْرَبَهُمْ عَلَيْهِمْ أَصْحَرُوا لَك ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَائِهِمْ فَقَطَعَهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قُطِعَ عَلَيْهِمْ خَرَجُوا ، فَقَاتَلُوا أَشَدَّ الْقِتَالِ وَقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ نَفَرٌ وَأُصِيبَ نَحْوُ الْعَشَرَةِ مِنْ الْيَهُودِ وَافْتَتَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ تَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْكُتَيْبَةِ وَالْوَطِيحِ وَالسَّلالِمِ حِصْنِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ، فَتَحَصَّنَ أَهْلُهُ أَشَدَّ التَّحَصُّنِ وَجَاءَهُمْ كُلُّ فَلٍّ كَانَ انْهَزَمَ مِنْ النَّطَاةِ وَالشَّقِّ ، فَإِنَّ خَيْبَرَ كَانَتْ جَانِبَيْنِ الأَوَّلُ الشَّقُّ وَالنَّطَاةُ وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهُ أَوَّلاً ، وَالْجَانِبُ الثَّانِي : الْكُتَيْبَةُ وَالْوَطِيحُ وَالسَّلالِمُ فَجَعَلُوا لا يَخْرُجُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ حَتَّى هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْصِبَ عَلَيْهِمْ الْمَنْجَنِيقَ فَلَمَّا أَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ وَقَدْ حَصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصُّلْحَ وَأَرْسَلَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْزِلْ فَأُكَلِّمَك ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " نَعَمْ " فَنَزَلَ ابْنُ أَبِي الحقيق فصالح رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَقْنِ دِمَاءِ مَنْ فِي حُصُونِهِمْ مِنْ الْمُقَاتِلَةِ وَتَرْكِ الذُّرِّيَّةِ لَهُمْ وَيَخْرُجُونَ مِنْ خَيْبَرَ وَأَرْضِهَا بِذَرَارِيِّهِمْ وَيُخَلُّونَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَأَرْضٍ وَعَلَى الصَّفْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ وَالْكُرَاعِ وَالْحَلْقَةِ إِلا ثَوْبًا عَلَى ظَهْرِ إِنْسَانٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " وَبَرِئَتْ مِنْكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رسوله إن كَتَمْتُمُونِي شَيْئًا " فَصَالَحُوهُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ : أَنْبَأَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ حَتَّى أَلْجَأَهُمْ إِلَى قَصْرِهِمْ فَغَلَبَ عَلَى الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالأَرْضِ فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يُجْلَوْا مِنْهَا وَلَهُمْ مَا حَمَلَتْ رِكَابُهُمْ وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لا يَكْتُمُوا وَلا يُغَيِّبُوا شَيْئًا فَإِنْ

فَعَلُوا فَلا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلا عَهْدَ ، فَغَيَّبُوا مَسْكًا فِيهِ مَالٌ وَحُلِيٌّ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ كَانَ احْتَمَلَهُ مَعَهُ إِلَى خَيْبَرَ حِينَ أُجْلِيَتْ النَّضِيرُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ : مَا فَعَلَ مَسْكُ حُيَيٍّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ النَّضِيرِ؟ . قَالَ أَذْهَبَتْهُ النَّفَقَاتُ وَالْحُرُوبُ . فَقَالَ : " الْعَهْدُ قَرِيبٌ وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ " فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الزُّبَيْرِ فَمَسَّهُ بِعَذَابٍ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ دَخَلَ خَرِبَةً فَقَالَ " قَدْ رَأَيْتُ حُيَيًّا يَطُوفُ فِي خَرِبَةٍ هَا هُنَا .فَذَهَبُوا فَطَافُوا فَوَجَدُوا الْمَسْكَ فِي الْخَرِبَةِ فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَيْ أَبِي الْحُقَيْقِ وَأَحَدُهُمَا زَوْجُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ بِالنَّكْثِ الَّذِي نَكَثُوا وَأَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ مِنْهَا فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ دَعْنَا نَكُونُ فِي هَذِهِ الأَرْضِ نُصْلِحُهَا وَنَقُومُ عَلَيْهَا فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلا لأَصْحَابِهِ غِلْمَانٌ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَكَانُوا لا يَفْرُغُونَ يَقُومُونَ عَلَيْهَا ، فَأَعْطَاهُمْ خيبر على أَنَّ لَهُمْ الشَّطْرَ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ وَكُلِّ ثَمَرٍ مَا بَدَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقِرَّهُمْ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَخْرُصُهُ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَقْتُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ الصُّلْحِ إلا ابْنَيْ أَبِي الْحُقَيْقِ لِلنَّكْثِ الَّذِي نَكَثُوا فَإِنَّهُمْ شَرَطُوا إِنْ غَيَّبُوا أَوْ كَتَمُوا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَغَيَّبُوا ، فَقَالَ : " لَهُمْ أَيْنَ الْمَالُ الَّذِي خَرَجْتُمْ بِهِ مِنْ الْمَدِينَةِ حِينَ أَجْلَيْنَاكُمْ ؟ " قَالُوا : ذَهَبَ فَحَلَفُوا عَلَى ذَلِكَ فَاعْتَرَفَ ابْنُ عَمِّ كِنَانَةَ عَلَيْهِمَا بِالْمَالِ حِينَ دَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الزُّبَيْرِ يُعَذِّبُهُ فَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِنَانَةَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فَقَتَلَهُ وَيُقَالُ إِنَّ كِنَانَةَ هُوَ كَانَ قَتَلَ أَخَاهُ مَحْمُودَ ابْنَ مَسْلَمَةَ (١) .

شهداء خيبر :

استشهد من أصحاب النبي ﷺ بخيبر : ربيعة بن أكثم ، وثقف بن عمرو بن سميط ، ورفاعة بن مسروح ، وعبد الله بن أمية بن وهب حليف لبني أسد بن عبد العزى، ومحمود بن مسلمة ، وأبو ضياح بن النعمان من أهل بدر ، والحارث بن

(١) زاد المعاد ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ بتصرف .

حاطب من أهل بدر، وعدي بن مرة بن سراقة ، وأوس بن حبيب ، وأنيف بن وائل ومسعود بن سعد بن قيس ، وبشر بن البراء بن معرور مات من الشـــاة المســـمومة ، وفضيل بن النعمان ، وعامر بن الأكوع أصاب نفسه فدفن هو ومحمود بن مسلمة في غار واحد بالرجيع بخيبر ، وعمارة بن عقبة بن عباد بن مليل ، ويسار العبد الأســـود ورجل من أشجع ، فجميعهم خمسة عشر رجلا (١) .

قتلى المشركين :

قتل منهم ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود ، منهم الحارث أبو زينـــب ومرحـــب وأسير وياسر وعامر وكنانة بن أبي الحقيق وأخوه ، وإنما ذكرنا هـــؤلاء وســـميناهم لشرفهم (٢) .

مصالحة أهل خيبر :

وَحَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ خَيْبَرَ فِي حِصْنَيْهِمْ الْوَطِيحِ وَالسَّلالِمِ ، حَتَّـــى إذَا أَيْقَنُـــوا بِالْهَلَكَةِ سَأَلُوهُ أَنْ يُسَيِّرَهُمْ وَأَنْ يَحْقِنَ لَهُمْ دِمَاءَهُمْ فَفَعَلَ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ حَازَ الأَمْوَالَ كُلَّهَا : الشَّقَّ وَنَطَاةَ وَالْكَتِيبَةَ وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ إلا مَا كَانَ مِنْ ذَيْنِك الْحِصْنَيْنِ . فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ أَهْلُ فَدَكَ قَدْ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا ، بَعَثُوا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْـــأَلُونَهُ أَنْ يُسَيِّرَهُمْ وَأَنْ يَحْقِنَ دِمَاءَهُمْ وَيُخَلُّوا لَهُ الأَمْوَالَ فَفَعَلَ . وَكَانَ فِيمَنْ مَشَى بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ : مُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ فَلَمَّا نَزَلَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَلَـــى ذَلِكَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعَامِلَهُمْ فِي الأَمْوَالِ عَلَى النِّصْفِ وَقَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْمَرُ لَهَا ، فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النِّصْفِ عَلَى أَنَّا إذَا شِئْنَا أَنْ نُخْرِجَكُمْ أَخْرَجْنَاكُمْ فَصَالَحَهُ أَهْلُ فَدَكَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَكَانَتْ خَيْبَرُ فَيْئًا بَيْنَ الْمُسْـــلِمِينَ ، وَكَانَـــتْ فَدَكُ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِبُوا عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلا رِكَابٍ (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٠٧ .

(٢) نفسه .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٩ .

محاولة قتل النبي بالسم ورجوعه إلى المدينة :

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْدَتْ لَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ ، امْرَأَةُ سَلامِ بْنِ مِشْكَمٍ ، شَاةً مَصْلِيَّةً وَقَدْ سَأَلَتْ أَيّ عُضْوٍ مِنْ الشَّاةِ أَحَبّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقِيلَ لَهَا : الذِّرَاعُ فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنْ السّمّ ثُمّ سَمّتْ سَائِرَ الشَّاةِ ثُمّ جَاءَتْ بِهَا ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنَاوَلَ الذِّرَاعَ فَلاكَ مِنْهَا مُضْغَةً فَلَمْ يُسِغْهَا ، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَأَمّا بِشْرٌ فَأَسَاغَهَا ، وَأَمّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَفَظَهَا ، ثُمّ قَالَ : (إنّ هَذَا الْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنّهُ مَسْمُومٌ) ثُمّ دَعَا بِهَا ، فَاعْتَرَفَتْ فَقَالَ : (مَا حَمَلَك عَلَى ذَلِك ؟) قَالَ : بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك ، فَقُلْت : إنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيُخْبَرُ . قَالَ : فَتَجَاوَزَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَاتَ بِشْرٌ مِنْ أَكْلَتِهِ الَّتِي أَكَلَ ، فَلَمّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَيْبَرَ انْصَرَفَ إِلَى وَادِي الْقُرَى، فَحَاصَرَ أَهْلَهُ لَيَالِيَ ثُمّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ (١) .

زواجه ﷺ بالسيدة صفية :

وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَفِيّةَ بِنْتَ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ وَابْنَةَ عَمّتِهَا ، وَكَانَتْ صَفِيّةُ تَحْتَ كِنَانَةَ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ وَكَانَتْ عَرُوسًا حَدِيثَةَ عَهْدٍ بِالدّخُولِ فَأَمَرَ بِلالاً أَنْ يَذْهَبَ بِهَا إِلَى رَحْلِهِ ، فَمَرّ بِهَا بِلالٌ وَسَطَ الْقَتْلَى ، فَكَرِهَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : (أَذَهَبَتْ الرّحْمَةُ مِنْكَ يَا بِلالُ ؟) وَعَرَضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الإِسْلامَ ، فَأَسْلَمَتْ ، فَاصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ ، وَأَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا ، وَبَنَى بِهَا فِي الطّرِيقِ ، وَأَوْلَمَ عَلَيْهَا ، وَرَأَى بِوَجْهِهَا خُضْرَةً فَقَالَ : (مَا هَذَا ؟) قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أُرِيتُ قَبْلَ قُدُومِك عَلَيْنَا كَأَنّ الْقَمَرَ زَالَ مِنْ مَكَانِهِ فَسَقَطَ فِي حَجْرِي ، وَلا وَاللَّهِ مَا أَذْكُرُ مِنْ شَأْنِك شَيْئًا ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى زَوْجِي فَلَطَمَ وَجْهِي ، وَقَالَ : تُمَنّيْنَ هَذَا الْمَلِكَ الّذِي بِالْمَدِينَةِ ، وَشَكّ الصّحَابَةُ هَلْ اتّخَذَهَا سُرّيّةً أَوْ زَوْجَةً ؟ فَقَالُوا : اُنْظُرُوا إنْ حَجَبَهَا فَهِيَ إحْدَى نِسَائِهِ وَإِلا فَهِيَ مِمّا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٩ .

مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، فَلَمَّا رَكِبَ جَعَلَ ثَوْبَهُ الَّذِي ارْتَدَى بِهِ عَلَى ظَهْرِهَا وَوَجْهِهَا ثُمَّ شَدَّ طَرَفَهُ تَحْتَهُ فَتَأَخَّرُوا عَنْهُ فِي الْمَسِيرِ ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا إِحْدَى نِسَائِهِ ، وَلَمَا قَدِمَ لِيَحْمِلَهَا عَلَى الرَّحْلِ أَجَلَّتْهُ أَنْ تَضَعَ قَدَمَهَا عَلَى فَخِذِهِ فَوَضَعَتْ رُكْبَتَهَا عَلَى فَخِذِهِ ثُمَّ رَكِبَتْ . وَلَمَّا بَنَى بِهَا بَاتَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَتَهُ قَائِمًا قَرِيبًا مِنْ قُبَّتِهِ آخِذًا بِقَائِمِ السَّيْفِ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَبَّرَ أَبُو أَيُّوبَ حِينَ رَآهُ قَدْ خَرَجَ ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا لَكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟) فَقَالَ لَهُ أَرِقْتُ لَيْلَتِي هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا دَخَلْتَ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ ذَكَرْتُ أَنَّكَ قَتَلْتَ أَبَاهَا وَأَخَاهَا وَزَوْجَهَا وَعَامَّةَ عَشِيرَتِهَا فَخِفْتُ أَنْ تَغْتَالَكَ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَعْرُوفًا (١)

(١) زاد المعاد ٢/١٣٧ .

فهرس الموضوعات